أحمد توفيق المدني

المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا

نشر
مكتبة الاستقامة — تونس

طبع
المطبعة العربية — الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أجل ؛ انها لصفحة شرف وفخار ، من تاريخ حافل مجيد .

تلك هي الصفحة التي كتبها اجدادنا الاكرمون بدمائهم الزكية ، على اديم الارض الصقلية ، وسجلوها بجلائل اعمالهم في سفر الوجود ، و اقتحموا بها و بامثالها ابواب الخلود .

و يالها من ذكريات تثيرها في نفوسنا تلك الصحف المطهرة ، صحف جهاد الاجداد في سبيل الفتح الاسلامي ، و في سبيل العمران والرقي ونشر المعرفة والمدنية الحقة .

انها لذكريات اجداد كرام بررة ، تركوا لنا رأساً في التاريخ عاليا ، و ذكرا في الخافقين مجيدا ، انهم لقوم مهروا في سبيل الله وسبيل المدنية اشاوس الارض وطغام البحر ، وتغلبوا بقوة ايمانهم ومتانة سواعدهم وشدة شكيمتهم على كل معترض لهم في طريق حف بالصعاب ورص بالعقبات ، كان رائدهم يومئذ نكران الذات وتضحية النفس في سبيل المثل الاعلى ؛ على غرار سنة استنها لهم محمد بن عبد الله ، رسول الله ، وخلفاؤه من بعده ؛ فنالهم هنالك الاذى و اصابهم في طريقهم النكبات فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله و ما ضعفوا و ما استكانوا ، و الله يحب الصابرين ؛ و ما بين مشرق الشمس و بين مغربها ، و ما بين جليد الشمال و سعير الجنوب ، رفعوا فوق هام البر و فوق عباب البحر اعلامهم عالية خفاقة ، مرعية الجوار عزيزة الجانب ، وضم النضال حول هامتها هالة من نور الحق و عزة الانتصار .

و اننا قوم الشمال الافريقي ، ابناء الاطلس الابرار ، لأحق باحياء هذه الصفحة الصقلية و بنفض ما تراكم من فوقها خلال عصور الانحطاط ، من غبار. ذلك لأنها صفحة خاصة باجدادنا فى هذا الشمال ، فهم الذين فتحوا هنالك ومدنوا و تغلبوا ، و هم الذين انخذلوا بعد ذلك تحت تاثير عوامل شتى ، وتحت ضربات أعداء الداخل والخارج ، فضاع عنهم ما فتحوه حسا ومعنى بعد طول جلاد .

فعلينا — ونحن ابناؤهم — ان ندرس بررورا بهم ، تاريخهم فى حالتيه ، لنحيي ذكرهم ، وننصفهم حقهم ، ولنقيم لهم بـأقلامنا وفي قلوبنا ، تمثالا خالدا هو عنوان الاجلال والاعتراف بالجميل ، ثم لنستخرج من كل ذلك عظات وعبرا تنير امامنا جادة السير فى طريق الحياة الحقة حياة العمل والجد والسعادة وتحقيق الآمال .

انما هذه الصفحة الطيبة الثرية ، صفحة التاريخ الاسلامي بصقلية لم تكتب بعد ، ولم يقيض الله لها من يفردها بدراسة قيمة ، كما درست من قبل فتوحات المسلمين فى سائر الاقطار ، فنحن لا نجد من اخبار صقلية الاسلامية الا ما تناثر فى كتب التاريخ بين عربية وغربية وخاصة في كتب ابن خلدون وابن الاثير وابن الخطيب وابن جبير ، وبعض امهات الكتب الاخرى ، على ان تلك الاخبار المقتضبة التي كانت تذكر استطرادا ، لم تكن تهتم الا بكبريات الحوادث الحربية ، وتاريخ تولى الولاة ووفياتهم على اضطراب بينهم فى الترتيب . و قل من المؤرخين من تعرض لآثار ذلك الفتح ، وما كان له من ضلع كبير فى اشراق انوار المدنية والمعرفة على ربوع اوروبا ؟ وبعبارة اصرح ، مدى مشاركة المسلمين الصقليين فى بناء هيكل المدنية الحاضرة ؟ فيكاد يخيل اليك وانت تتلو كتب التاريخ القديمة ان مقام المسلمين بصقلية ما كان الا سلسلة من حروب وفتن واضطرابات ، وانه لم يكن وراء تلك الحروب و الفتن سوى دماء تهدر ، ومعا لم تخرب ، وحرمات تنتهك ؟

وتلك لعمري هفوة من مؤرخينا، علينا ان نتدار كها ؛ وعلينا ان نسد هذه الثلمة في هيكل تاريخنا القومي .

نعم ! يجمل بهذه المناسبة ، و في هذا الميدان ان نذكر وان نعترف بجميل عالمين جليلين ، ومؤرخين مبجلين اولهما السنيور ميكايل عماري (١) وقد نشر سنة

(١) هو صاحب السيف والقلم وبطل العلم والسياسة واحد كبار المجاهدين في سبيل الامة والوطن ، والدرة اللامعة في تاريخ الاستشراق الغربي على الاطلاق ؛ ولد في مدينة بالرمة سنة ١٧٠٦ من عائلة ربما كانت تنحدر من اصل عربي حسبما يدل عليه اسمها ، وحسبما يدل عليه اتجاه هذا البطل العظيم من احياء تاريخ المسلمين بصقلية ، وجمع آثارهم و الاشادة بما كان لهم من فضل على العلم والمدنية بحيث انه قد عمل وحده في هذا المضمار ما تنوء تحت وقره العصبة القوية من العاملين .

ولقد شب في بيت ثائر ، اذ كان أبوه من رجال الحركة الوطنية الاستقلالية بصقلية ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة ؛ فكان ميكايل متشبعا منذ نشأته بتلك الافكار لكنه اندفع في ميدان العلم لحذق العربية ، مدفوعا لذلك بعاطفة غريزية ولا ريب ، واخذ منذ شبابه يدرس تاريخ المسلمين ؛ وعندما حدثت الثورة في سبيل الحرية سنة ١٨٤٨ اندفع صاحبنا في مضمارها وخاض غمارها ، وسمي نائبا عن وطنه في مجلس الامة ؛ ثم استولى وزارة المالية حيث جاهد جهاد الابطال في سبيل الشعب والمستضعفين ؛ ثم ترك السياسة واعتكف على الدراسة والانتاج الخصب لكن ثورة غاريبا لدي عام ١٨٦٠ اخرجته من جديد لعالم السياسة والجهاد فشارك في الثورة مشاركة محسوسة ، واصبح بعد نجاحها مدير المعارف بمدينة بالرمة ثم وزير المعارف للدولة الطليانية الموحدة سنة ١٨٦٢ .

ثم اعتزل السياسة من جديد ، واخذ يدرس العربية في جامعة فلورنسا ؛

١٨٥٨ كتابه الحافل « المكتبة العربية الصقلية » وقد جمع فيه اغلب ما نشر في كتب العرب من اخبار صقلية والصقليين ، ايام دولة المسلمين؛ والف كتابا حافلا باللغة الطليانية « تاريخ العرب بصقلية » في خمسة اجزاء ضخمه .

وثانيهما صديقي الكبير و استاذي الجليل ، امير الامراء حسن حسني عبد الوهاب ، مدرس التاريخ بالخلدونية سابقا ، ووزير الدولة التونسية اليوم؛ حيث قدم لمؤتمر المستشرقين الرابع عشر المنعقد بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ رسالة قيمة باللغة الفرنسية (١) عن مسلمي صقلية وما كان لهم من اثر محمود في ميادين العلم والمدنية .

وتراس بتلك المدينة مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٧٦ ، واستمر عاملا جاداً في سبيل العربية والتاريخ الاسلامي الصحيح الى أن توفي بفلورانسا سنة ١٨٨٩ ، ومن اهم مآثره « تاريخ المسلمين في صقلية » في خمسة اجزاء ضخمة ، نشره سنة ١٨٥٤ ، واعيد طبعه من تعليقات مفيدة و كتاب « المكتبة العربية الصقلية » جمع فيه اهم ما كتبه المؤلفون المسلمون عن صقلية ، و كتاب « الآثار العربية المنقوشة على الحجارة بصقلية » و كتاب « مذكرة عن حوادث التاريخ في القرآن الكريم » وترجم للطليانية كتاب سلوان المطاع لابن ظفر؛ ورحلة ابن جبير بصقلية .

و قد اقام المستشرقون حفلا رائعا بمناسبة مرور مائة عام على ولادته؛ وبتلك المناسبة نشر استاذنا حسن حسني القسم المتعلق بصقلية وافريقيا من « اعمال الاعلام »

واني لأعتقد انه لا يتسنى للعرب الاطلاع على حقائق ودقائق تاريخ مسلمي صقلية ما لم يقيض الله من بينهم من يترجم للغة الضاد كتاب عماري الحافل الثري « تاريخ المسلمين في صقلية » فهل من مجيب ؟

(1) La domination musulmane en Sicile

ثم نشر حفظه الله بمدينة بالرمة سنة ١٩١٠ القسم المتعلق بالشمال الافريقي و جزيرة صقلية من كتاب اعمال الاعلام، لابن الخطيب، مع هوامش مفيدة باللغة الفرنسية متداركا بذلك ما سها العلامة ميكايل عماري الآنف الذكر عن حشره ضمن ﴿المكتبة العربية الصقلية﴾

**

ولقد كان اهتمامي بموضوع التاريخ الاسلامي بصقلية قديما، وكانت ولا تزال رغبتي فى اختراق مجاهله اكيدة؛ فنشرت فى الجزء الرابع من كتابي تقويم المنصور سنة ١٩٢٦ بحثا وجيزا عن تلك الحقبة من التاريخ، ولربما كنت قد وفقت يومئذ بعض التوفيق، فى تمهيد ذلك الطريق.

وانني لأعود اليوم الى هذا الموضوع، مقدما بين يدي الامجاد، قوم الشمال الافريقي ما اوصلني اليه جهد البحث والاستقراء عن تاريخ صقلية الاسلامية متوسعا فى ذلك، حسبما امكنني ان اتحصل عليه من مختلف الوثائق والمعلومات وبين طيات ما وصلت اليه من كتب عربية وافرنجية؛ مثبتا على هامش ذلك، حسب طريقتي؛ اهم الاحداث الكبرى، بالشرق وبالغرب، حتى يمكن لقارئي كتابي ان يخرج بالتاريخ المحلي عن عزلته، ويربط الحوادث الصقلية في مختلف ادوارها بمجرى التاريخ العالمي.

لكنني — والحمد لله — بعيد عن الغرور وكاذب الادعاء؛ فاقول بكل صراحة، ان كتابي هذا لايجب ان يعتبر الا تمهيداً لدراسة تاريخ المسلمين فى صقلية؛ فان كنت قد علمت شيئا وسجلته، فقد غابت عني ولا ريب اشياء؛ وان كنت قد ادليت خلال هذه الدراسة التاريخية ببعض آراء وافكار، فما انا بمقدمها الا لكي تعرض على مجال البحث والمناظرة، حتى يظهر من الحقائق التاريخية ما اخفته دفات الكتب، او طمست معالمه حوادث الايام.

بل انني ازيد غلواً في الصراحة ، فاقول للعلماء و الكتاب و المؤرخين من بني قومي ، انني ما اقدمت على وضع كتابي هذا ، ونشره ، وعرضه على النقادين ، الا لكي استفز منهم المشاعر ، واستحث فيهم الهمم ، علهم يندفعون بهمة وعزيمة و بما آتاهم الله من علم ، في هذا الباب ، فيتدار كون النقص ويأتون بفصل الخطاب تلك هي غايتي ، وهاتيك هي مناي .

واني لأبتهل الى الله ، ان يلهمنا الحق والصدق والصواب ، ويهدينا سواء السبيل ، حتى نخدم تاريخنا الخدمة المثلى ؛ فنخلد بذلك ذكرى اجدادنا ، ونقدم الامانة سليمة لأحفادنا .

وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت ، واليه انيب .

الجزائر — ١٢ ربيع الانور ١٣٦٥

القسم الاول

وصف جزيرة صقلية ومناخها وعمرانها

معقل طبيعي ، صنعته يد الله فى منتصف بحر الابيض المتوسط ، فقسمه الى شطرين شرقي وغربي ، وهيمن على حركة المرور بينهما ؛ وحصن حصين ارتكز بين القسمين البارزين من قارتي اروبا وافريقيا حيث تجابه شبه جزيرة شريك ، فى هيأة تحد ظاهر شبه جزيرة قلورية ، كأن كلا منهما تريد ان تمد ذراعها نحو الاخرى ، فتقوم بينهما جزيرة صقلية ، لتكون فى بعض الاحيان حكما ووسيطا ولتكون في كثير من الاحايين جسراً يعبر عليه اهل الجنوب الى اهل الشمال او ينحدر منه أهل الشمال الي اهل الجنوب ، حسب القوة والاستعداد ، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض .

شكل مثلث تكاد تتساوى اضلاعه ، اطلق عليه الاقدمون من اجل ذلك اسم « اترينا كريا » اي المثلث يفصله بحراً عن قلورية (بايطاليا) مضيق مسينا وهو لا يكاد يجاوز ٣ كيلومترات ، ويفصله عن البلاد التونسية معبر صقلية ، وعرضه ١٢٠ كيلومترا ؛ ويمسح هذا المثلث الصقلي ٢٥٤٦١ كيلومترا مربعا .

فاذا نحن قمنا بحركة طواف حول الجزيرة الصقلية مبتدئين سيرنا من مدينة مسينا ، رأينا منذ النظرة الاولى ان هذه الجزيرة تكاد تكون مقتطعة من ايطاليا حيث تستمر فيها ، فى اتجاه واحد جبال الابينان ، وتكاد تستانف منها فى نفس ذلك الاتجاه نفس تلك الجبال في الشمال الافريقي ، متخذة لنفسها اسم « الاطلس التلي » ولا يسع الرائي يومئذ الا الاقتناع بان افريقيا واروبا كانتا متصلتين فى غابر الازمان قبل عهد التاريخ ، بمعبر قلورية ، صقلية ، شبه جزيرة شريك ؛ ولقد

صدق الله العظيم اذ يقول : « أو لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما . »

ترى اثر خروجك من مسينا ، لاول وهلة ، كتلة هائلة من الصخر والتراب والمعادن المختلفة ، ترتفع الى عنان السماء قمتها ، وينزل الى قاع البحر اصلها ، تلك هي فلقان « الاتنا » او جبل النار ، حسبما تسميه كتب التاريخ العربي ، وانه ليثور في بعض الاحيان ، فيخرج من جوفه في اصوات كهزيم الرعد القاصف حمما ونيرانا متقدة و دخانا كثيفا ، فلا يبقي حواليه ولا يذر ، يحطم المدائن والقرى والدساكر ويهلك الحرث والنسل ؛ ثم لا تكاد تنقضي ثورته حتى يعود الصقليون الى تجديد ما حطمته النيران وما غمره الحما المسنون ، فكان المعركة هناك خالدة مستمرة بين قوى الطبيعة و بين الانسان ، وكان الله سبحانه وتعالى اراد ان يقيم منهما مثالا دائما للجلد والثبات ، والتغلب على العقبات والصبر على النائبات

فاذا نحن انحدرنا من مدينة مسينا نحو الجنوب رأينا ساحلا صخريا ، لا نتوء فيه ولا جون ولا خليج ، ويستمر كذلك الى مقربة من مدينة قطانيا ؛ ومن هنالك يتغير هياة الساحل فيغدو رمليا لطيفا ، وترى فيه مصب وادي « ليريتو » ثم يبرز الى البحر في جمال رائع ، راس اكروتشي .

و من ثم نستمر في انحدارنا صوب الجنوب ، فنجد عروس صقلية مدينة الفن والجمال ، والصيت التاريخي الرائع ، والذكريات المجيدة ، سرقوسة ، وانا لا نذكرها حتى يتراءى لنا شبح بطلها العظيم ارخيدس [١] الاغريقي حيث اجتمع

---

(١) يكاد يكون اكبر علماء البشرية على الاطلاق ولد بسرقوسة وقتل بها (٢١٢ — ٢٨٧ ق.م) من اهم اكتشافاته - الثقل النوعي وان اي جرم دخل في الماء نقص وزنه بمقدار ما ازاحه من الماء ؛ وقد اكتشف هذه القاعدة الخالدة التي كانت اساسا لعدة اكتشافات اخرى وهو يستحم ؛ فاخذه الوجد بنشوة الاكتشاف

العلم والوطنية والتضحية في ذهن واحد جبار ، فهو الى جانب اكتشافاته العلمية التي تعد فتحا للعنصر البشري نراه يوالي اختراع آلات الدفاع لصد غارة الرومان عن وطنه ، وقد جندله اخيرا سيف الطغيان بيد احد الوحوش الرومانيين .

ومن سرقوسة الى رأس باسيرو ، يتكون من الساحل شكل هلالي ليس فيه ما يستحق الذكر ، وهنالك ينتهي الساحل الشرقي من صقلية ؛ ويبلغ عمق البحر المتوسط حوالي ذلك نحوا من ٣٦٠٠ مترا ، وناخذ طريقنا صاعدين مع الساحل الجنوبي في حركة تدريجية وعلى خط يكاد يكون مستقيما ، وهنالك ينصب وادي سالسو ؛ ثم تقوم مدينة جرجنتي ذات الذكر الطويل في تاريخنا الاسلامي الصقلي ومن ثم نزيد ارتفاعا نحو الشمال الغربي فنرى سواحل كثيرة المياه ، وافرة المراعي والمروج ، حيث تقوم مدينة مرصالا ذات الرحيق الرقيق ، وبعد ذلك نصعد صوب الشمال حيث نجد مرفأ طرابنة اللطيف الشهير والذي سيمر بنا ذكره كثيرا اثناء البحث التاريخي .

عند راس كستيلا ماري ، تنحني الجزيرة ويبتدىء الساحل الشمالي على خط مستو يمتد من الغرب الى الشرق فنراه ساحلا صخريا جبليا ونلاحظ فيه بادىء ذي بدء خليجا تام الاستدارة بهي الشكل ، بديع الاطار هو خليج كستيلا ماري ومن عجب انه لا يحتوي الا على بليدة الكانو الصغيرة وبعض اكواخ لصائدي الاسماك ، فان خرجنا منه وجدنا راس دي قالو ومن علياته نشرف على جون مدينة بالرمه البديعة الطيبة عاصمة صقلية الاسلامية ومركز ادارتها الى يومنا هذا ثم نستمر في سيرنا مع سواحل صخر وجبال حتى نصل مدينة مسينا ذات البهاء والجمال والحركة المستمرة والعمران المتواصل ، ومنها ابتدانا سيرنا حول سواحل

وخرج من حمامه عاريا يجري في طرقات سرقوسة ويصيح بالكلمة المأثورة Eureka, Eureka اي وجدت ، وجدت .

الجزيرة؛ فلنتجه الان بانظارنا فاحصين دواخل الجزيرة باحثين في جبالها وسهولها وانجادها واغوارها.

الجبال: ان جبل الاتنا، هو اول ما يستحق الذكر ويستجلب النظر في صقلية، فارتفاعه يبلغ ٣٣١٣ مترا، من ذلك كان اكبر جبال النار في اوربا ولقد ادركه الهرم من قديم العصور فكلل الثلج هامته بمشيب سرمدى؛ لكن لم يكن ذلك بمانع لثورة ضميره، والقاء ما في قرارة نفسه امام العالم؛ امامساحته فتبلغ نحواً من ١٢٠٠ كيلومتر مربع ويمكن الصعود الى اعلى قمته بكل سهولة حيث الافواه الرهيبة التي يخرج منها على الداوم دخان يكون تارة لطيفا وطوراً كثيفا؛ وتسمع منها زمجرة نار الله الموقدة وهي تتميز من الغيظ «فكان الصاعد هنالك يشرف من عل على جهنم الحمراء او يرى عينة منها على الاقل.

والاتنا امة مستقلة برأسها لا تكاد تتصل باى سلسلة من الجبال الصقلية الاخرى.

فى شمال الجزيرة تمتد سلسلة من الشرق الى الغرب وهي جبال صخرية جرداء فلما رايت عليها اخضرار نبات او ابتسمت فى وجهك منها زهرة؛ تتكون طبقتها الخارجية من حجارة كلسية، ومن انواع الرخام الرفيع؛ وهذه السلسلة وهى سد طبيعي يحمي الجزيرة من غارات الشمال، ويقيها رياح الشمال الباردة، يبلغ ارتفاعها نحو الالفى متر، وهى تعتبر امتداداً من وراء مضيق مسينا لجبال الابنين بايطاليا، وتعتبر ايضا، تمهيداً لجبال الاطلس كما اسلفنا؛ ومنها تتكون بعض جبال فرعيه، تنحدر من اعلى الجزيرة الى اسفلها، اهمها الجبال التى ارتفعت فوقها مدينة قصريانة، ويبلغ ارتفاعها نحو ٩٩٠ متراً، والجبال التى تنحدر صوب مدينة جرجنتي، واسمها جبال مادونيا، وارتفاعها يبلغ ١٥٨٦ مترا؛ وفى هذه الجبال ثروة ذريعة من الخزف، والملح المعدنى، والجص.

و ما بين هذه الجبال ، تجد وهاداً وانجاداً ، وسهولا ضيقة خصبة وغابات قليلة قفرة .

المياه : ان كانت ارض الجزيرة تختلف بين الشمال والجنوب ، فاوديتها وانهارها تختلف مثل ذلك ، فالساحل الشرقي القاحل ، لا تكاد تجد به الا اودية ضئيلة غير مستقيمة السير ، ومنها مالا يبلغ عرضه اكثر من متر واحد ، يجف اغلبها ابان الصيف ؛ او هي تلوح كمثل اطلال خاوية ؛ كباقي الوشم في ظاهر اليد ؛ هنالك واد واحد يستحق الذكر ، هو وادي القنطرة ، و قد احتفظ باسمه العربي هذا ؛ و يبلغ طوله ١١٦ كيلو متراً ؛ ويروى حوضا مساحته ٤٣٨٩ (كم) مربع .

اما الساحل الجنوبي ؛ فاوديته غنية بمياهها صيفا وشتاء حيث تغذيها سلسلة الجبال الشمالية ؛ واهم هذه الاودية : وادى سالسو ، وطوله ١٤٤ كيلو متراً وحوضه نحو الالفي (ك م) مربعا .

وبالجزيرة بعض بحيرات ذات اهمية اكبرها شانا بحيرة لنتيني في مقاطعة سرقوسة ، ومساحتها ١١٩ كيلو متراً مربعا ، وتليها بحيرتا برغوسا وبالتشى

اما الامطار ، فمعدل نزولها في السنة هو ٧٦٠ ملمترا ، والايام المطيرة تبلغ ١١٢ يوما في السنة .

المناخ : خص الله هذه الجزيرة الطيبة ، بحكم موقعها ووضعية الجبال فيها بمناخ جميل وهواء معتدل وجو صاف بحيث انه ليس في قارة اروبا ما يعادلها من حيث اعتدال الطقس و لطف الهواء .

فصل الشتاء فيها ليس بقارس البرد ، يبتدىء من شهر نوفمبر وينتهي عند شهر مارس مع انقطاع الامطار غالبا في شهر جانفي ؛ وخلال شهري النمو في افريل ومايه ينزل من السماء ماء غزير هو قوام حياة البلاد اذ يذكي حركة المزروعات والمغروسات .

اما فصل الصيف فهو كذلك لطيف معتدل ما لم تهب رياح السموم ، ترسلها افريقيا تحية غير لطيفة الى هذه الجزيرة ؛ لكن السموم لا تزيد مدتها هنالك عن ثلاثة ايام متوالية ؛ ومن غرائب عاداتها ـ ولماذا لا تكون للرياح عادات كعادات البشر ؟ انها تهب في شهر افريل بصفة خاصة وعند اختلاف الفصول الاربعة بصفة اعم فتأتي معها بجيش عرمرم من الغبار والرمل وتبلغ عندئذ درجة الحرارة في بالرمة وسوادها نحو ٣٧ درجة .

ما معدل الطقس فهو في بالرمة نحو ١٧ درجة ، واقصى ارتفاعه الطبيعي هو ٢٦،١٢ درجة ؛ واقصى نزوله زمن الشتاء هو ١١ درجة ، من اجل ذلك سميت تلك الناحية « بلاد الربيع الابدي » ومن اجل ذلك كانت مستقر الملوك والكبراء والحكام منذ العصور القديمة .

الثروة الطبيعية : اهم النتائج الطبيعية التي اشتهرت بها الجزيرة هو الكبريت le Souffre ويوجد غالبا في مقاطعات الجنوب الشرقي ؛ في قالطانا سيتا ، وجرجنتي وقطانيا و كذلك حول مدينة بالرمة ؛ ويلي ذلك في الاهمية الملح المعدني المستخرج من طبقات الارض ، والرخام بمختلف انواعه الرفيعة والعادية ، وحجارة الكلس والجص والقار بنوعيه .

ولقد كانت الجزيرة ايام الحكم الاسلامي وقبل ذلك مكتسية بالغابات الشاسعة الغنية التي تنتج انواعا من الاخشاب الصلبة المستعملة في بناء السفن والمراكب الا ان سوء الادارة بعد ذلك وعدم التبصر بعواقب الامور وترك الحبل يجري على الغارب دون مراقبة وانتباه ؛ قد افقر الجزيرة او كاد من غاباتها فاصبحت لا تحجب الا مقدار جزء من عشرين من ارضها .

اما الثروة الفلاحية فتلك هي نعمة الله الكبرى على الجزيرة وذلك ما جعلها الى جانب مناخها الحسن وموقعها المنيع مطمح انظار الفاتحين منذ قديم العصور

من حسنات المسلمين الخالدة بتلك الجزيرة انهم نقلوا اليها من شمالنا الافريقي ولا يزال يوجد هنالك وافراء النخل الباسق الذي ينتج الرطب الجنى واشجار الليمون والنارنج وانبرتقال و الموز والزيتون .

و الجزيرة تنتج كميات عظيمة من القمح والشعير والقطاني والكتان وتعتبر بعد البلاد التونسية اكبر منتجي زيت الزيتون .

اما اعنابها فذات شهرة بزت شهرة اعناب اليونان ؛ وتنتج صقلية خمورا وافرة تعتبر احسن خمور اروبا واجودها .

وان كانت الماشية بالجزيرة غير ذات اهمية تشمل قطعان الغنم والبقر والماعز والخنازير ؛ فان سواحلها وافرة الغنى بماينتجه صيد البحر من اسماك مختلفة الانواع يستهلك الاهلون في طعامهم الكثير منها ، ويصبر اغلبها ويوضع فى الملب للتصدير كالتن والسردين وما اشبهها ؛ ونشأت عن ذلك صناعة ذات بال .

السكان — لا نريد ان نخترق غياهب العصور ؛ حيث يختلط التاريخ بالخرافات وتندمج الحقائق فى الاساطير ؛ لكي نبحث عن سكان صقلية الاصليين ؛ وهل كانوا فى العصر الحجري من اقوام الشمال انحدروا نحو الجنوب ؛ او من اهل الجنوب صعدوا نحو الشمال ايام كانت اروبا وافريقيا قطعة واحدة ، وصقلية اداة وصل بينهم .

وان كان لي ان ابدي رأيا في الموضوع ؛ لا يعتمد الا على الحدس والتخمين فهو ان سكان المغاور والكهوف الذين عمروا صقلية انما صعدوا اليها من افريقيا ولم ينحدروا لها من اروبا ؛ ذلك ان مناخ صقلية اطيب ومراعيها أخصب ومياهها اوفر من افريقيا ؛ والانسان الاول فى فجر حياته كان يبحث عن كل ذلك ويسير نحوه حيثما وجده ؛ وعليه فسكان صقلية الاولون يكونون فرعا من اجداد البربر سكان الشمال الافريقي .

انما الذى اثبته التاريخ بصفة قطعية ، هو ان سكان صقلية في العهد التاريخي كانوا من قوم « الصيقول » وهم امة نشأت فى بلاد ايلةان ما بين مقدونيا و بلاد الاغريق ؛ ثم استوطنوا ايطاليا ومنها عمروا الجزيرة التي اشتقت يومئذ اسمها من اسمهم (صيقول ـ صقلية) فابتلعوا من سبقهم بها من الشعوب الاخرى .

ثم امت الجزيرة جموع وافرة العدد من جزيرة اقريطش ، واخيرا هاجر اليها قوم غفير العدد من الاغريق ، فعمروها وهذبوا حواشيها ، ومدنوها على غرار مدنيتهم اللامعة الزاهية ، وكانت يومئذ نبراس العالم المنير ؛ فابتلعوا فى بودتهم كل العناصر الاخرى ؛ و لم يبق بالجزيرة الا الاغريقي الاصيل او الاغريقي الصيقولي الاصل .

اشتعلت نيران الحرب البونيقية بين روما وقرطاجنة فوق اديم الارض الصقلية فامتلات الجزيرة بالرومانيين والقرطاجنيين وبالتابعين وتابع التابعين لكل من الفريقين من عبيد وجند مرتزق شمل اخلاطا من شعوب البربر والقوط والوندال .

ثم ان الفتح الاسلامي قد طبع البلاد بطابعه الخاص ؛ فترك بها من سلالات العرب والبربر مالايمحى اثره او تنعدم شمائله كما ترك اهل الشمال النرمانيون اثارهم كذلك بينة واضحة كما تركها من بعدهم الجرمانيون الذين اسسوا دولة شواب هنالك .

فالعنصر الصقلي اليوم مزيج من شعوب الشرق بين يونان و كنعانيين وعرب وبربر ؛ ومن لاتينيين وجرمانيين . و لا تزال بالجزيرة جماعة لا شك فى اصلها الكنعاني تتكلم لسانها العربي المحرف من غرار اهل مالطة ولاتزال تحتفظ على طقوس من دينها الوثني القديم .

ولقد انتج اختلاط هذه العناصر وتساكنها به وتنازعها البقاء ثم تشكل بقاياها

في صفة امة قوما اقوياء البنية قصار القامة نحيفي الاجسام لا يزيد معدل الطول فيهم عن ميتر و٦١ في السواحل وميتر و٥٠ في داخل البلاد .

ولقد تغنى بعض الشعراء بجمال المراة الصقلية كما ضربت بجمال المرأة الاسبانية الامثال . انما كلتا المراتين لا تتميز بشيء عن المرأة المتوسطة الاعرابية ببلادنا .

وليس للرجل الصقلي ما يميزه كثيراً عن الرجل الاسباني ، بل انك في اغلب الجهات تكاد تجده اسبانيا خالص السحنة : اعين سوداء لماعة وبشرة سمراء قاتمة ؛ وانف اقنى وخدود غائرة فهو بلا شك اقل جمالا من العربي الصميم .

وفي كثير من الجهات تجد الشعر الكستنائي والعيون الشهل وتجد احيانا على قلة الشعر الاشقر والاعين الزرقاء وذلك في الاوساط المغربة الراقية ؛ مما يدل دلالة واضحة على انهم من بقايا النرمان والجرمانيين .

والصقلي بصفة عامة متوسط الذكاء ؛ ويكون ذكاؤه احياناً دون المتوسط وهو غير ميال للعلم ولا للفن ؛ وتغلب الامية على البلاد بصفة مدهشة ؛ فهنالك تجد الخرافات موطنا خصبا والاعتقاد في القوى الطبيعية ومفعول السحر عظيم؛ والعادات الوثنية قد تركت هنالك اثراً لم تستطع محوه يد الاسلام ولا يد النصرانية .

المجتمع : سكان صقلية اليوم يبلغون نحواً من اربعة ملايين نسمة يتكلمون نوعاً من اللغة الطليانية المحرفة ليست بذات رقة ولا جمال ويعيش الناس هنالك منقسمين الى طبقات اجتماعية منفصل بعضها عن بعض ولم تستطع ايدى الاصلاح القليلة ان تغير من ذلك شيئا محسوسا فالسواد الاعظم من الناس يعيش هنالك مع السلطة الطليانية مهضوم الحقوق مهيض الجناح فاقداً كل وسائل الحياة الشريفة .

هنالك طبقة مستعمرة غنية ؛ تملك الارض وما عليها، تسرف في الترف وتنعم

بلذائذ الحياة وتتمتع بسكنى القصور الفخمة والحدائق الغناء ؛ وترتاد الاندية الفاخرة ؛ ثم هي تدير مزارعها الشاسعة مصدر ثروتها ومنبع غناها بواسطة نظار ماجورين ؛ وعملة فلاحيين لهم عليهم اغلب الحقوق التى كانت للامراء الاقطاعيين فى القرون الوسطى ؛ وكانت هذه الطبقة قبل النظام الفاشيستي واثناءه ؛ ولا تزال من سوء الحظ الى يومنا هذا تؤلف كتلة قوية تخضع لارادتها رجال الحكومة ونواب الامة وشيوخها ايام الحكم البرلماني ؛ وكثيراً مامد هؤلاء الطغاة ايديهم لعبيدهم ؛ وساعدوهم على القيام بسافل المآرب مقابل المساعدة التى يلقونها منهم لتنفيذ غاياتهم من مقاومة الحكومة ان ارادت اصلاحاً لا يرضونه ؛ و من التعرض لنزع ملكية الارض لفائدة صندوق الدولة ان تراكمت الضرائب عليهم؛ وغير ذلك مما يطول ذكره ·

ولقد شكل حثالة الصقليين جمعية سرية أسموها « لامافيا » انتشرت فى انحاء البلاد ونشرت شرورها وآثامها ؛ ولطخت بالدماء البريئة ارجاءها ؛ خدمة لمآرب سافلة وترضية لمطامع نفسية دنيئة ·

وتحت هذه الطائفة في السلم الاجتماعى ؛ توجد طبقة المديرين والمحصلين والسماسرة الذين يباشرون الامور وساطة بين كبار المستعمرين والعملة .

واخيراً في اسفل الدرجات ؛ تجد طبقة العمال الفلاحيين و هي تكاد تكون من طبقة الرقيق ؛ لا يرى الرائي لها مثيلا لا في روسيا قبل ثورتها الشيوعية اوفي بعض جهات الشمال الافريقى ·

فالطبقات العاملة ، ليست لها مساكن صحية ، ولا تتقاضى من الاجر الا ما لا يكاد يسد الرمق ؛ وليس لها من اللباس الا ما يكفى لتمييزها عن بقية الحيوان ثم تراها بعد ذلك ترزح تحت وطأة الضرائب العامة التى تصيب المواد الاولية الضرورية لحياة الانسان ؛ فالصقلي افقر انسان فى رعوية ايطاليا لكنه يتحمل اربعة

اضعاف ما يتحمله الطلياني من الاعباء ؛ ثم هو لجهله وقلة ادراكه ؛ يطيع السادة الاقطاعيين طاعة عمياء ؛ يأتمر طوعاً باوامرهم وينتهي بنواهيهم ؛ كانه يعتقد دينيا ؛ بان الله خلقه من اجل خدمتهم .

اما طبقة العمال في المناجم والمعادن ، وبقية الصناعات الاخرى ؛ فقد تمكنت بفضل اجتماعها وتغلغل الافكار الاشتراكية فيها ؛ من تغيير حالها والاحراز على بعض الحقوق ؛ ولقد جنحت في بعض الاحايين لفكرة الشيوعية ؛ الى ان ضربتها الفاشستية فسوت بينها وبين بقية العمال في ايطاليا تحت لواء طغيانها . واستمر انين العمال خافتا ؛ الى ان افلت شمس الفاشستية ؛ وهاجمت قوات الحلفاء من انكليز واميركيين ارض الجزيرة فلم يحرك اهلها ساكنا ؛ بل تقبلوا الفاتحين بصدور رحبة ملت الحرب ؛ وقلوب مبتهجة سئمت الجور والطغيان ؛ وكأنهم قالوا ان ليس في الامكان اسوأ مما كان ؛ فمرحبا بالقادم الجديد ؛ علّه يصلح ما افسده الاقدمون .

القسم الثاني

تاريخ جزيرة صقلية من أقدم عصورها

الى انهيار السلطة الفاشيستية

الفنيقيون : منذ نحو الالف سنة قبل الميلاد توطن شعب الصيقـول الجزيرة التى اشتقت من اسمه اسمها واسس ذلك الشعب المدن والدساكر واصلح الارض ولم يقع اي تصادم بينه وبين رواد المدنية الشرقية بحارة فنيقيا من بني كنعان وقد كانوا يومئذ يجوبون عباب البحار ويؤسسون على سواحلها قرى تجارية كانوا يدعونها « المصارف » وبواسطتها كانت اشعة أنوار المدنية الشرقية تبدد ظلمات الوحشية الغربية والمبادلات التجارية والتعارف والتالف حول تبادل المصالح لأحسن وسيلة لارتباط الشعوب بعضها ببعض وتآخيها فى سبيل التقدم الانساني، شتان بينها وبين وسائل الغزو بواسطة الحديد والنار؛ واخضاع الشعوب الضعيفة تحت نيران الاستعمار .

سلك الفنيقيون هنالك مسلكهم فى بقية الحوض الغربي من البحر المتوسط فاسسوا بالجزيرة مراكزهم التجارية العمرانية ومنها « معطية » وبانورم « بالرمة » وسلديس .

الاغريق : وانبثق بعد ذلك من الشرق نور جديد بسط على صقلية شعاعه مع رجال الاغريق ذوي المدنية الزاهية الزاهرة فاستوطنت جموع كثيرة منهم شرقي الجزيرة فعمروها واسسوا بها مدنا شهيرة مثل سرقوسة سنة ٧٣٤ ق م وقطانية، خمسة اعوام بعد ذلك ومسينا حوالي ذلك التاريخ واستمر نفوذ اليونانيين الاغريق فى تقدم وازدياد نحو مائتي عام الى سنة ٥٣٦ ق م .

تدخل قرطاجنة : تضاءل شان الاغريق حيث كانت بلادهم ميدانا للانقسام والنضال حول الحكم والمناصب و ما كانوا يتورعون عن ايقاد نيران الحرب الاهلية فى ذلك السبيل ؛ وكانت يومئذ مدينة قرطاجنة الافريقية الكنعانية تسطع بدراً لامعاً في سماء العالم القديم ؛ وكانت راسخة القدم فى بلاد الشمال الافريقى تربط بين مختلف ارجائه برباط المصلحة والمدنية ، ولقد مدت ابصارها الشرهة نحو جزيرة صقلية ورامت الاستحواذ عليها ، اما تمهيداً لوثبة اخرى من ورائها نحو القارة الاروبية واما أتقاء لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية ؛ و قد كانت قرطاجنة احتلت قبل ذلك جزيرتي سردينيا وكرسكا .

ولقد كان النزاع يومئذ مستفحما بين الاغريق و الفنيقيين فى صقلية واصبح العنصران يتنازعان هنالك البقاء . فاغتنمت قرطاجنة الفرصة وجهزت اسطولها يحمل جنداً عتيداً تحت قيادة السبط « مالى » . وكانت مهمته الظاهرة انجاد الفنيقيين فى الجزيرة ونصرتهم ضد الاغريق ؛ ومهمته الخفية نصب سلطان قرطاجنة على البلاد لكن السبط مالى اخفق فى انجاز مهمتيه . وتغلب عليه اغريق الجزيرة فاخلى ما احتله من البلاد ورجع خائبا الى قرطاجنة .

لم تكن الخيبات العسكرية تثنى عزم القرطاجنيين عن مداومة الكفاح والنضال ، فاخذوا يستعدون لاعادة الكرة وارادوا قبل ذلك ان يامنوا شر تدخل اجنبي في الامر ؛ وارادوا ان يجعلوا الاغريق فى عزلة سياسية وحربية ، حتى لايجدوا معينا لهم في البحر المتوسط ، فتعاقدت قرطاجنة مع عدو الاغريق ، ملك الفرس اكسيريس وتحالفت فى نفس الوقت مع الرومانيين الذين لم يتالق نجمهم بعد فى سماء البحر المتوسط ؛ ووضع القرطاجنيون بهذه الصفة جنوب البلاد الطليانية ضمن منطقة نفوذهم .

جهزت قرطاجنة حملتها الثانية تحت امرة عملكرض ابن ماغون البرقى

وسيرته نحو صقلية فتصادم تحت جدران سرقوسة مع الاغريق وما كان نصيب هذه الحملة الا كنصيب الحملة الاولى : خذلان وفشل ذريع ؟ اما القائد فقتل واما الجند فاسر واما الاسطول فتدمر .

وقد كانت بلاد الاغريق يومئذ قد وثبت وثبة جريئة واستعادت قواها ومنعتها فلم يكتف الاغريق بدحر القرطاجنيين بصقلية ، بل تغلبوا مع ذلك وفي نفس الوقت ، على الفرس اعدائهم الاقدمين في وقعة سلامين الشهيرة سنة ٤٨٠ ق م .

طلبت قرطاجنة يومئذ الصلح فنالته بعد لأي من الملك جيلون الاغريقي الصقلي وكان من جملة شروط الغالب على المغلوب ان التزمت قرطاجنة بالعدول عن تضحية الصبيان بين يدي الصنم ملك . . .

ان كانت الخيبة اليمة فقد كانت العزيمة عظيمة؟ وما عتم القرطاجنيون ان جهزوا حملة ثالثة تحت امرة حنبعل بن عملكرض (هو غير حنبعل الشهير بطل الحروب البونيقية) فساروا اليها بقوة وعزم يحدوهم الامل وتدفع بهم نحو الامام عاطفة الانتقام والاخذ بالثار فنزل حنبعل الجزيرة ، واخترقها بجيوشه الجرارة ونكل برجال الاغريق تنكيلا ذريعاً ، فذبح في المكان الذي قتل فيه ابوه عملكرض ثلاثة الاف من مقاتلتهم الماسورين ؟ ووطد بعد ذلك سلطته على نحو الثلث من الجزيرة ، ونال الفينيقيون المتوطنون هنالك فوزا عظيما . ثم انعقد الصلح بين القرطاجنيين وبين الطاغية دينس اليوناني ، مالك سرقوسة ؟ نال بواسطته كل من الفريقين الاستقلال بالحكم في نصف من الجزيرة .

وما كان الصلح من دينس الا خدعة وكسبا للوقت ؟ فما كانت تنقضي مدته المعينة ، حتى كان قد اكمل عدته واحسن عدته ؟ وشنها على القرطاجنيين والفينيقيين حربا شعواء ، دحرتهم آخر الامر فحطم مدنهم وخرب

مصالحهم ؛ واسر رجالهم ونساءهم فبيعوا رقيقا .

حاول السبط حملقون محاولة جريئة للاخذ بالثار ؛ وانقاذ ما يمكن انقاذه فحاصر سرقوسة فعلا واحتلها ودحر الاغريق فى عدة مواطن وكاد يستتب له الامر نهائيا لولا ان مددا عظيماً جاء الاغريق من بلاد اليونان ام الوطن فدارت الدائرة من جديد على رجال قرطاجنة وانتحر السبط — حملقون — مقلعا عن الاكل وهذه اول مرة في التاريخ على ما اعلم نرى فيها مثلا لاعتصاب الجوع الذى اشتهر فيما بعد فى تاريخنا الحديث باعتصاب الزعيم الارلاندى « ماكسويلى » شيخ مدينة يورك وباعتصابات زعيم الهند « غاندي » المتوالية .

وخسرت قرطاجنة يومئذ سنة ٣٩٥ ق م كامل ما امتلكته فى الجزيرة لفائدة الاغريق .

لكن المحاولة الخامسة لم تبطيء طويلا ؛ فجهزت قرطاجنة القائد «ماغون» وارسلته صحبة جند ضخم واسطول عتيد فامتلك الكثير من السواحل الصقلية وثبتت هنالك أقدام القرطاجنيين الذين اتصلوا بالقائدين صدربعل وعملكرض مدداً ؛ والقت قرطاجنة يومئذ فى الميدان الصقلى احسن ما كان لديها من جند وعتاد . واستمرت الحرب طويلا فى الجزيرة بين قرطاجنة وسرقوسة الى سنة ٢٦٤ ق م اذ استتب لهم الامر بكامل الجزيرة لا بواسطة الحرب والقتال بل بواسطة انقلاب سياسي خطير حيث ان الملك الاغريقي « هبارون » اذ راى نفوذ روما يقوى ويشتد ويتفاقم امره دخل تحت حماية قرطاجنة وتعاقد معها على دحر كل طارق جديد .

روما وقرطاجنة : كانت رومة حقا قد نشأت يومئذ نشأة قوية واشتد ساعدها واخذت هي الاخرى ترمى بانظارها وراء البحار ؛ فرات مثلما رات قرطاجنة

من قبل ان امتلاك صقلية ؛ حجرة اساسية فى بلوغ امانيها في التوسع والاستعمار وان السلطان الروماني لن يتحقق فى البحر المتوسط ، ما لم ينصب اعلامه من قبل فوق اديم الارض الصقلية ؛ ومن ثم شجرت الحروب البونيقية بين روما وقرطاجنة فدامت ١١٨ عام ؛ في ثلاث دفعات متوالية ؛ ابتدات بصقلية سنة ٢٦٤ وانتهت بتحطيم قرطاجنة واعدامها من عالم الوجود ، بصفة وحشية ، سنة ١٤٦ ق م .

كان السبب الظاهري للحرب البونيقية الاولى ؛ وهي الوحيدة التى يهمنا امرها فى جزيرة صقلية ، هو ان جماعة من سكان ايطاليا كانوا يحتلون مدينة مسينا المواجهة لبلادهم ؛ فكانت — حسب التعبير العسكري الحديث — راس جسر مهده الطليانيون في الارض الصقلية ؛ واذ كانت روما قد شبت وترعرعت واصبحت تحلم بالسيادة البحرية راى القرطاجنيون ؛ كما رأى حليفهم الاغريقى ملك سرقوسة ان بقاء الطليانيين بمسينا يوشك ان يكون خطرا يهدد الجزيرة بشر مستطير ؛ فجهز الحليفان حملة داهمت مسينا ؛ فاستنجد اهلها ببني جلدتهم الرومانيين وكان هؤلاء لا ينتظرون الامثل هذه الاشارة ، فارسلوا عشرين الفا من خيرة رجالهم ؛ بقودهم القنصل ابيوس كلوديوس نزلوا مرسى رجيو ؛ وارغموا القرطاجنيين على فك حصار مسينا واطردوهم عن ساحتها فاعتصموا ببعض معاقلهم بعيدا عنها ؛ ثم لوى الرومانيون عنانهم نحو الملك الاغريقي هيارون فاضطروه للالتجاء الى معقله فى سرقوسة ثم فاوضوه فى نكث عهد القرطاجنيين وقد راى رأي العين قوة شكيمة الرومانيين وحسن نظامهم واقتنع بان الخسران سيكون نصيب اعداء الامس وحلفاء الساعة فقلب لهم ظهر المجن واعلن محالفة رومة واخلص لها الولاء . وذلك سنة ٢٦٣ ق . م ، ورجع القائد حنون القرطاجني لوطنه مذموما مدحوراً فاتهم هنالك بخيانة الوطن واعدم صلبا .

رات قرطاجنة يومئذ والحق مارات ، ان المسالة اصبحت تتعدى صقلية وان الهدف الذي يرمي اليه الرومانيون هو سيادة البحر المتوسط ، وان الحرب ان غادرت الارض الصقلية فلكي تحل بويلاتها فى الارض الافريقية . ومن اجل ذلك رأت وجوب التضحية باعز عزيز فى سبيل الاحتفاظ بتلك الجزيرة ؛ او على الاقل بجعل الحرب منحصرة هنالك ، وقاية لقرطاجنة وارضها الافريقية ؛ فجهزت من أجل ذلك حملة جديدة ، بلغ عدد رجالها ٥٦ الف رجل ، نزلوا بمدينة اقريجنت ، وتصادموا حولها مع جند الرومان تصادماً رهيباً ، وما استطاعوا صد رجال رومة عن تلك المدينة ، فسقطت بين ايديهم ، وباع الرومانيون بيع الرقيق من بقي من اهلها حياً ، وكانوا زهاء الخمسة والعشرين الفاً .

وما كانت تلك خاتمة نكبات قرطاجنة بارض صقلية ، فان هذه الدولة التي أظهرت بهذه المناسبة ثباتا عز فى التاريخ نظيره ، ارسلت القائد صدر بعل سنة ٢٥٠ ق . م ؛ لمحاولة استرجاع ما فقدته بصقلية ، ولأمداد معاقلها الباقية هنالك بالنجدات اللازمة ؛ فنال اول الامر فوزاً وجيزاً ، ثم دحره القائد الروماني ميتيلوس آخر الامر وكسره شر كسرة ، وقتل من جنده اكثر من عشرين الف رجل ، ورجع القائد المندحر لقرطاجنة حيث كان ينتظره الاعدام صلباً .

كانت تلك آخر عملية ذات اهمية قامت بها قرطاجنة هنالك ، وقد اعتقد رجالها آخر الامر ، وعندما نضب معينهم ، ان صقلية قد افلتت من ايديهم نهائياً وان لا قبل لهم بمقاومة الرومانيين ، فلم تكد تخفق المحاولات النهائية اليائسة التي قام بها القائد عملكرض البرقي سنة ٢٤٢ ق . م ؛ حتى انسحبت قرطاجنة نهائيا من تلك الجزيرة بعد تدخل واستيلاء داما ٢٧٤ عاما ، وانتهى بذلك أمر الحرب البونيقية الاولى .

ولقد كانت هذه الحرب اكبر اسباب انهيار قرطاجنة فيما بعد ، اذ فقدت

فيها تباعاً زهرة رجالها ، وخيرة قوادها واكثر معداتها ومدخراتها ؛ كما كانت هذه الحرب ايضا اول اشراق لبدر رومة الذي ازداد فيما بعد. طيلة قرون عديدة. نمواً ولمعاناً .

الحكم الروماني — اصبحت الجزيرة يومئذ من ممتلكات روما، تابعة لها في حياتها الادارية والاقتصادية ؛ واصبح تاريخها في ذلك العهد جزءاً من تاريخ الامبراطورية الرومانية عدة قرون ؛ شاركت فيها نمو الامبراطورية وصعودها اوج القمة ؛ وشاركت فيها انحدارها في مهاوي الانحطاط .

شاركت صقلية روما في حروبها الداخلية الفتاكة ، فنالها من جراء ذلك خراب كبير ؛ وعلى الاخص بعد تلك الفتنة الوحشية الفظيعة ، فتنة اوكتافيوس وبومباي ؛ حيث خربت المعالم وحطمت المدن ، وعمت النكبة سائر اصقاع البلاد ، حتى اضطر امبراطور اغسطس لاعادة بناء مدنها وتعميرها من جديد بواسطة جموع من الرومان والافاقين والعبيد .

وقد كان كبار المستعمرين الرومانيين يرسلون الى الجزيرة زرافات من العبيد يعملون هنالك كالانعام لمائدة السادة ، وكانوا يعاملون معاملة هي الوحشية بعينها رمت بهم الى احضان الثورة العنيفة مراراً ؛ فكانت ثورات العبيد الفتاكة ضد سادتهم ، سنوات ١٣٩ و١٠٤ ق . م و٢٥٩ بعده ؛ من اكبر نكبات الجزيرة اثناء الاحتلال الروماني .

وعندما انقسمت الامبراطورية الرومانية شطرين : بيزنطية شرقية ، ورومانية غربية ؛ كانت صقلية من نصيب الرومانيين ونالها ما نالهم في عصر الانحطاط والاضطراب ؛ من فتن في الداخل ؛ وتدهور في الاخلاق ، وانحطاط في النفوس واخيراً السقوط تحت ضربات الشماليين ؛ الذين كانوا يدعونهم يومئذ « الباربار » اي الوحشيين .

صقلية الرومية — عندما استقرت قدم الوندال بالشمال الافريقي ؛ ونسفوا باعانة البربر فى سنوات قليلة كل معالم الرومانيين بهذه الارض مادية كانت او معنوية ؛ اصابتهم عن سبقهم بقرطاجنة عدوى الفتح والتوسع ، فتوجهوا صوب صقلية ايام عاهلهم العظيم جنصريق ، واستحوذوا عليها دون عناء كبير واتخذوها مركزا لغزواتهم ضد ايطاليا وما حولها .

لكن ايام الونداليين لم تطل كثيرا هنالك ؛ حيث ان الروم البيزنطيين اعادوا الكرة عليها ، واستخلصها القائد بليزار من ايديهم نهائياً سنة ٥٣٠ (١) ، واصبحت منذ ذلك العهد ، ولمدة ثلاثمائة سنة ، قطعة من الارض البيزنطية اصابها اثناءها ما اصاب بقية الارض الرومية ، وخاصة الشمال الافريقي ، من فتن واضطراب ، وفساد فى الادارة ، وفتن ودسائس ؛ حيث اصبحت الرشوة هى القانون العام الذي يخضع له الموظفون واصحاب السلطة والنفوذ ؛ فما ترك الروم الجزيرة الا وهى اشبه شيء بالخراب البلقع ، وذلك سنة ٨٢٧ م .

صقلية الاسلامية — توطد سلطان المسلمين بالبلاد حسبما سيأتي تفصيله ، وتوالت على الجزيرة وفود العرب والبربر ؛ للفتح والسكنى والاستعمار ، فبنوا فيها القرى والدساكر ، وعمروا بساتينها واحيوا حقولها وأسسوا المدارس والمساجد وانشأوا بها صناعات كانت يومئذ مجهولة في اوروبا ، وادخلوا فيها كما رأيت فى القسم الجغرافى ؛ اشجار الزيتون والنخيل والليمون والبرتقال وقصب السكر ؛ ثم تركوها جنة يانعة ؛ حسبما سيمر بك في آخر الكتاب رغماً عما كان يقع بينهم من

(١) فى سنة ٥٧١ ازدان العالم بازدياد سيد البشر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة ؛ ايام حكم كسرى انو شروان بالفرس ، وحينما كان ابرهة ملك الحبشة ، صاحب الفيل ، يحاول فتح مكة لتحطيم الكعبة ، فدمره الله شر تدمير ، وللبيت رب يحميه .

فتن واضطرابات ، ورغم الوقائع الحربية التي كانت مسترسلة بينهم وبين المسيحيين دون انقطاع .

ولقد حكم المسلمون صقلية ، غازين فاتحين ممدنين ، مدة ٢٣٣ عاماً هجرية (٢٢٤ عاماً ميلادية) من سنة ٢١٧ الى ٤٥٠ هج . ومن سنة ٨٣٢ الى سنة ١٠٥٦ م

الا ان نفوذهم ، بقي عظيما قوياً في الجزيرة ، بعد ان تقلص سلطانهم عنها ، فكانوا طيلة عهد النرمان ، هم الذين يديرون الملك ويدبرون شؤون السياسة ، ويعمرون قصور الامراء ودور العلم ويشيدون المعالم والمعاهد ؛ فكانوا يومئذ يشتركون في حكم الجزيرة اشتراكا فعلياً ، حتى انه ليكاد يتقرر بان ازهى وازهر عصور المسلمين في صقلية انما هو العصر الذي عملوا فيه اعمالهم التمدينية الباهرة تحت سلطة امراء النرمان .

ولقد اتخذ اولئك الامراء الشماليون ، وكانوا حديثي عهد بالمدنية ، سيرة ملوك المسلمين ، فلبسوا لباسهم ، وتحلوا باخلاقهم ، وسكنوا مساكنهم ، واستعملوا في دواوينهم لغتهم العربية ، فكانت الدولة يومئذ دولة نرمانية اسلامية ، ودامت الحالة على ما ذكرنا سائرة لا محالة في طريق الضعف والانحطاط والتدلي طيلة ١٩٣ عاماً ؛ الى ان طغى سلطان التعصب الديني ، فاخرج الامبراطور افريدريك الالماني المسلمين عامة من الجزيرة وانزلهم بالسواحل الافريقية ؛ وبقيت منهم بقايا بالبلاد تنصرت او ماتت هماً وكمداً .

وهكذا أقام المسلمون من اهل الشمال الافريقي بالارض الصقلية بين حاكين ، ومشاركين في الحكم ، ومحكومين ٤٢٦ عاماً : تفصيلها بالتاريخ الهجري :

مدة الحكم الاسلامي (٢١٧ ـ ٤٥٠) ٢٣٣ سنة

مدة الحكم النرماني (٤٥٠ ـ ٦٤٣) ١٩٣ سنة

النرمان — النرمان ، واسمهم مشتق من كلمة نور Nord اي الشمال

قوم انحدروا من اعالي اروبا ، وخاصة من قطري النرويج والدانمارك ، نحوجنوب تلك القارة وشرقها ، فاغاروا خلال القرن التاسع الميلادي على بلاد الشرق الاروبي وكانت تلك الطائفة المغيرة منهم تدعى « روس » Rous فتوطنوا السهول حوالي نهر « دنيابر » وعمروا مدن سمولنسك وكياف وغيرها من شهيرات المدن التي سارت بذكرها الركبان خلال الحرب الاخيرة ؛ ثم توغلوا في الارض ميممين شطر الجنوب الشرقي مقتحمين امبراطورية بيزنطة ، حتى وقفوا تحت جدران القسطنطينيه ، ثم رجعوا عنها خائبين ، وثبتت اقدامهم بالشرق الاروبي ، فاصبحت البلاد هنالك تدعى باسمهم « روسيا » .

ولقد كان لمقامهم بالغرب الاروبي ، ما كان لمقامهم بالشرق من اثر كبير ؛ فانهم كانوا يتدفقون نحو الغرب في جماعات متوالية ، قليلة العدد ، يركبون مراكب خفيفة سريعة ، يلقون مرساها عند مصب الانهر الفرنسية الكبرى ؛ وخاصة نهر السين ، وهنالك كانوا يطلقون لعواطفهم الوحشية العنان من نهب وسلب ، وتخريب معالم ، وهتك حرمات لا يراعون في مخلوق الا ولا ذمة ؛ وابتدأ ذلك الخطب الوبيل حوالي سنة ٨٠٠ ، عندما كان الامبراطور شرلمان يتولى امر امبراطوريته الغربية ، وعندما كان ابراهيم بن الاغلب يؤسس في افريقيا دولته المستقلة .

واما ملك الانكليز الفريد الكبير ، فقد اوقف تيار هجرة النرمانيين الى بلاده بواسطة معاهدة عقدها مع كبرائهم بذل في سبيل تحقيقها غالي الثمن ، واشترى بواسطتها راحة بلاد الانكليز الى حين .

اما شارل الاصلع ملك فرنسا ، فقد أخذ يحذو حذو الانكليز ، ويشتري بالثمن الفاحش مرة بعد اخرى ، انسحاب النرمانيين من بلاده .

ولقد نقضوا مرة العهد ، وضيقوا على مدينة باريس الحصار ، فلم ير شارل

السمين ، ملك فرنسا يومئذ بدأ من بذل ثمن لانسحابهم لم يرو لنا التاريخ مثلا له في حطته ودناءته : سمح لهم مقابل فك الحصار عن باريس بنهب مقاطعة برغونيا الغنية الزاهرة ، ولا تسل عما وقع هنالك من فظائع واهوال ووحشية تقشعر لذكرها الجلود (١) .

واخيراً تعاقد معهم نهائيا ملك فرنسا شارل البسيط ، فاقطعهم الناحية الشمالية الغربية بفرنسا ؛ على ضفاف نهر المانش ، وهي التي اتخذت منذ تلك الساعة اسمهم فاصبحت تدعى « نرمنديا » وهي من ازهر وابدع جهات فرنسا ، وفي مقابل ذلك اعترف اميرهم رولون بالتبعية لملك فرنسا ، فتأقلموا في البلاد وانتهى امر عدوانهم.

الا ان اغرب غزواتهم وابعدها مدى واكبرها اثراً ؛ هي غزوتهم لجزيرة صقلية وغزوتهم بلاد الانكليز على يد غليوم الفاتح امير نرمنديا ، المولود بمدينة فاليز من مدنها التي لا تزال قائمة الجدران ؛ فانه قد اغار بجموعه على بلاد الانكليز

(١) كان من نتائج اعمال النرمان بالبلاد الفرنسية ، ان انتظمت بها هيأة « السادة » الاقطاعيين ؛ واصبح لهم النفوذ المطلق بالبلاد ؛ حيث ان عامة الشعب لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها ؛ فأخذ الاغنياء ينشئون القصور المحصنة ويحيطونها بالاسوار المنيعة والخنادق العميقة ، وكلما تم بناء قصر ؛ امته جموع الشعب فسكنت حوله ، واحتمت به ، فكان سيد القصر يبذل حمايته لتلك الجموع ويقودها في الحرب مقابل طاعتها له واذعانها لأوامره ، وازدادت تلك الطاعة مع مرور الزمن حتى اصبحت عبودية مطلقة ؛ واصبح السيد يملك رقاب رعاياه ومتاعهم ومن جملة حقوقه الدخول على كل امرأة عند زفافها قبل زوجها ؛ وتفاقم نفوذ هؤلاء السادة ، حتى اصبحوا اشبه شيء بالملوك المستقلين ، ومنهم من نما سلطانه واستقل فعلا وبتر علاقاته مع الملك ، وامتلأت القرون الوسطى بفظائع ووحشية هؤلاء السادة الهمج .

سنة ١٠٦٦ وقتل ملكها في موقعة هاستينق التي كانت اعظم انتصار تحصل عليها النرمان في تاريخهم ، فبايعه الانكليز ملكا عليهم في مدينة لندن ، واحاط عرشه بسياج متين من الاشراف والاوردات وكبار الامراء ؛ فطبع بلاد الانكليز بطابعه الخاص الذي لا يزال الى يومنا هذا موجوداً .

اثناء هذه الحوادث كان فريق آخر من النرمان في الجنوب الاروبي ؛ قد وطدوا ملكهم على انقاض ممتلكات الاغريق بالبلاد الطليانية الجنوبية ، وفي سنة ١٠٦١ اجتاز احد ملوكهم روجي (رجار) مضيق مسينا ، ووضع قدمه فوق الارض الصقلية لمحاربة المسلمين والقضاء على ملكهم هنالك ، فنشبت بين الفريقين حرب عوان استمرت ثلاثين سنة ، وانتهت عام ١٠٩٦ (١) بتحطيم آخر مقاومة

---

(١) من غرائب الصدف ، ان تاريخ انتهاء آخر مقاومة اسلامية بصقلية كان تاريخ ابتداء تلك الحملة الشعواء الهائلة ، التي شنتها المسيحية على الاسلام ؛ والتي تعرف بالحروب الصليبية . فقام المسيحيون في كامل البلاد الاروبية بحدوهم التعصب الاعمى تحت تأثير بطرس الراهب ؛ والبابا اوربانوس الثاني ، وكانت نتيجة الحملة الاولى من هذه الحرب الوحشية ، احتلال بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ وكان المسلمون قد التجأوا الى مسجدها الاعظم عندما اندحر جيشهم المؤلف من اخلاط الترك والعرب ، فاقتحم الصليبيون المسجد ، وذبحوا فيه وفيما حواليه سبعين الفاً من المسلمين ، ويقول التاريخ ان الدماء كانت تسيل يومئذ كالاودية بين الازقة والطرق . وقد استرجع البطل الاسلامي صلاح الدين الايوبي بيت المقدس من الصليبيين سنة ١١٨٧ ؛ واندحر ملك فرنسا لويز التاسع تحت جدران قرطاجنة . وتحت ضربات المستنصر بالله الحفصي سنة ١٢٧٠ ، وسنة ١٢٩١ سقطت آخر معاقل النصارى في بلاد الشام بايدي المسلمين ، وبذلك انتهت المآتم الصليبية التي لطخت ارض الشرق بالدماء ما يقرب من مائتي عام في ثمانية حملات .

حربية اسلامية ؟ وقد كان حينئذ الامير روبير ، شقيق الملك رجار ؟ قد مد سلطانه في ايطاليا شمالا حتى مدينة نابولي .

تولي الملك في صقلية سنة ١١٠١ ، الملك رجار الثاني الحكيم ، وكان في اعماله وتصرفاته ملكا اسلاميا ، نالت الجزيرة في عهده اوج عزها ومنتهى سؤددها ، ونال من البابا سنة ١١٣٠ لقب « ملك الصقليتين » .

مملكة الصقليتين — كانت هذه المملكة تشمل صقلية ، وجنوب البلاد الطليانية الى شمالي مدينة نابولي ، ولقد فقدت صقلية بتأسيس هذه المملكة كيانها الذاتي ، واصبح تاريخها مرتبطا بتاريخ البلاد الطليانية .

لقد كان ازهر عصر من عصور هذه المملكة الفتية الناشئة هو عصر الملك رجار الثاني الآنف الذكر ، وكان قد وطد دعائم ملكه على كواهل المسلمين وعلى سواعدهم وأسس بواسطتهم المدارس الكثيرة العالية التي بثت علوم المسلمين في كل انحاء ايطاليا ، وبقية البلاد الاروبية وكانت عن حق اساس النهضة الاروبية الحديثة

الحكم الجرماني — لكن صقلية النرمانية الاسلامية سقطت سنة ١١٩٤ تحت سيطرة اباطرة المانيا من عائلة السواب الجرمانية واصبحت قسماً من تلك الامبراطورية التي تخضع عن كره منها لسلطان الجرمانيين. ومن اشهر اباطرة هذه الدولة افريدريك الثاني ، فقد اعاد تنظيم الدولة وأسس لها مؤسسات حديثة جريئة ، فجعل منها اهم دولة اروبية في عصره (١٢٢٢ - ١٢٥٠) وكان بلاطه الملكي في بالرمة اشهر بلاط في بلاد اوروبا ، وقد عمر الدوله مدارس ومعالم ، واختط المدن والقرى واكثر العمران ، وكان ميالا للعلوم والفنون والآداب ؟ وسيأتيك شيء من تفصيل حياته الغريبة .

اخراج المسلمين — الا انه الى جانب ذلك ، جنى جناية على صقلية قاست

— ولا تزال تقاسي — من جرائها الامرين ؛ ذلك انه اراد ان يوحدها في المسيحية ؛ وان يخرج منها الطائفة الاسلامية القليلة التي بقيت بها ؛ فاركب سائر المسلمين مراكب النرمان ؛ واجتاز بهم الى الارض الافريقية ؛ ففقدت البلاد بذلك اذكى عناصرها واشدهم عملا واكثرهم مدنية ؛ واكبر دليل على ذلك ، هو ان الدولة اخذت في الانحطاط والتدلي عندما تم ذلك الحادث الجلل ؛ واخذت اوصالها تتفكك وتتاول الادعياء عليها فانهار بنيانها ، واغتنم البابا كليمون الرابع فرصة ذلك الانهيار فافتك الدولة من ايدي النرمان والشواب ؛ ونصب على مملكة الصقليتين الامير الفرنسي شارل دانجو شقيق الملك لويز التاسع المعروف باسم القديس لويز الذي حارب المستنصر بالله الحفصي في الحملة الصليبية واهلكه الطاعون تحت جدران قرطاجنة .

وانه لمن غرائب الاقدار ، ان دولة النرمانيين ما عاشت في صقلية ، الا ما دامت معتمدة على جماعات المسلمين الذين افتكت البلاد منهم ؛ فلما اخرجتهم من البلاد انهار ملكها وزالت دولتها .

مذابح صقلية — كان عهد الفرنسيين بمملكة الصقليتين عهداً ثقيل الظل غير مرغوب فيه . فالملك شارل ابتدأ امره جاهلا عادات البلاد وتقاليدها ، فجرح احساس القوم ، واثقل الضرائب بصفة فاحشة واخذ يستحوذ ظلماً وعدواناً على املاك الرعايا ويوزعها على رفقائه الفرنسيين ، فكانت نتائج كل ذلك ان عمد اهل المملكة الى السلاح ؛ وقاموا ثائرين في وجه الطاغية الظالم وانصاره ، وتلك الثورة تعرف في التاريخ باسم « صلاة العصر الصقليه » («Vepres Sicilienne» ذلك

لأنها انفجرت يوم عيد الفصح في سنة ١٢٨٢ (١) وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين هي قرع نواقيس الكنائس ايذانا بصلاة العصر المسيحية ؛ فانقض الصقليون على الافرنسيين وقتلوهم حيثما ثقفوهم ؛ وعلى الاخص في مدينه بالرمة حيث لم ينج من الفرنسيين الا فارسان اثنان ؛ وكانت مذبحة من افظع واقسى ما رواه لنا التاريخ . وكان الزعيم يوحنادى ابروتشيدا هو الذى تولى كبر الثورة واشرف على تنظيمها . واصبحت كلمة « صلاة العصر الصقلية » تطلق في الادب على كل مؤامرة تنتهي بمذبحة عامة .

دام الاضطراب بعد ذلك في سائر جهات الجزيرة وعم بها الخراب والدمار واستنجد الصقليون بعائلة ارغون الحاكمة في بلاد الشرق الاسباني ، فانجدتهم ضد الفرنسيين، الذين ثبتوا في الجنوب الايطالي ، وكان خلفاء الملك شارل الفرنسي يتخبطون في دياجير الدسائس والفتن والاضطراب ، وذاقت صقلية بعض الراحة تحت حكم الاسبانيين .

الحكم الاسباني — ورث ملوك قشتالة الاسبانيون ، عائلة ارغون فيما كانت تحكمه من الارض ، وذلك اثر انقراضها ، فنصبوا سلطانهم على اديم الارض الصقلية منذ سنة ١٤١٢ (٢) ثم استتب لهم الامر بالجنوب الايطالي ، فحققوا خيال

(١) سنة ١٢٩٩ ، استقل الامير عثمان التركي في قطعة من بلاد آسيا الصغرى وانشأ على انقاض المملكة السجلوقية الواهية ، السلطنه العثمانية الكبرى التي شغلت كامل التاريخ الحديث الى سنة ١٩٢٢ .

(٢) في هذه السنة أعاد السلطان محمد الاول العثماني بناء السلطنة العثمانية بعد ان هد اركانها الطاغية التتري تيمور لنك ، في وقعة انقرة الشهيرة سنة ١٤٠٢ ؛ حيث سقط المجاهد العظيم بايزيد الاول اسيراً ، وتنازع اولاده الامر بعده مدة عشرة اعوام .

الحكم الفرنسي فيه ؛ واعادوا تأسيس مملكة الصقليتين كما كانت اول مـرة ، (١) وكان الفرنسيون يوالون محاولاتهم وتدخلهم مفسدين على البلاد راحتها ، فعادت الفتن والاضطرابات من جديد ولطخت الدماء الارض ، ودام ذلك الفساد نحواً من تسعين سنة ، سادت فيها الظلمات ارض الجزيرة وانمحت منها معالم المدنية التي شادها المسلمون هنالك والنرمانيون .

ما صفا الجو للحكام الاسبانيين في مملكة الصقليتين ، وما قضوا على آثار الاضطراب القديم الا حوالي سنة ١٥٠٣ ، ودام ذلك الحال في صفو نسبي خـلال مائتي عام ؛ اخفقت اثناءها دولة النمسا في محاولة نصب سلطانها على الجزيرة ، وما كانت ايام الحكم الاسباني الا ايام ظلمـات لم يقم اثناءها اي اصلاح رغم بعض محاولات فاشلة حاولها بعض ملوك البربون .

الجمهورية — انبثق فجر الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ ، فالتهبت نيران الافكار الجديدة ؛ وسرى تيارها في مختلف البلاد ، وهب جماعة من الصقليين تحت زعامة شامبيوني ، شيخ مدينة نابولي ، واعلنوا اعتناقهم تلك المبادىء السامية والخلابة ، مبادىء اعلان حقوق الانسان ، والتساوي بين عامة البشر ؛ وان لا حكم في بلاد الا للامة ؛ ثم نادوا بتأسيس الجمهورية الشعبية الحرة .

انما حركة الرجعيين كانت قوية عنيفة ؛ اذ جمع رجال الطغيان من رهبان

---

(١) خلال هذه الحوادث في ٢٩ مـن شهر ماية سنة ١٤٥٣ ، وقـع الحـادث التاريخي الجسيم : استيلاء السلطان العثماني محمد الفاتح ـ قدس الله روحه ـ عـلى مدينة القسطنطينية العظمى ، ودخل الاسلام اوروبا مـن جهة الشرق واستقر بهـا راسخاً متينا الى يومنا هذا والى ان يرث الله الارض ومن عليها . وقد اتفـق المؤرخون على اعتبار هذا الحادث نهاية القرون الوسطى وابتداء التاريخ المعاصر الحديث .

الكنائس وامراء الاقطاع ورؤساء الطوائف امرهم ضد حركة الشعب ؛ اذ ايقنوا ان الثورة الجمهورية تذهب باموالهم وبجاههم وبامتيازاتهم الفاضحة ، فتحزبوا زمراً واشتروا بالمالهم جماعة من اللفيف والرعاع يخربون بيوتهم بايديهم ، وصادموا الجمهورية الفتية فنسفوها وارجعوا الملك فرديناند الى عرشه مؤيداً من قبل الاميرال الانكليزي الشهير نلسون ، عدو فرنسا الالد ومحطم اسطول بونابرت ؛ فامعن الملك البطش بالجمهوريين وارهف سيف الطغيان فوق هاماتهم ، فاسقط منها ما يزيد عن العشرة آلاف راس وسجن منهم نحو الثلاثين الفاً ونفى من الارض حوالي السبعة آلاف نسمة .

بونابرت — تدخل نابليون بونابرت في المسألة الصقلية الطليانية ؛ وكاد يصبح يومئذ صاحب الحكم المطلق في الغرب الاروبي ؛ فاعلن خلع العائلة الاسبانية التي لم تبق بين يدها سوى صقلية وحدها ، ونصب شقيقه جوزاف ملكاً على دولة نابولي ؛ ولقد حاول ملك نابولي الجديد الاجتياز الى صقلية ونصب سلطانه عليها الا ان الاسبانيين دحروه عند كل محاولة ؛ فكانت مملكة نابولي تحت امرة بونابرت تزدهر وتنمو ، وتتفشى فيها افكار الثورة الفرنسية بينما كانت بلاد صقلية تحت امرة الاسبان خاضعة لسلطان الضلال .

لكن ايام جوزاف بونابرت لم تدم بمملكة نابولي طويلا ، فاندحار شقيقه نابليون وانسحابه مرغماً من ميدان السياسة الاروبية قد جعل عرشه واهي الاركان وما اغنت عنه محاولة استمالة الحلفاء ولا الاستنجاد بالنمساويين شيئاً ؛ ونادى بتوحيد الطليانيين تحت زعامته فذهبت جهوده ادراج الرياح وانتهى امره بان اعدم رميا بالرصاص سنة ١٨١٥ (١) فاجتاز فردناند ملك صقلية الى الارض

(١) كان السلطان محمود الثاني العثماني يقاسي ازمة عنيفة من جراء الثورة الوهابية ببلاد العرب ، التي اخمدها بشدة طوسون بن محمد علي والي مصر (سنة

الطليانية واعاد « مملكة الصقليتين » سيرتها الاولى ، وأرجع لأصحاب الكنيسة ورجال الاقطاع كل حقوقهم القديمة .

انما الشعب كان قد افاق من غفلته وتشبع بالافكار الحديثة ، وقد تركت فكرة الجمهورية في نفسه اثراً فسادت جمعية « الكاربوناري » أي الفحامين السرية واخذت تفتك بالظالمين وتبطش بالمتجبرين ؛ وكانت نتيجة هذه الحركة ان ارغم الملك فرديناند سنة ١٨٢٠ على اعلان الدستور ، واجتمع البرلمان الشعبي لأول مرة في مدينة نابولي .

عهد الظلمات — اغتنم الملك الطاغية فرصة انعقاد مؤتمر لايباخ ؛ فخرج من مملكته وذهب يستنجد دولة النمسا ضد رجال الحرية من قومه الذين ارغموه مكرها على اعلان الدستور ؛ وكانت امبراطورية النمسا مهد الرجعية ومعقل المستبدين فامدته بجند عتيد دخل على رأسه محارباً جنود الحرية فدحرهم ؛ واعلن حكم الاطلاق من جديد وارسل الى الموت والى التعذيب وبطون السفن للتجذيف آلافا مؤلفة من الرجال الاحرار ؛ ودامت الحالة بئيسة دامية طيلة ايام هذا الطاغية السافل وايام ابنه الذي خلفه في الحكم فرانسوا الاول (١٨٢٥ — ١٨٣٠) (١)

١٨١٣) ؛ ثم ثورة بلاد البانيا . وقد حاول السلطان ادخال الاصلاحات الحديثة لبلاد السلطنة ؛ واعدم فرق الانكشارية الطاغية ، وانشأ الجند الحديث ؛ الا ان ثورة محمد علي باشا في مصر واقتحامه بلاد السلطنة حتى قونية ؛ وحرب اليونان وتحزب فرنسا وانكلترا وروسيا ضد تركيا ، وتخريب الاسطول الاسلامي فى معركة نوارين (١٨٢٧) قد جعلت السلطان يخفق فى سائر اعماله ؛ واخذ تدهور السلطنة العثمانية يتفاقم امره تحت معاول اروبا وبمساعدة سائر العناصر المسيحية في البلاد .

(١) كان يتولى ملك فرنسا الطاغية الظالم شارل العاشر ؛ فامعن فى خنق الحرية

وكذلك ايام فرديناند الثاني بن فرنسوا الاول ، اذ سار على غرار ابيه وجده في محاربة الحرية والاحرار وبطش بطش جبار بمحاولة دستورية قام بها رجال صقلية سنة ١٨٣١ـ ١٨٣٧ ؛ فقمع حركتهم وشتت شملهم .

انما ـ هل يلد هذا الضغط العنيف المستمر سوى الانفجار الهائل الداوي ؟ كانت نتيجة هذا الطغيان الجائر ان ثار اهل صقلية ثورة عنيفة منظمة هائلة سنة ١٨٤٨ (١) وعمت تلك الثورة سائر جهات الجزيرة ، واعلنت خلع الملوك الاسبانيين واستمرت الحرب سجالا ؛ وفظاعتها متوالية ؛ وخرابانها عامة الى ان توطد لامد قصير سلطان الملك الظالم .

غاريبالدي — ما مآل الظالمين الا السقوط والانهيار ، فان رجال الثورة الاحرار ؛ هبوا من جديد يحدوهم الامل في نسف قلاع الاستبداد ؛ ويستشهد بين ايديهم قوم ذاقوا نير الجور ، وفظاعة الاستبداد ومرارة التنكيل والاضطهاد .

وضيق على الناس حتى اخذت بوادر الثورة تظهر ، فاراد ان يشغلهم بحرب خارجية عله بواسطة انتصار حربي يستطيع الثبات ؛ فارسل جنداً وعمارة قويتين هاجمتا واحتلتا مدينة الجزائر (١٤ جوان عام ١٨٣٠) بعد مقاومة عنيفة . لكن ذلك النصر لم يغن عنه شيئا ، وثار الشعب الطالب للحرية ثورة عنيفة في ثلاثة ايام يدعوها التاريخ « الثلاثة الماجدة » وذلك بعد اربعين يوماً من احتلال الجزائر ؛ واضطر الملك الطاغية للتنازل عن العرش .

(١) في ٢٤ فيفري من هذه السنة ؛ اسقط الجمهوريون والاحرار الفرنسيون آخر ملك من ملوك فرنسا ؛ لويز فيليب ، واسسوا الجمهورية الثانية التي ما زعمت ان اصبحت « الامبراطورية الثانية » حيث اعلن رئيس الجمهورية ، نظراً لخلافات الامة وكثرة شقاقها ارجاع امبراطورية نابوليون ؛ واطلق على نفسه اسم نابوليون الثالث

ولقد كان على رأس الثائرين هذه المرة زعيم له صفات تؤهله لقيادة الشعب نحو الاحراز على حقوقه ، هو غاريبالدي الشهير ، فدحر الثائرون الاحرار جنود الملك فرنسوا الثاني حتى الجأوه للفرار صحبة آله وذويه .

وكانت ايطاليا يومئذ قد وحدت صفوفها وجمعت كلمتها تحت امرة الملك فيكتور عمانويل الاول ؛ واصبحت بفضل سياسيها الاكبر « كافور » دولة فتية فامدت الثوار الغاريبالديين بصقلية وساعدتهم على التخلص من الطاغية ، وبثت في البلاد دعاية نشيطة في سبيل الانضام للوحدة الطليانية ، ففي اكتوبر سنة ١٨٦١ ، اي بعد انهيار الملك فرانسوا بنحو الثمانية اشهر ، وقع في صقلية استفتاء شعبي كانت نتيجته اعلان صقلية ارادتها في الانضمام الوحدة الطليانية .

الحكم الطلياني — انها لم تكن صقلية سعيدة الحظ في وقت من الاوقات وهي قابعة تحت السيادة الطليانية الجديدة . فالضرائب الثقيلة والاتاوات الباهظة حطمت جهود الشعب ، واضطرته لاعلان الثورة مراراً ، وخاصة سنة ١٨٩٣ ، حيث هاجم الثوار مراكز جمع الضرائب واوقدوا فيها النيران ؛ ثم نكلت بهم الحكومة الطليانية تنكيلا ذريعا ، وغدت صقلية ولاية من ولايات ايطاليا يخيم عليها الجهل كما يخيم على ولايات كلابرا وبلاد الجنوب الطلياني ؛ وضاقت على الصقليين الارض بما رحبت ، فلجأوا الى الهجرة افواجاً نحو البلاد التونسية او امير كا الجنوبية وغيرها من البلاد ، وشارك الصقليون الطليانيين في اعتدائهم الاول على بلاد النجاشي منليك امبراطور الحبشة ، ذلك الاعتداء الذي انتهى بكارثة « عدوة » المخجلة ؛ كما شاركوهم في اعتدائهم الاثيم على ولايتي طرابلس وبرقة العثمانيتين وما وقع خلال ذلك من فظائع ومنكرات ، وشاركوهم في الحرب العامة الماضية وفي الاعتداء الثاني على بلاد الحبشة وفي الحرب الاثيمة الاخيرة .

انها لم تنل صقلية اثناء كل ذلك سواء خلال الحكم الدستوري او الحكم

الفاشيستي ، اي اصلاح جوهري يغير نظامها الاقتصادي الاقطاعي ويجعل للفلاح والعامل فيها مركزاً اجتماعيا معقولا بتمكين الاول من الارض وتثبيت الثاني في المصنع فكان الصقليون يتأففون من الحكم الطلياني انما يعجزون عن خلع نيره والثورة في وجهه

فعندما حطمت الجنود الحليفة قوى الالمان والطليان بالبلاد التونسية سنة ١٩٤٣ واجتازوا الى صقلية يقتفون فيها خطى الالمان والطليان ، لم يبد الصقليون ادنى مقاومة ، بل تقبلوا الفاتحين باذرع مفتوحة وصدور رحبة ؛ كأنهم املوا منهم اخراجهم من نير الاستبداد وربقة الاستعباد. وما كاد ينهار الحكم الفاشيستي البغيض في ايطاليا حتى ابتدأ رجال صقلية الاحرار يفكرون في مستقبل بلادهم ، ويرجون الاحراز على استقلال اداري واسع النطاق ان لم يتحصلوا على الاستقلال التام ، حتى يتمكنوا من فتح عهد جديد للجزيرة يعيد لها سالف مجدها وسؤددها ايام المسلمين والنرمان .

ولعل حركتهم هذه سائرة في طريق النجاح ، اذ اعترفت الحكومة الطليانية لهم في اكتوبر ١٩٤٤ ، بامتيازات مركزية عديدة ؛ وقع توسيعها في العشرين من نفامبر الموالي حتى اصبحت شبه استقلال داخلي .

وان حبنا للحرية يجعلنا نتمنى لهذا الشعب المسكين الذي ذاق مرارة الاضطهاد قرونا مديدة ، والذي تربطنا به ذكريات عديدة ، عهداً جديداً كله حرية وسعادة ومحق لنظام الاقطاع وسيطرة الكبراء وتحقيق لعزيز الآمال .

واننا بهذه المناسبة لنقول في كل صراحة وعلى رؤوس الملاء انه هيهات ان يستقر في العالم السلام وان تنتهي الشحناء والاحن والحروب بين الامم ما لم تنل سائر الشعوب حريتها التامة واستقلالها ، سواء قويها وضعيفها كبيرها وصغيرها وان تغدو العلاقات بين الامم علاقات صداقة وتعاون في ميادين الثقافة والاقتصاد وتبادل المصالح لا علاقات فتح واستعمار وقضاء على حرية وكرامة وحياة الشعوب .

القسم الثالث

امهات المدن والقرى بصقلية

ومعالمها وآثارها

بالرمة

من امهات المدن قديماً وحديثا ؛ ومن اجل واجمل الحواضر فى كل الاقطار والامصار ؛ جمال في المناظر واعتدال في الطقس رمياه دافقة وحدائق وخمائل ، ومروج وبساتين وقصور شاهقة ودور فسيحة الرحاب وآثار باقية مما تركه السلف للخلف .

كان اسمها اليوناني « بانرموس » وكانت مدينة كنعانية قرطاجنية حساً ومعنى ؛ ولقد رأينا في المقدمة التاريخية مدى ما بذلته قرطاجنة من جهد عنيف للاحتفاظ بالجزيرة وجوهرتها الفريدة ؛ لكن بالرمة وقد استحوذت عليها روما لعدة قرون ، قد احتفظت بمركزها الممتاز واصبحت من ابهر دور التاج الروماني الا ان بالرمة قد بلغت اوج عزتها وسدرة منتهى رونقها وبهائها ، عندما اتخذ منها الامراء المسلمون ثم ملوك بني الحسن ، عاصمة لملكهم ؛ واصبحت مركزاً من اهم مراكز الحضارة والنور بالبحر المتوسط ، وارتفعت بتجارتها وصناعتها وعلومها الى مصاف عواصم الاسلام الكبرى .

يسكن هذه المدينة اليوم نحو من ٣٩٠٠٠٠ نسمة ؛ حول مرسى هو من اهم مراسى ايطاليا وقسمه القديم يدعى الى يومنا هذا « القلعة » La Cala على مقربة من آثار القصر العربي القديم « قصر العمارة » Castellammare

ولم تبق حادثات الايام والحروب المتوالية على كثير من آثار الكنعانيين

القرطاجنيين ، ولا من آثار الرومان والعهد الاسلامي ، الا ان آثار النرمانيين وهي من انشاء العرب قد بقيت قائمة الى يومنا هذا شاهدة بعظمة وحسن ذوق منشئيها وفي بالرمة العتيقة لا تزال حارات عديدة تحمل الطابع الافريقي على شكل مدنها الاسلامية بهذا الشمال ، ولا تزال هنالك حارة تدعى «Attarini» كانت بلا ريب حارة او سوق العطارين .

قصر الفوارة — هو من اهم آثار بالرمة الاسلامية ؛ ولقد ترنم بذكر محاسنه الشاعر عبد الرحمان بن ابي العباس حينما يقول :

فوارة البحرين جامعة المنى * عيش يطيب ومنظر يستعظم

يقع هذا القصر الشامخ الذرى فوق جزيرة تحيط بها بركة صناعية من جهات ثلاثة ، ولقد شاده وبالغ في تزويقه الامير جعفر ؛ من ملوك بني الحسن ، فيما بين سنتي ٩٩٧ و ١٠١٩ ميلادية ، واتخذ منه هو وخلفاؤه من بعده مقراً للترف والنعيم .

وعندما ضرب الدهر بضرباته وتحطم سلطان المسلمين هنالك ، اصبح قصر الفوارة مقر اللهو واللعب والخلاعة لملوك النرمانيين ومن تبعهم ؛ ثم اخنى الدهر على هذا القصر عندما اصبحت الجزيرة العوبة بين ايدي الغاصبين من ملوك اروبا فلم يبق منه اليوم الا الخرابات وكنيسة صغيرة شادها المسلمون للملك رجار وبعض اقبية وغرف ؛ وحوالي القصر لا تزال ترى البناء الذي يحيط بالبركة الصناعية ليحبس بها الماء ، ولا تزال ترى الحنايا الاسلامية الثلاثة التي كان الماء يجلب عليها للبركة المذكورة .

قصر العزيز — ويدعوه الاروبيون لازيزا La Ziza شاده ليتخذ منه مقراً لملكه وسلطانه ، الملك غليام الاول فيما بين سنتي ١١٥٤ و١١٦٦ م ، بواسطة مهندسين وبنائين ونقاشين من المسلمين فكان القصر آية من آيات الفن المعماري

الاسلامي ، ولقد ابقت الايام على اكثره ، ولم يحل به ما حل بقصر الفوارة من التخريب ، وهنالك ما شئت من باهر الاقواس الهندسية وبديع النقوش الخلابة والكتابة الكوفية على النمط الهندسي حول الابواب والتقاويس ، وعيون جارية تغذى فوارة فى وسط البهو الاكبر ثم يتكون من ذلك سيل لطيف من الماء يخترق القاعة ثم يختفي تحت ابوابها .

قصر القبة — هو بناء على شاكلة قصر العزيز، اتم صنعه البناؤون المسلمون حوالي سنة ١١٨٠ م ، ولقد تحطم اكثره وياللاسف ، ولم تبق الا بعض جدرانه وقاعاته قائمة ، تذكر الايام بما سلف لها من مجد ، وعلى بعض الجدران ترى آثار الفسيفساء البديعة التنسيق ، وكتابة على النمط الكوفى ذات جمال خلاب ، ونقوش مدهشة على قواعد الرخام ، ومن اجمل ما ابقت عليه عوادي الايام بهذا القصر قاعة القبة ، وهى حسبما يدل عليه اسمها قاعة فسيحة الارجاء تعلوها قبة منمقة بنقوش خلابة من الرخام الصناعى .

الكنيسة الكاتدرائية الكبرى — هى من اهم بدائع الفن والجمال بالرمة شيدت سنة ١١٨٥ على يد صناع من المسلمين ؛ وكانت خليطا من الفن العربي والفن الغربى ، الا أن تغلب عليها الصبغة العربية على ان قسماً منها شيد على انقاض مسجد جامع لاتزال هيأته على حالها تقريباً وعلى ابوابها وبين اقواسها رسمت بالجص آيات من القرآن الكريم بالخط الكوفى .

القصر الملوكي — آية خالدة من آيات الفن والجمال ، انشأه الملوك المسلمون فكان مقر الدولة والامارة ، ثم استقر به ملوك النرمان بعد ذلك ، فزادوا في مساحته واضافوا اليه ، بواسطة البنائين المسلمين اقساماً اخرى ، ولا يزال قائم الذات يذكر الخلف الغافل بعظمة تاريخ السلف الحافل ، ومن روائع اقسام هذا القصر الملوكي : الكنيسة الصغرى التى ابتناها العمال المسلمون بامر الملك رجار

الثانى ، فيما بين سنتى ١١٣٢ ـ ١١٤٠ ، فهي درة وضاءة وسط عقد الآثار الاسلامية الخلابة ، ومن ابدع ما يراه قاصدو بالرمة ، تشد اليها رحال السائحين من كل قطر ؛ ومن اغرب ما يراه المشاهد هنالك سقفاً بديع الشكل يخلب الابصار وهندسة غريبة في بناء النوافذ ، تكسب النور حينما ينعكس بعضه على بعض رونق الموسيقى وروعة الشعر الرقيق ، ولا سبيل للاطناب فى وصف ما هنالك من نقوش (نقش حديدة) وفسيفساء خلابة الالوان ٠

ومن جملة البدائع المحفوظة بهذه الكنيسة الفنية ضمن ذخائرها الغنية صندوق من صنع المسلمين كله قطعة من عاج منقوش ؛ وعلى مقربة من القصر الملوكي و كنيسته توجد كنيسة القديس يوحنا ، وقد بناها الصناع المسلمون كذلك بامر الملك رجار الثانى ؛ على النمط العربي الخالص ، وضمن هذه الكنيسة يوجد مسجد اسلامي قديم دخل فى صلب الكنيسة وبقي على حاله غير متنافر فى هندسته مع ما اضيف اليه ٠

المتحف الكبير — من أجل ما يرى ايضاً ببالرمة متحفها الأثري الرائع الذى جمع فاوعى ، قيمة فنية كبرى وجمال عرض وبديع تنسيق ، وفيه قاعة اسلامية عربية عرضت فيها بدائع ما تركه الصناع المسلمون هنالك من تحف نادرة وطرائف ثمينة من اوانى وزخارف حديدية وبدائع من الخزف والبلور والرخام وغير ذلك من ادوات المنازل وكماليات الترف والنعيم ٠

هذا علاوة على ما فى المتحف المذكور من آثار الكنعانيين والقرطاجنيين ومن آثار الاغريق والرومان والنرمان وغيرهم ٠

وفي بالرمة ، دون ذلك ، عدة من متاحف اخرى تتعلق بالتاريخ الصقلي ؛ وفيها المكتبة البلدية التى تشمل ما يزيد عن مائتي الف مجلد ، منها نحو الثلاثة آلاف مخطوط .

ضواحي بالرمة — على نحو ستة اميال من بالرمة توجد مدينة القامـوق

الاسلامية الاصل والتى احتفظت باسمها فهي تدعى اليوم Alcamo وسكانها يتجاوزون الخمسين الفاً ، وحاراتها القديمة تذكر بايام المسلمين ؛ وعلى نحو الخمسين ميلا من بالرمة توجد مدينة الزقاق ، وقد احتفظت باسمها كذلك فهي اليوم Siacca وهي من اهم المدن الاثرية الصقلية ، لا يزال اغلبها على حاله كما كان ايام دولة المسلمين ودولة النرمان .

مسينا

من اهم المدن الصقلية واجملها موقعاً ؛ يسكنها اليوم ما يزيد عن ١٨٠ ٠٠٠ نسمة ؛ ومرساها من اوسع مراسى البحر الابيض المتوسط واكثرها حركة ، وتحيط المدينة بالمرسى فى استدارة بديعة ؛ حيث ترى عقداً ثمينا من القصور الخلابة الجمال يحيط بجيد حسناء فاتنة . لكن نكبة مؤلمة اصابت المدينة سنة ١٩٠٨ (٢٨ دسامبر) حيث اغتالها زلزال رهيب دام ٣٢ ثانية ، فحطمها تحطيماً فظيعاً وفتك باهلها فتكا ذريعاً ؛ فمات فيها وحواليها ما يزيد عن المائة الف نسمة ؛ ثم استرجع الانسان حقوق حياته ، فاعاد بناء المدينة على انقاض الخرابات ، واصبحت مسينا الحديثة تكاد تعادل مسينا العتيقة بهاء ورونقا وجمالا ، ولهذه الحادثة يشير شاعر النيل حافظ ابراهيم بك رحمه الله حيث يقول فى وصف المدن الصقلية الطليانية :

ارضها جنة وحور * وولدان — وملك كبير
تحتها والعياذ بالله نار * وسعير ومنكر ونكير

وليس فى مسينا ما يدل على انها بقيت بعض قرون مركزاً من اهم مراكز العمران الاسلامى بصقلية ، ولعل الحروب المتوالية فيها وفيما حوالها بين المسلمين والروم ؛ وبينهم وبين الايطاليين ، ثم النرمانيين قد جعل آثار المسلمين هنالك منعدمة الوجود .

من اعجب ما فى مسينا ؛ مقبرة ضحايا الزلزال المذكور آنفا ، فقد جعلت هذه

المقبرة فى ابدع مكان مشرف على المدينة ، يرى منه منظر اتفق الباحثون على انه من اجمل مناظر ايطاليا وصقلية معاً ، وغرست فيها حديقة جمعت في تناسق بديع كل انواع الاشجار والزهور والرياحين .

ومن اهم ما يرى بها متحفها الفني الغني ؛ وليس به الا القليل النادر من آثار المسلمين ومنها فى الصالة رقم ٥ صندوق بديع الصنع حسن التركيب .

شيفالو

اما شيفالو ؛ فهي مدينة صغيرة يسكنها جماعة من الصيادين ، لا يتجاوز عدد سكانها العشرة الاف ، انما تمتاز بوجود كنيسة كتدرائية هي بلا ريب اجمل واقدم كتدرائيات صقلية ، امر ببنائها الملك رجار سنة ١١٣١ ، وابتناها كما ابتنى غيرها فى ذلك العهد البناؤون المسلمون ، وبالغوا فى تزويقها وتنميقها ، وفيها اقدم واجمل فسيفساء بالارض الصقلية وتجاه الكنيسة متحف صغير بديع فيه مجموعة كاملة من النقود الصقلية فى مختلف العصور ؛ ومن بينها بل ومن اهمها النقود الاسلامية . وعلى نحو ميل من المدينة وفوق صخرة ترتفع ٢٦٩ متراً توجد آثار قصر وصهريج من آثار المسلمين .

ترميني

واما مدينة ترميني ولا تبعد عن بالرمة الا ١٩٦ ميلا وسكانها نحو العشرين الفا ، فهي تكاد تكون مدينة اسلامية خالصة بحاراتها وازقتها ودورها وطريقة العيش فيها ، كثيرة الحركة فيها حمامات حارة وفيها متحف بلدي يضم كثيراً من الآثار والنقوش والنقود الاسلامية .

مازرة

لا يزيد سكانها اليوم عن ٢٥ الفا ، ولم يبق بها ما يكشف الستار عن ماضيها

الاسلامي الحافل لولا ما يدل على مشاركة البنائين المسلمين في اقامة هيكل الكاتدرائية وبعض الكنائس الصغرى التي أنشيء اكثرها على انقاض المساجد الاسلامية عندما دالت دولة المسلمين هنالك .

مرسى علي

كانت هذه المدينة ايام المسلمين من اكثر المراسي حركة واكبرها تجارة لانها كانت نقطة الاتصال بين صقلية والبلاد الافريقية وقد فقدت المدينة اهميتها منذ انقطعت الصلات بين القطرين ، التونسي والصقلي ، فلم تبق لمرسى علي الا اهميتها الحربية ، وذكرياتها التاريخية ؛ وسكانها الآن (٥٧٠٠٠)

تجاه مرسى علي ، وعلى بعد نحو ٨ كيلومترات منها توجد جزيرة معطية القرطاجنية التي سبق ذكرها في المقدمة التاريخية وكان المسلمون يدعون هذه الجزيرة «المعزية» ولقد اجريت حفريات في هذه الجزيرة ووقع اكتشاف الكثير من آثارها القرطاجينية و مرساها العتيق .

أطرابنش

تستدير هذه المدينة حول مرساها في شكل هلال ؛ وسكانها يبلغون ٧١٠٠٠ نسمة وليست بها حركة تذكر كما انه لم يبق بها ما يذكر بايام المسلمين ، لولا ما هو موجود بمتحفها من قطع النقود الاسلامية و بعض اقمشة من صنع المسلمين .

قلعة النساء

لم يبق لها من القديم الا الاسم ، اشتهرت اليوم بتجارة الكبريت ويكادسكانها الذين يبلغون ٧١٠٠٠ لا يشتغلون الا بذلك وبما يمت له من صناعة وبالمدينة متحف صغير فيه بعض آثار اسلامية ليست بذات اهمية ، والى جانب المدينة توجد آثار القلعة الاسلامية التي تدعى اليوم قصر بياترا روسا ؛ ومن هذه القلعة يشرف

الانسان على قصريانة التي لم يبق بها اليوم شيء من آثار المسلمين ، انما على مقربة منها (٣ كيلومتر) توجد «قلعة السبت» Calta Cibetta وسكانها نحو السبعة الآف ويمكن اعتبار هذه المدينة اقدم مدن صقلية اليوم من حيث بناؤها الذي بقي على اصله منذ القرون الوسطى و من حيث لباس اهلها وتقاليدهم التى بقيت فى معزل عن الحياة الحاضرة .

طبرمين وضواحيها

اذا استثنينا جمالها الطبيعي ومركزها الممتاز بالنسبة للمتسوحين فاننا لانجد فى طبرمين اهمية من ناحية التاريخ الاسلامي ؛ ولعلك تذكر ان المسلمين لم يحتلوا مدة طويلة هذه المدينة التي كانت باستمرار معقل المقاومة البزنطية حتى اذا تمكن المسلمون من ناصيتها نهائيا سنة ٩٠٢ ميلادية دكوها دكا كي يقطعوا آخر امل للروم فيها ؛ وقد بقيت بها للآن ءاثار قصر قديم يدعى « قصر المولى » Mola يشرف على المدينة وضواحيها .

ومن المدينة التى لا يجاوز سكانها اليوم الثمانية ءالاف نسمة ، يسير الانسان نحو قرية لاتزال عربية اسمًا هي « القنطرة » Alcantara على مجرى الوادى المدعو بالقنطرة ايضا ، وهنالك فى تلك الضواحى مدينة لا تزال كذلك تحمل اسمًا عربيا وتكاد ديارها تحمل الطابع العربي الاسلامي ايضا وهي قرية « الزعفرانة » Zafferano

قطانية

ان كانت هذه المدينة تعتبر اليوم ثاني مدن صقلية بعد بالرمة ، وان كان عدد سكانها يجاوز ٢٢٧٠٠٠ ؛ وان كانت بناءاتها الضخمة وعماراتها البديعة تجعلها فى مصاف المدن الكبرى ؛ فانها رغم كل ذلك لاتشبع نهم الباحث المسلم لأنها لا تحوى شيئا يذكر من ءاثار المسلمين ، وذلك لانها علاوة على التخريب الذى لحقها كما لحق كل مدن صقلية من جراء حوادث الاحتلال النرماني قد اصابها

زلزال عنيف حطمها تحطيماً ذريعاً سنة ١٦٩٣ ؛ فلم يبق بها عمراناً واهلك فيها ١٦٠٠٠ نسمة .

اهم ما يراه الباحث فيها اليوم متحفها الذي جمع فيه القطانيون كثيراً من ءاثار صقلية ومجموعة ثرية من الصور والرسوم ؛ ومكتبة فيها نحو الخمسين الف مجلد منها نحو الخمسمائة مخطوط نفيس والتي رق فيها الكثير من اوائل العهد النرماني

سرقوسة

روعة وجمال وبهاء وجلال ؛ هي مهد الذكريات الاغريقية والقرطاجنية ، يهيمن عليها خيال ارخيدس العظيم ؛ سكانها اليوم نحو من ٧٠ الفاً وءاثارها السابقة للعهد الاسلامي غنية ثرية ؛ وبها متحف يكاد يكون مختصاً بدراسة ءاثار ومدنية شعب الصيقول ، وبدائع من صنع المدنية الاغريقية والفنيقية ؛ انما ليس بها ما يشبع نهم الباحث من التاريخ الاسلامي ، واهم ءاثارها على الاطلاق هو المسرح اليوناني الشهير الذي ابتناه الملك هيارون حورين سنة ٤٧٠ ق . م ؛ وهو اهم ما تركته لنا ايدي الزمان من مسارح الاغريق وتبلغ دائرته ١٣٨ متراً .

نوطس

كانت اثناء التاريخ الاسلامي مركز ولاية ، وكانت ذات اهمية كبرى اسسها الصيقوليون ووسع دائرتها المسلمون ، واستمرت مدينة اسلامية فى سائر مظاهرها الى سنة ١٦٩٣ حيث تحطمت بصفة تامة وهجرها سكانها فابتنوا على مقربة منها مدينة جديدة ؛ انما فى ءاثارها رسم هيأتها الاسلامية السابقة ، واما المدينة الجديدة فليست من الناحية الاثرية بذات اهمية يسكنها اليوم ٣٣٠٠٠ من الناس .

القسم الرابع
الحكم الاسلامي

ايام الدولة الاغلبية

نشأة الدولة الاغلبية — وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية الكريمة يوم الفتح الاكبر ، وهو يحطم الاصنام داخل البيت الحرام ، واضعاً بذلك حداً فاصلا بين هدي الاسلام وضلال الجاهلية ، فاتحا بذلك عهداً جديداً في تاريخ الانسانية هو عهد النور والمدنية الحقة ، عهد تحرير الفرد والجماعة من ربقة الذل والعبودية لغير الخالق ، عهد تحرير العقول من الاوهام والاباطيل ، عهد التساوي الحق الذي لم ير له العالم قبل ذلك ولا بعد ذلك مثيلا .

التهبت يومئذ نيران الثورة العالمية في سبيل التحرير والمعرفة ، يحمل رايتها رفيعة وهاجة قوم اسلموا لمحمد وآمنوا بما جاء به من الهدى ودين الحق فتدفقوا سيلا نورانيا جارفا يكتسحون الظلمات ويدكون اسس القيصرية والكسروية ، ويقيمون على تلك الانقاض البالية عدل الاسلام وحرية الاسلام واخوة الاسلام .

وانه لم تكد تنقضي ثلاثة ارباع القرن على هجرة الرسول الاعظم حتى كان ما اريد ان اسميه « امبراطورية الاخوة الاسلامية » يشمل فضلا عن بلاد العرب العراق وفارس وما وراء النهر وبلاد الشام ومصر وطرابلس وشمالنا الافريقي حتى امواج المحيط الاطلسي .

على ان اصعب الفتوحات الاسلامية مراساً ؛ كان بلا ريب فتح اقطار هذا الشمال الافريقي ، وذلك لبعدها من جهة عن مركز الخلافة الاسلامية، بالمدينة كان

او بدمشق او بغداد ، وصعوبة المواصلات بين قلب المملكة ومصدر الامر والنهي وبين هذه البلاد النائية ، ولأنها من جهة اخرى كانت تسكنها امم البربر الابية ؛ وهي مجموعة اقوام ما وهنت امام جبروت الظالمين وما ضعفت قواها تجاه ارهابهم وبطشهم الشديد ؛ وما استكانت لسلطان الاستعباد ايا كان مصدره ؛ وسواء جاءت من رومة اغلاله او صبت في بيزنطة قيوده .

فالبربر على تفرق شملهم وتخاذلهم كانوا اكثر الناس استماتة في سبيل الحرية واشد الناس تضحية في ميدان الاستقلال ؛ ولقد كانوا طيلة العهد الوندالي يمسكون بين ايديهم زمام امورهم ؛ وقد تعاونوا مع اولئك الفاتحين الهمج ، على تخريب ما شاده الرومانيون لأنفسهم بهذه الديار من معالم وآثار ؛ ثم كانوا طيلة العهد البيزنطي الخرب يباشرون داخل بلادهم مقاليد الحكم تاركين لرجال بيزنطة الاحتلال العسكري والادارة الاسمية والرسمية .

فلا غرو ان رأينا رجال البربر من جبال طرابلس الى كتلة الاطلس يقومون مرة اثر اخرى ضد غارات العرب الفاتحين منذ غزوة عبد الله بن ابي سرح سنة ٣٠ الى ان تمهد الامر نهائيا للفاتح الاكبر موسى بن نصير حوالي سنة ٩٠ هج (١)

فنحن نرى ان فتح العرب للمغرب قد استغرق من جهودهم زهاء الستين سنة واستنزف من قواهم خيرة الجند وجلة القواد ؛ كمعاوية بن خديج وعقبة بن نافع العظيم غالب كسيلة ومؤسس القيروان وحسان بن النعمان قاهر الكاهنة وغيرهم من ابطال العرب واشبال المسلمين ؛ ولقد كان البربر ان خسروا المعركة اظهروا الانقياد والطاعة عن مضض ؛ فلا نكاد تتغير الحالة بتغير عامل من العمال او بتمرد

(١) في سنه ٩٦ توفي بدير مروان الخليفة الوليد ابن عبد الملك ،وكانت ايامه من اسعد ايام الدولة الاموية ؛ فبها تم فتح اسبانيا وجنوب فرنسا ، وبلاد الترك وفتح القائد محمد بن القاسم الثقفي اكثر بلاد الهند .

فى الجند ، حتى يعودوا الى الثورة والعصيان مرتدين عن الدين فى أكثر الاحيان.

بقيت الحالة كذلك بين صفو و كدر ، وامن وانتقاض ، طيلة ايام الامويين واوائل عهد العباسيين .

وانه لمن أكبر نكبات هذا الشمال الافريقي ، سواء فى اول العهد الاسلامي ، او في غيره من العهود : كثرة تداول الولاة عليه ، فلا تكاد تستقر به قدم واحد منهم فيدرس حالته ويدرك قيمته ، ويختلط بشعوبه واممه ، ويأخذ باسباب العمران والانشاء والتكوين حتى تلعب في مركز الدولة البعيد الدسائس والفتن وتعمل السنة السوء والوشاية اعمالها ، وتلعب الغايات النفسية او العصبية ألاعيبها الخبيثة ، فيصدر الامر بتولية عامل جديد يكون فى الكثير من الاحيان عدو العامل القديم فيفد على البلاد يحدوه حب الانتقام ، ويسفر ذلك عن وقائع تسيل فيها الدماء ، ويستفيد البربر الواقفون بالمرصاد من ذلك ، فتكون الثورة و يكون الانتقاض .

انما الى جانب هذا الاضطراب في السياسة كان الدين الاسلامى على يد رواده الامجاد يستقر استقراراً متينا فى البلاد .

ولقد فهم البربر اخيرا ؛ بعد طول اختلاطهم بالعرب ، واخذهم الدين عنهم ان هؤلاء الفاتحين ليسوا كمثل الذين سبقوهم من الفاتحين ، فسمو اخلاقهم ونبل عواطفهم وبساطة عيشهم وسهولة دينهم الفطرى ؛ كل ذلك يجعل بونا شاسعا بين هؤلاء واولئك ؛ ومن ثم امكن اتحاد العرب والبربر تحت راية الاسلام المسوية ، وتحقق لهذا القطر ما كان يرجوه منذ قديم الازمان ، ولم يتحصل عليه قبل ذلك ؛ تحقق له الاستقرار الديني الذى دام منذ ذلك العهد الى يومنا هذا ، رغم ما وقع من شنآن سببه خلافات مذهبية قد استعملت في أكثر الاحيان وسيلة سياسية يراد بها الوصول الى الحكم .

وما عتم ذلك الاستقرار الديني ان اسفر عن استقرار سياسي بصفة اعلان القطر المغربي الاسلامي استقلاله عن مركز الخلافة الاسلامية؛ وادارة اموره المحلية بواسطة الانجاب من بنيه .

لقد كان المغرب الاوسط ـ قطر الجزائر ـ اسبق جهات المغرب لاعلان الاستقلال ، وذلك بتأسيس الدولة الرستمية ؛ على يد كرام بررة من رجال البربر اسلموا وحسن اسلامهم ، واعتنقوا مذهب الامام ابن اباض رضي الله عنه ، وقد كان اول مذهب اسلامي انتشر في بلاد الاسلام ، واعتنقه قوم كثيرون بالشمال الافريقي والبلاد الطرابلسية ، ولقد قام بعبء تأسيس الدولة الرستمية البربرية الاسلامية عبد الرحمان بن رستم الفارسي سنة ١٤٤ (١) فحكمت البلاد حكما اسلاميا يذكر في كل عصر ويشكر ، وسجلت في تاريخها صفحات نبل وفخار لا تعتدي على ذكراها العلية الايام .

واذ كان العقد قد انتثر من الوسط ، واستقلت عن الخلافة العباسية وعن ولاتها بالقيروان دولة بني رستم في تيهرت .

لم تعتم جهات الغرب أن اقتفت اثرها واعلنت استقلالها على يد بطل من ابطال العرب وسيد من سادة الاسلام وشريف من اشراف قريش ، هو المولى ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وذلك بمدينة مليلي سنة ١٧١ هـ (٢) (٧٨٤ ميلادية)

---

(١) وقع هذا بعد انهيار الدولة الاموية بالشرق ، بمقتل آخر خلفائها مروان ابن محمد سنة ١٣٣ هـ (٧٤٥ م) وقامت الدولة العباسية مقامها معتمدة على الفرس حاكمة ببغداد .

(٢) بعد سنة ، اي عام ١٧٢ ، مات بالاندلس صقر قريش عبد الرحمان الداخل الاموي ، الذى استقل ببلاد الاندلس وانشأ فيها دولة اموية جديدة عتيدة

فما كادت تنتهي ولاية الامير روح بن حاتم بالقيروان ؛ سنة ١٧٥ حتى كانت الخلافة العباسية لا تحكم الا البلاد التونسية وبلاد الزاب ؛ اي القسم الشرقي من قطر الجزائر الحالي ؛ وما كادت تستقر بالبلاد اقدام الوالي الجديد ابراهيم بن الاغلب الكبير ، اثر حوادث كثيرة واضطراب ، حتى رأى ، ورأى وجوه القوم وكبراء الامة معه ، وجوب الانفصال الاداري عن بغداد والاستقلال بامور البلاد فراسلوا امير المؤمنين هارون الرشيد فى ذلك ، وجاءت المصادقة منه بعد استشارة اهل الحل والعقد بمركز الخلافة سنة ١٨٤ (٨٠٠ ميلادية) وتعاقد الفريقان على ان تبقى الامارة الجديدة معترفة بسيادة الخلافة العباسية ؛ وان تدفع خراجا سنويا لبغداد ، مقداره ٤٠ الف دينار متنازلة عما كانت تتقاضاه اعانة لها من خزينة مصر ومقداره مائة الف دينار .

تمت الامارة بذلك لابراهيم ابن الاغلب واصبح فى البلاد ملكا مستقلا مصلحاً معمراً ساهراً على امور مملكته باسطاً العدل والامن بين سائر طبقات رعيته ؛ والتف حوله في تضامن اسلامي « ووطني » بديع رجال العرب والبربر فتوطدت أسس الدولة واقبل الناس على صالح الاعمال ؛ والناس على دين ملوكهم. وهكذا نشأت الحضارة الاغلبية الزاهية الزاهرة ؛ واصبحت القيروان العظيمة عاصمة ملك وسلطان امتها رسل الامبراطور شارلمان مهنئة (١) وامتلات قصوراً

دامت هنالك زهاء ٢٩٠ عاماً ودامت ايامه ٣٣ سنة وانشأ بقرطبة التي اتخذها دار ملكه المسجد الاعظم الذى هو الى يومنا هذا اعجوبة الزمان .

(١) جاءت رسل امبراطور الغرب شارلمان مهنئة بالملك والاستقلال راجية من ملك القيروان ان يرجع للمسيحية بقايا شهدائها وآثارهم ومخلفاتهم بالبلاد الافريقية فاقتبل ابراهيم ابن الاغلب سفارة شارلمان بقصر العباسية ، جوار مدينة القيروان ، واحتفى بهم احتفالا منعدم النظير واجابهم الى مطلبهم فرجعوا مبتهجين ؛ ثم ارسل

وبساتين ، ومساجد ومدارس ودواوين ، وارسلت العمال من قبلها الى اقصى جهات المملكة وازدهرت المدنية وانتشرت العلوم والآداب وكثر العمران ، فلم تنقض ايام ابراهيم الكبير وابنه الاول عبد الله وابنه الثاني زيادة الله حتى كانت دولة بني الاغلب من ازهى ممالك المسلمين ، وبلغ خراجها يومئذ الف الف درهم (نحو ٨٠٠٠ كيلو من الذهب) .

ولا نقلن لك فى خاتمة هذا الباب ، ما قاله الاستاذ فكتور بيكي فى كتابه « مدنيات شمال افريقيا » عن الدولة الاغلبية : « لقد سار الامراء الاغالبة سيرة قسط وعدل محترمين للحقوق مظهرين جميل الاستعداد للقيام بجلائل الاعمال المائدة الامة » .

« من ذلك انهم انشأوا وظيفة تلقى نوراً غريبا على المجتمع فى ذلك العصر فلقد نصبوا في كل مدينة شخصية سامية مهمتها الرسمية (حماية الشعب ضد عدوان الكبراء) « صاحب المظالم » وهيهات ان يجد مجتمعنا العصري عبارة اجمل من هذه العبارة ، لوضع صورة تمثل فى آن واحد ؛ احترام العدالة واحترام حقوق الانسان .

« ولقد اشتغل امراء الاغالبة بالمنشآت العامة والاعمال النافعة ؛ فاكثروا من العمران والتجميل بمدينتي سوسة وتونس ، وامر واحد منهم (هو الامير احمد ابن محمد بن احمد) بحفر وبناء الصهريج العظيم بمدينة القيروان (فسقية الاغالبة) حيث تجتمع المياه الواردة من جبال جلاص ، ودائرة هذا الصهريج تبلغ ١٢٨ متراً ولا يزال مستعملا الى يومنا هذا ؛ وان المسافر لتأخذ منه الروعة كل مأخذ عندما تلوح له هذه الصفحة المائية الناصعة في وسط بيداء جرداء يخيل للناظر ان لاحد لها

ابن الاغلب حسبما تقتضيه التقاليد السياسية ، سفارة من لدنه ترد زيارة شارلمان فاقتبل تلك السفارة بمدينة بادو بايطاليا ؛ اقتبالا لائقا فاخراً .

« يقع هذا الصهريج اليوم شمالي سور القيروان ، بعيداً عن البناء والعمران ، انما هو بلا ريب لم يكن خارج اسوار المدينة العتيقة ، وذلك ما يعطيك فكرة عن اهمية مدينة القيران التي كانت فى ذلك العصر آهلة غنية .

« والى جانب كل ذلك ، كان امراء الاغالبة قواد جنود لا تنكر مهارتهم الفائقة فى الحروب ؛ فاستطاعوا ان يوطدوا سلطانهم بصفة مستمرة على قبائل من طبعها الشغب والهرج ؛ وتغلغل بواسطتهم النفوذ العربي فى البلاد الى حد بعيد .

انما كان اولئك الامراء على الاغلب ، اذا استتب لهم الامر وسادت السكينة ارجاء المملكة ينهمكون فى الملذات والشهوات والشراب ويقومون تحت تأثير ذلك باقسى الاعمال التي يدفع اليها جبروت ليس له من حد . »

المحاولات الاولى — ان كانت البلاد التونسية مطمح انظار كل من استقرت له قدم فى جزيرة صقلية ؛ فقد كانت هذه الجزيرة كذلك مطمح انظار كل من توطد له بالبلاد الافريقية الشمالية امر .

ولقد فصلنا فى مقدمة هذا الكتاب اعمال الدولة القرطاجنية فى صقلية وما قامت به من جهود عنيفة فى سبيل فتحها وفى سبيل الاستقرار بها .

وما كادت طلائع الفتح الاسلامي تبسط الويتها الظافرة فوق اديم هذه الارض فتجعل منها معقلا منيعا للعروبة والاسلام حتى اتجهت الانظار ، انظار الفاتحين الاولين صوب صقلية ، وكانوا من وراء الجزيرة الصقلية ينظرون قارة أروبا السابحة في الهمجية التائهة في بيداء الوحشية والظلمات .

كانت غزوة الاشراف ؛ اشراف الحسب والنسب واشراف الجهاد والجلاد اول غزوات المسلمين بالبلاد الصقلية . وكان القائم بكبر هذه الغزوة بطل العروبة والاسلام الخالد الذكر موسى بن نصير القرشي ، وقد اقر الله على يده الكريمة امر الاسلام بهذه الديار المغربية ، ووطد بها اركان الفتح العربى ، وتمت تلك

الاخوة الاسلامية العظمى التي لم ير العالم لها من مثيل ، اخوة العرب والبربر ، لحمتها الدين الحنيف الذى سوى بين الناس ، وما جعل من فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى ، وسداها المصلحة المشتركة . .

اراد موسى فى باديء الامر ان يعبر الى القارة الاوربية ، ممتطيا صهوة الجزيرة الصقلية ، فانشأ بتونس دار صناعة جهزت له مائة سفينة وصاح في الناس حيي على الجهاد فلبى الناس داعي الجهاد في سبيل الله افواجا ولم يبق شريف ممن كان معه الا ركب البحر ، ومن ثم دعيت هذه الغزوة غزوة الاشراف ، وعقد موسى لواءها لأبنه عبد الله ؛ فنزل ارض صقلية ودحر قوى الروم بها وغنم مغانم طيبة ، انما لم يستطع البقاء بها واتمام فتحها فاكتفى بما ناله وقفل باسطوله الى البلاد الافريقية .

ولعل طول المسافة البحرية بين تونس وصقلية ، وصعوبة ارسال المدد الى الغزات من جراء ذلك هو الذى جعل موسى يعدل عن فتح صقلية ويعزم فى الفور على مهاجمة اروبا من ناحية اخرى تكاد تتصل فيها بالارض الافريقية ؛ وهكذا نشأت غزوة بلاد الاندلس من مجاز طنجة الذى اصبح يعرف فيما بعد والى يومنا هذا ببوغاز جبل طارق ، وهو طارق بن زياد الليثي الذى اتم الله على يده ذلك الفتح المبين .

ولي الامر بافريقيا من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ، عبيد الله ابن الحبحاب فرأى ان يقتفى اثر موسى بن نصير وان يدخل اروبا من صقلية بعد ان توطد فتح الاندلس ، فارسل فى اول الامر غزوة بحرية لقيت اسطولا للروم يعترضها الطريق ، فدار القتال بين الاسطولين وانهزمت مراكب الروم وولت الادبار الا ان المسلمين لقوا من جراء ذلك عنتاً واسر الروم منهم قبل انهزامهم عدداً من رجالهم ، من جملتهم العالم الكامل الشهير سيدي عبدالرحمان بن زياد الذى بقي ف

الاسر الى سنة ١٢١ (١) ثم رجعت مراكب المسلمين بما غنمته من الروم .

لكن ابن الحبحاب لم يصبر على هذه الخيبة وصمم على انفاذ السهم في صقلية فجهز من جديد حملة عتيدة وضم على رأسها القائد حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ومعه ابنه القائد الجسور عبد الله بن حبيب ، وسار الاسطول الاسلامي من دار صناعة تونس سنة ١٢٢ فنزل الارض الصقلية وقاتل من اعترضه وهزم من قاتله حتى وصل تحت جدران سرقوسة الشهيرة ونصب عليها الحصار وضيقه وضرب

---

(١) فى السنة قبلها (٧٣٢ م) وقعت معركة ابواتية ، او بلاط الشهداء ؛ وبها اوقف شارل مارتيل زحف المسلمين على ضفاف نهر الاوار وقتل اميرهم البطل عبد الرحمان الغافقى ، وقد كان المسلمون دخلوا بلاد فرنسا سنة ٧٢٠ واحتلوا مدن تربون وقرقشنة ونيم ثم استولوا على افينيون سنة ٧٣٠ وبوردو سنه ٧٣٢ ووضعوا جاليات اسلامية بهاتيك الديار ؛ فبعد معركة ابواتية انسحب المسلمون الى الجنوب حيث استقروا امداً طويلا فى البلاد المواجهة لجبال البيرانات الفاصلة بين فرانسا واسبانيا .

وقد كان المسلمون يتقدمون في جنوب فرنسا الشرقي مابين دعوة الاهالي لهم وكان من آثار المسلمين هنالك تأسيس جامعة « مونبلي » وبعد انجلاء المسلمين جرد ملك فرنسا (بيبان البريف) ابن شارل مارتيل حملة انتقامية ضد اهالي جنوب فرنسا الشرقي فامعن فيهم مدة ٢٥ سنة قتلا ونهبا وتعذيباً .

وبهذه المناسبة يقول المؤرخون الغربيون ان الفاتحين العرب كانوا يتقدمون فى البلاد حسب التقارير السرية التى كانوا يتصلون بها من اليهود الذين انشأوا يومئذ جوسسة واسعة النطاق لفائدة الفاتحين المسلمين ؛ سعيا منهم فى الخروج بواسطتهم عن احكام المسيحية الجائرة القاسية التى كانت تمعن فيهم اضطهاداً وفتكا وتعذيباً .

باب المدينة ضربة رمزية بسيفه فاثرت فيه ، واذعن الروم والاغريق للصلح وبذلوا في سبيله جزية ذريعة وعزم حبيب وابنه عبدالله على البقاء بصقلية وانجاز فتحها ، وقد تيسرت لهما اسبابه. الا ان الحالة ساءت بافريقيا اذوقعت ثورة في ناحية طنجة قام بها البربر العصاة(١) فارسل ابن الحبحاب عليهم القائد خالد ابن ابي حبيب الفهري ومعه وجوه القوم واشراف قريش ، وكانه اراد بذلك ان يقمع الفتنة بوجه سلمي وبطريقة الاقناع والاذعان للحق على يد قوم لهم مكانة عالية في الدين وفي المجتمع الا ان الفتنة كانت عمياء هوجاء ؛ والتف الثوار برسل الامير وكانوا جماعة غفيرة فقتلوهم عن آخرهم وكاد امر الفتنة يستفحل ؛ فبادر عبد الله باستدعاء الجند الاسلامي من صقلية مقدماً الاهم على المهم ؛ واضطر حبيب ومن معه لاخلاء الجزيرة مرة اخرى بعدما كادوا ينجزون فتحها ، ورجعوا على مضض الى البلاد الافريقية .

رأى عبيد الله بن الحبحاب خيبة أمله المزدوجة وفشل مساعيه الجسيمة فترك الولاية ؛ ورجع الى المشرق في جمادى الاولى سنة ١٢٣ ، وكانت ولايته سنة ١١٠ ومن آثاره الجسيمة الخالدة الجامع الاعظم بتونس جامع الزيتونة العامر منبع النور والهدى بالشمال الافريقي زاده الله رفعة وسمواً . وينسب له بعض المؤرخين بناء دار الصناعة بتونس ولعله حسنها وزادها اتساعاً ونشاطاً ، لان موسى بن نصير كان قد استعمل بتونس دار الصناعة ، ومنها جهز مراكبه لغزو صقلية كما اسلفنا

ثم في ايام الوالي عبد الرحمان بن حبيب الفهري اعاد عبد الله بن حبيب غزوة الجزيرة وكان الروم قد حصنوها وانشأوا بها اسطولا لا يقصدون به الدفاع فحسب بل كانت مهمته مهاجمة مراكب المسلمين وقطع البحر عنهم ؛ قال ابن الاثير : فكانوا كلما ظفروا بمركب من مراكب المسلمين اخذوه بما فيه .

---

(١) سبب هذه الثورة عسف العامل على طنجة من قبل ابن الحبحاب واسرافه في الظلم والعدوان .

اشتعلت نيران الحرب بين الاسطولين ؛ وحطم ابن حبيب الكثير من مراكب الاعداء ، ودك حصونهم ولم تكن نيته هذه المرة الاستقرار بالجزيرة ، فتركها بعد ان صالحه الروم بها على مال كثير ورجع الى افريقيا مثقلا بالغنائم .

الفتح الاغلبي وأسبابه — نشأت الدولة الاغلبية كما اسلفنا في عزة و كرامة وتوطد لها الملك والسلطان ، ودانت لها الناس فقامت بمأثرتها الخالدة على صفحات الوجود الا وهي فتح صقلية وموالاة الجهاد بها و نصب الوية الاسلام فوقها عالية خفاقة زاهية .

كان أهم أسباب العزم على الفتح بصفة قارة مستمرة ، هو تمهيد السبيل لفتح البلاد الاروبية ومهاجمتها من الوسط حيث اخفق هجوم المسلمين عليها من ناحية الشرق عند جدران القسطنطينية وأخفق هجومهم عليها كذلك من ناحية الغرب في سهول مدينة ابواتية امام شارل مارتال .

أما السبب الثاني الرئيسي لهذا الفتح فهو محاولة قطع دابر القرصنة البيزنطية الرومية وقد اتخذت صقلية كما أسلفنا مركزا لها ، تشن منها الغارة الفينة بعد الفينة على الارض الافريقية فتخرب الثغور وتنتهب الارزاق وتذهب بالسكان الآمنين اسرى حيث يباعون عبيدا إن لم تبادر الدولة الاسلامية بدفع الفدية عنهم .

زد على هذين السببين الرئيسيين سببا ثالثا هو رغبة الملك الاغلبي في قطع دابر الفتن الداخلية والثورات التي كانت تجتاح البلاد مثل وافدة اخطر من الطاعون وافتك من الوباء ؛ باشتغال الناس من بربر وعرب ، بأمر الجهاد في سبيل الله فوق اديم ارض اجنبية ينسيهم فتنهم الداخلية ويلهيهم عن محاربة بعضهم بعضا وتخلص الملك الاغلبي بواسطة هذا الفتح من العناصر المتهيجة المثيرة في الجند العربي والتي اوصلت المملكة الاغلبية تحت قيادة الزعيم الثائر منصور بن نصر امير المحمدية الى شافة القبر ، وما امكن التغلب عليها الا بجهد جبار وتدبير حكيم .

وقد نجحت هذه الغايات السامية الى حد بعيد ، ونجح بلاط القيروان الزاهر في عهد الاستقلال الذهبي حيث اخفقت محاولة الولاة في عهد التبعية والحكم المباشر بواسطة الخلافة .

العزم على الفتح — تكاثر عدد المسلمين الاسرى بجزيرة صقلية ، فعقد الملك زيادة الله اتفاقا مع حاكم الجزيرة من قبل الروم ، تعهد به هذا بارجاع اسرى المسلمين الى البلاد الافريقية ، ولا يبقي منهم احداً بارض الجزيرة .

وكانت الحالة يومئذ في صقلية على اسوأ ما تكون عليه حالة بلاد يحكمها من قبل الاجانب حكام غلاظ شداد ، ديدنهم الارتشاء ودينهم مصلحة الذات ، وسيرتهم الجور والعسف وسريرتهم الحقد والحسد ونية السوء ، والشعب المسكين يئن من جراء ذلك انينا منكراً وليس عليه الا الخضوع لارادة الظالمين .

كان يتولى امر الجزيرة يومئذ من قبل امبراطور الروم في القسطنطينية عامل يدعى قسطنطين جمع الله فيه ما تفرق في بني قومه من فساد السيرة وخلال السوء وكان على الاسطول الرومي بالجزيرة امير البحر اوفيماس Euphémias (ويسميه مؤرخو العرب فيمي) لم يكن احسن من زميله سيرة ولا اطهر سريرة ، وكان الخلاف مستحكما بين الرجلين بصفة فظيعة فسعى الوالي لدى الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني واستصدر منه امراً في القبض على امير البحر ، وكان لهذا انصار واتباع يسيرون تحت لوائه وينتفعون منه ، فثاروا على الوالي ، ونبذوا دعوة الامبراطور واعلنوا في الجزيرة استقلالهم ، وانتصب اوفيمياس حاكما بامره هنالك

لكن الدهر لا يصفو للظالمين ؛ فان اوفيمياس لم يمكث في الملك طويلا ، حتى ثار عليه احد قواده ، بلاطة ، وهزمه في معارك عديدة واعاد رجوع البلاد لطاعة الامبراطور .

ضاقت الاسباب باوفيمياس فقدم بجماعة من انصاره الى مدينة القيروان

مستنجداً بلاطها ضد خصمه .

كان مجلس شورى الملك زيادة الله يتفاوض يومئذ فى مسألة الاسرى المسلمين بصقلية ، وقد علم رجال القيروان انه لم يزل بين ايدي الروم هنالك جماعة من المسلمين وان العقد الذى عقده الملك مع والي الجزيرة لم ينفذ ، وكان الجدال يومئذ محتدماً حول ذلك ؛ وهل يجوز نقض العهد معهم والعودة الى حربهم ؟ فقال قاضي الجماعة اسد بن الفرات : علينا ان نستخبر رسلهم ؛ يعني (جماعة اوفيمياس) فاننا بواسطة الرسل قد عاقدناهم ، وكذلك بواسطة الرسل نقيم عليهم الحجة ونجعلهم ناكثين .

اوتي بالرسل يومئذ فسئلوا عن الامر ، واكدوا انه لم يزل حقا بالجزيرة الصقلية خلافا للعهد ، جماعة كبيرة من المسلمين فى حالة رق واستعباد .

اذاك قرر المجلس ان العقد قد نكث من طرف الاعداء ، وان الحرب واجبة لرفع هذه المظلمة ونادى زيادة الله بالجهاد فى سبيل الله ؛ فلبى المسلمون النداء واجتمع الاسطول الاسلامي بمدينة سوسة ، مرسى القيروان ؛ وكان يجمع مائة مركب تحمل كل مركب منها نحواً من مائة وعشرة من القاتلين مع الزاد والعتاد والخيل ، فكان الجيش الفاتح مؤلفا من عشرة آلاف راجل وتسعمائة فارس وامر عليهم قاضي الجماعة اسد بن الفرات .

اسد بن الفرات — وانه لمن اكبر الكبراء واعظم العظماء فى تاريخ الشمال الافريقي ، لا تدانى منزلته العالية في العلم ، الا همته الشماء وعلو كعبه فى الجهاد ، بين ميادين السيف والقلم .

وانه لمن واجبنا المقدس ان نسطر صفحة حياته النقية الطافحة بجلائل الاعمال بصفة موجزة (١) حتى نتخلص الى ذكر قيادته الجند واعماله في صقلية .

---

(١) راجع عن ترجمته باسهاب ؛ مقالا ممتعا للاستاذ العلامة الشيخ سيدي احمد

اعجمي الاصل ، ولد بمدينة من ارض خراسان سنة ١٤٢ ، وقدم مع والده وسنه لا يجاوز الاربعة اعوام صحبة الجند الاسلامي القادم مع الوالي محمد بن الاشعث لتمهيد الامر بافريقيا .

تلقى فى مدينة القيروان مبادىء علومه مدة خمسة سنوات وارتحل فى العاشرة من عمره الى مدينة تونس فانقطع فيها للعلم نحواً من التسعة اعوام تعلم فيها القرآن وعلومه ، وروى فيها موطأ الامام مالك عن علامة افريقيا يومئذ وبحرها الطامي سيدى علي بن زياد (١)

وكان اسد رحمه الله يقول مفاخراً ومداعباً اقرانه : انا اسد والاسد خير الوحوش ، وابي الفرات والفرات خير الماء ؛ وجدى سنان والسنان خير السلاح .

ولم يكفه ما روى به غلته من العلم في مدينة تونس ؛ فامتطى صهوة العزيمة والجلد ، وشد رحاله الى المشرق الذى كان يزهو ويزدهر يومئذ بما فيه من مصابيح العلم وائمة الهدى .

ام بادىء ذى بدء مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهنالك سمع عن مالك ابن أنس رضي الله عنه الموطأ وتعمق فيه بعدما استوعبه اول مرة عن ابن زياد ؛ ثم غادر المدينة مزوداً بعلم مالك الغزير ودعائه الصالح ووصيته يوم الوداع: اوصيك بتقوى الله تعالى ؛ والقرآن والنصيحة لهذه الامة » وام العراق فلقى جماعة من

المهدى النيفر نشرته مجلة الثريا التونسية في العددين السابع والثامن من سنتها الاولى

(١) روى الموطأ عن الامام مالك رضي الله عنه بالمدينة ؛ واخذه عنه الامام سحنون صاحب المدونة ؛ عرضت عليه الدولة مراراً تولى القضاء ، فرفض وابى تورعاً منه ، وحبا للانقطاع للعلم ، حتى توفاه الله سنة ١٨٤ ، ودفن بتونس حيث لا يزال ضريحه الضخم تجاه ادارة المحافظة يزوره الناس احياء لذكراه واعترافا بجلائل اعماله .

اصحاب ابي حنيفة النعمان ؛ اخص بالذكر منهم الامام ابا يوسف ومحمد بن الحسن فاخذ عنهما الشيء الكثير من علم ابي حنيفة وآرائه وفتاويه واخذ عنه ابو يوسف موطأ مالك وآراءه . ثم انتقل الى مصر وفيها جماعة كبرى من اصحاب مالك والناسجين على منواله ، فصحب منهم الامام عبد الرحمان بن القاسم صحبة طويلة وامعن فى سؤاله وعرض المسائل المختلفة عليه ، حتى انقطع اسد فى السؤال ، اذ لم يبق له شيء يسأل عنه ، ودون عندئذ كتابه الشهير « الاسدية »

وبعد عشرة اعوام مضت فى جهاد عنيف واجهاد نفسي عز نظيره في سبيل العلم والمعرفة رجع الى وطنه الافريقي حاملا فى صدره علماً غزيراً ، وفي وطابه كتاباً عزيزاً هو الاسدية ، وتصدى للعلم والنفع ، فاشتهر امره وذاع صيته .

وكان الامام سحنون يومئذ بالمشرق ينهل من معين ابن القاسم العذب وقد صحبه واطال صحبته وألف كتابه الاشهر « المدونة » ثم رجع به إلى القيروان وانتصب للاقراء والنفع والتدريس ؛ ولم تكن المدونة على وفاق تام مع الاسدية فهنالك مسائل كانت محل خلاف واستشير الامام ابن القاسم فى الامر فرجح كفة المدونة على كفة الاسدية وأمر أسدا بان يصحح كتابه على المدونة فترك أسد رحمه الله اسديته وفقه مالك؛ وأقبل على مذهب أبي حنيفة النعمان يشرحه للناس ويعلمه الامة .

ثم ولي قضاء القيروان سنة ٢٠٤ مشتركا فى ذلك مع القاضى أبي محرز الكناني ؛ وكان بينهما شنآن كبير وخلاف جسيم .

وعندما وقع الخوض فى مسألة صقلية ومن بها من أسرى المسلمين كان من رأي القاضي ابي محرز الكناني التأني الى ان يتأكد الخبر ؛ ولو كان عائشا فى عصرنا الحديث لطلب « تشكيل لجنة بحث » اما اسد فكان رأيه الاسد ، اذ قال علينا بسؤال الرسل ، فاننا بواسطة الرسل صالحناهم ، وبواسطة الرسل نجعلهم ناكثين

ورجح هذا الرأي كما رأيت ، ونادى منادي الجهاد ، واجتمع الاسطول في سوسة .

عندئذ طلب القاضي اسد بن الفرات من اميره زيادة الله ، الاذن له بالخروج صحبة الجند الاسلامي حتى ينال شرف الجهاد ، او شرف الاستشهاد ، فلبى زيادة الله طلب القاضي الذى كان يومئذ فى العقد السابع من عمره ، وولاه امارة الجيش الفاتح ؛ فقال اسد : واهاً يا مولاي ! اتعزلني عن القضاء لكي توليني الامارة ؟ فقال زيادة الله كلا ؛ بل لك امارة الجيش مع القضاء .

وامر زيادة الله ان يخرج الجند الاسلامى فى موكب حافل ومهرجان مشهود فخرج لوداع المجاهدين كبار الامة وعيون القوم من العرب والبربر والاندلسيين ، والسادة الاشراف ؛ قال الشيخ ابو بكر بن محمد المالكي في كتابه «رياض النفوس» فلما رأى (اسد بن الفرات) جمع الناس بين يديه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ، وقد صهلت الخيول وضربت الطبول ، ونشرت البنود قال : لا اله الا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ما ولي لي اب ولا جد ولاية قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام ، فاجهدوا انفسكم واتعبوا ابدانكم فى طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة .

المعارك الاولى — اقلع الاسطول الاغلبي الاسلامى من مدينة سوسة ؛ يوم الاحد ١٤ ربيع الانور سنة ٢١٢ (١١ جوان ٨٢٤) ووصل سواحل صقلية عند مدينة مازرة ، يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الانور ؛ قاطعا فى ثلاثة ايام ، ثلاثمائة كيلو متراً تفصل بين سوسة ومازرة .

نزل المسلمون مدينة مازرة ، ولم يجدوا بها من يدافع عنها لاختلال امور الروم وزهد اهل البلاد في الدفاع عنها لفائدة الغاصبين ، فأتم المسلمون تفريغ الاسطول

وانزلوا الى الارض جميع ما اتوا به من معدات الفتح والكفاح .

عندئذ قدم القائد بلاطة بجموع كثيفة من الروم ، تبلغ المائة الف مقاتل ؛ اي عشرة اضعاف الجند الاسلامي ؛ اما امير البحر اوفيماس الخائن فقد تركه المسلمون وشأنه ولم يستعملوا جماعته وانصاره .

خرج المسلمون للقاء بلاطة ، وكان يعتزم الرمي بالمهاجرين الى البحر ، والتقى الجمعان على مقربة من مازرة . قال ابن ابي الفضل وكان حاضر المعركة « ورايت اسد بن الفرات وبيده الاواء وهو يزمزم ؛ فحملوا عليه ، وكانت فينا روعة ، فاقبل اسد على قراءة يس ؛ فلما فرغ منها قال للناس : هؤلاء عجم الساحل ... هؤلاء عبيدكم ... لا تهابوهم ؛ وحمل بالاواء وحمل الناس معه ؛ فهزم الله جل وعلا بلاطة واصحابه ، فلما انصرف اسد رأيت والله لدم قد سال من قناة الاواء مع ذراعه حتى صار مع ابطه » .

ومعنى قول أسد : هؤلاء عجم الساحل ، اي هؤلاء الذين هربوا امامكم من السواحل الافريقية .

اثر هذا النصر العظيم ، فرت فلول الجيش الرومى نحو الجهة الشرقية معتصمة بمدينة سرقوسة ؛ ورأى اسد ان يستثمر على الفور انتصاره الكبير ، فسار بجيشه يقتفي اثر المنهزمين ، ففتح كامل الجنوب الصقلى فى مدة وجيزة حتى وقف تحت اسوار سرقوسة قاطعا مسافة مائتي كيلو ميتر الفاصلة بين مركز النزول مازرة والمدينة المحاصرة في وقت وجيز .

وكان امير البحر اوفيماس قد ندم على فعلته وخيانته ، اذ رأى ان المسلمين يفتحون الجزيرة لحساب الاسلام لا لحساب رومى مهما كان شانه فراسل أهل سرقوسه يستحثهم على الصبر والثبات ريثما يقدم لنجدتهم ، فخرج جماعة من البطارقة والرهبان يسالون الامان لاهل المدينة ويطاولون فى المذاكرة وكان ذلك منهم

خديعة حربية تمكنوا بواسطتها من كسب الوقت ، وزيادة تحصين المركز، وإخفاء ما به من كنوز ونفائس .

أراد المسلمون أن يقتحموا المدينة فاخفقوا وأراد أهل المدينة أن يبعدوا المسلمين عن أسوارها فاخفقوا كذلك وأصبحت الحرب حرب مراكز لا حرب حركة .

وقع المسلمون فى مخمصة عند ذلك وأصاب الجند جوع كبير حتى أكلوا الخيول فخاطبوا القايد ابن قادم فى الامر وسالوه التوسط لهم عند أسد ليامرهم بالرحيل إلى افريقيا؛ قال ابن القادم لأسد :ارجع بنا الى افريقيا فان حياة مسلم واحد أحب إلينا من جميع المشركين، فقال أسد ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين وفي المسلمين خير كثير ؛ هنالك اخذ دعاة الهزيمة يعملون أعمالهم وينشرون دعايتهم المنكرة وبدرت من ابن القادم الذي تزعمهم كلمة سيئة ، فقال اسد : على اقل من هذا قتل عثمان بن عفان ؛ ثم تناوله وضربه ثلاثة او اربعة اسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ونصر فكرة المقاومة والثبات والصبر، فتم له ما اراد ؛ وعادت العزيمة القوية الى الانفس التي لعبت بها حينا ما دعوة النكوص على الاعقاب

واذ كان المسلمون قد احتلوا كامل الجنوب الصقلي ؛ فقد سهلوا على انفسهم امر تموين الجند ووصول النجدات اليه من الارض الافريقية ، ووصلت النجدات والاقوات والمؤون للمسلمين ؛ ووصلت للروم فى سرقوسة مثل ذلك من بقية الحاميات الرومية ، واستمرت الحرب سجالا حول سرقوسة ، وقد حفر المسلمون حولها خندقا عظيماً يمنع خروج حاميتها المهاجمة .

وكان اسد رحمه الله ورضي عنه يباشر امر الحصار بنفسه ويضيق على المدينة لكن ذلك الجهد الحربي الذى بذله منذ نزل مازرة نال من جسمه البالي فاصابه من جراء ذلك مرض اودى بحياته الجليلة ، ولبى داعي ربه فى ربيع الثانى سنة ٢١٣ اي بعد جهاد متواصل عنيف دام ١٣ شهراً ودفن رحمه الله بمقر استشهاده تحت

اسوار سرقوسة ، ويقول بعض المؤرخين انه دفن بمدينة قصريانة،وذلك غلط لأن تلك المدينة لم تكن قد فتحت بعد ؛ وكذلك يقول بعضهم غلطا انه دفن في بلرمة التي لم تفتح الا عدة سنوات بعد ذلك .

محمد بن ابي الجواري

اجتمع المسلمون بعد انتقال اسد بن الفرات الى الرفيق الاعلى ؛ وولوا عليهم محمد بن ابي الجواري . كانت النفوس قد ضعفت والعزائم وهنت ، فاستقر رأي الامير محمد بن ابي الجواري على اخلاء الجزيرة ، والرجوع بالمسلمين الى افريقيا.

غلطة الروم – توطد الفتح — ركب المسلمون عندئذ مراكبهم منسحبين ؛ واقلعوا ، وما كادوا يتوسطون عرض البحر حتى لقيهم اسطول الروم القادم من القسطنطينية نجدة لاهل سرقوسة ؛ فسد على المسلمين طريق الرجوع الى افريقيا ولم يترك لهم الا احدى الطريقتين : اما قبول المعركة مع الاسطول الرومي ، وهو اوفر عدداً واقوى عدة ، او الرجوع لصقلية ، والثبات بها والصبر على شدة الحرب الى ان يأتي الله بامره .

عزموا ، وهم على متن البحر على مواصلة الجهاد والرجوع الى البر ، فرجعوا مستبسلين ، عازمين على الفوز او الاستشهاد ، ولكي يقطعوا كل امل لهم بالنكوص على الاعقاب والرجوع نحو افريقيا ، قاموا بعملهم الحازم الحاسم ، الا وهو احراق اسطولهم عن آخره مقتدين في ذلك بما فعله من قبل طارق بن زياد عند فتح الاندلس ، حينما احرق المراكب وقال : ايها الناس البحر وراءكم والعدو امامكم ، وليس لكم والله الا الصبر اوالنصر ؛ وبهذا الحادث الرمزي ، توطد امر المسلمين في الجزيرة وعزموا على انجاز الفتح الى النهاية .

ابن فرغلوش الاندلسي — وكيف الصبر على الجوع وعلى قلة المدد وعلى ضعف العدد ، امام جموع الروم الغفيرة واقواتها الوفيرة ؟ رأوا ان لا ملجأ من

الله يومئذ الا اليه فصبروا وانتظروا ؛ وكان نصر الله قريباً .

فى تلك الاثناء والازمة مستحكمة الحلقات ، ارسى على السواحل الصقلية الجنوبية اسطول فرسان المجاهدين المسلمين بالاندلس ، بقوده اصبغ بن وكيل المشتهر باسم « ابن فرغلوش » وكان الاسطول مؤلفاً من ثلاثمائة سفينة سائرة في سبيل الغزو والمغامرة .

تم الاتفاق بين مسلمي الجزيرة وفرسان الاندلس على ان ينزل الاندلسيون الجزيرة لنصرة جندها ، وفتح مدنها والقضاء على حكم المسيحية فيها وعلى ان تكون الامارة فيها عند انجاز ذلك لابن فرغلوش .

نزل الاندلسيون البر واشتد بهم ساعد أهل افريقيا وسار المسلمون أقوياء العزائم فى طريق الفتح والنصر ، فاحتلوا مدينة مينا بعد حصار ثلاثة أيام ؛ ثم ساروا نحو جرجنت ففتحوها قسرا وساروا بعدئذ نحو معقل «قصر يانة» الذى كان أكبر صياصي الروم بالبلاد .

كان امير البحر اوفيماس الخائن لا يزال يسير مع المسلمين اينما ساروا ؛ وكان لا يزال يطمع فى تولى الامر بعد أن يمهد له المسلمون السبيل ؛ فعندما وقف المسلمون تجاه قصر يانة ، وكان أهلها أشداء متفانين فى الدفاع ، أظهروا الاستسلام والخضوع ، وأبدوا رغبتهم فى تولية اوفيماس أمرهم ، وما كان الامر منهم الا مكيدة فتمكنوا من الخائن ودقوا عنقه ، وتحصنوا فى مدينتهم أثر ذلك فلم تستطع جموع المسلمين اخضاعها .

الوباء — فى سنة ٢١٦ (٨٢٨) أصاب المسلمين وباء شديد فتك بهم فتكا ذريعاً ، وكان القائد المجاهد بن فرغلوش من جملة من استشهد بذلك ومات فى تلك السنة نفسها الوالي محمد بن ابى الجواري ، واضطرب امر المسلمين فتولى امرهم مؤقتا عثمان بن قهرب الى ان جاء من القيروان ابو فهر محمد بن عبد الله التميمي

سنة ٢١٧ (١) فنفر ابن قهرب عنها ولم تطل مدة ولايته ، ولم يستقم له امر ، ورجع اسطول الاندلس بمن بقى حيا من رجاله الى اسبانيا .

زهير بن عوف

ارسل زيادة الله الاغلبي ، زهير بن عوف عاملا على الجزيرة ؛ على ان يستمر فيها على الجهاد ويتم فتح البلاد ؛ وارسل معه جنداً عتيداً يبلغ عدده ٣٠ الفا ؛ فاشتد ساعد المسلمين هنالك ، واندفعوا يوالون الفتح ويسيرون من نصر الى نصر .

فتح بالرمة — ولقد كان ملاك عمل ابن عوف رحمه الله ورضى عنه فتح بالرمة عاصمة الجزيرة ودرتها اللامعة ؛ فلقد سار اليها على رأس الجند الاسلامى بعد ان توطد الفتح في الناحية الجنوبية كلها ؛ وكان الروم ومن لف حولهم من انصار المسيحية قد تحصنوا في العاصمة واستعدوا لتلقى الصدمة الرهيبة واعدوا لها ما استطاعوا من قوة وميرة ، ومن عزيمة وجلد .

وقف المسلمون تحت الاسوار المنيعة، وارسل ابن عوف الانذار الشرعي لرجال الحامية فرفضوا الانذار وتلاقت هنالك تحت جدران العاصمة الصقلية عزيمتان قدتا من زبر الحديد ، عزيمة المسلمين التى استقرت على وجوب الفتح

---

(١) فى السنة الموالية ؛ ٢١٨ هجرية ، توفى امير المؤمنين الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد ، وقد كان عصره ازهر عصور المسلمين من حيث العلم والثقافة وقد امر باحضار كتب العلم والحكمة والهندسة وغيرها من بلاد الاغريق وكلف بتعريبها جماعة من مهرة التراجمة ، وقد كان كثير التشيع حتى انه اوصى بولاية العهد لعلي الرضا بن موسى الكاظم ؛ وفي ايامه تجسمت فتنة القول بخلق القرآن واشتدت محنتها ؛ وقد كان مغرماً بالتجسس والاطلاع على سائر الاحوال ، فمن ١٧٠٠ عجوز يجسن خلال الديار ويطلعنه على مختلف الاسرار .

ودك الاسوار ، وتحطيم كل مقاومة تقف في سبيل انجاز المهمة الكبرى ، وعزيمة الروم التي توطدت على وجوب الدفاع عن العاصمة ، وفى الدفاع عنها دفاع عن كيان الجزيرة باسره ؛ فاما الفوز ودحر المسلمين واما الانهيار مع انقاض المدينة .

نصب ابن عوف الحصار على بالرمة وضيق عليها الخناق من سائر اطرافها ومهما ازداد شدة فى تضييق الحصار الا وازداد المدافعون تصلبا فى المقاومة واستماتة في الدفاع ؛ وقد علم كل من الفريقين ان المعركة حاسمة وان نتيجتها ستكون اما فوز الاسلام بالجزيرة ، وتقلص ظل المسيحية بها ، واما اندحار المسلمين ورجوعهم من حيث اتوا خائبين .

لكن الضائقة اشتدت بالمدافعين الى درجة لم يبق لهم معها احتمال الصبر ، وفقدوا كل امل لهم في النصر ، ولم يبق امامهم الا احد الطريقين : طريق الموت والاستشهاد كابطال قرطاجنة الذين سقطوا فى ميدان الشرف مجندلين تحت انقاض مدينتهم بين السنة اللهيب ، أو طريق الاستسلام والانسحاب . ولقد كان هذا هو الذى استقر عليه الوالي الرومي ومن بقي معه من رجال المسيحية ، فطلب من ابن عوف الامان على ان يغادر الجزيرة بحراً بماله واهله ، ومن اراد اتباعه من وجوه قومه ، فامنه الامير المسلم واجابه لطلبه تقديراً منه للبطولة التى اظهرها اولئك القوم فى الدفاع ؛ وابحر الروم تاركين المدينة مفتوحة امام المسلمين فدخلوها فى رجب سنة ٢٢٠ (٨٣٢) ، ولم يجدوا بها حسب رواية ابن الاثير الا ثلاثة آلاف من السكان ، وقد كانوا قبل الحصار ٧٠ الفاً .

اتخذ المسلمون يومئذ مدينة بالرمة عاصمة لملكهم ، كما كانت عاصمة الذين سبقوهم ؛ وكما اصبحت من بعد عاصمة الذين خلفوهم ؛ واندفعوا في ميدان الاصلاح والعمران والترميم ، يقيمون انقاضها ويشيدون جدرانها ويوسعون دائرتها ، فما عتمت غير قليل حتى اصبحت تختال في ثوب قشيب من المدنية والعمران ؛

وامتلات قصوراً ومساجد ودواوين وحمامات واسواقا وحدائق و بساتين وصارت جنة يانعة تمثل انوار الشرق الاسلامي ومدنيته اللامعة الخلابة وعلومه وفنونه ومنشآته ، تجاه ظلمات القرون الوسطى فى العالم الغربي .

استمرار الفتح ـ احتلال مسينا — اثناء حصار بالرمة ، نال المسلمون نصراً عظيما وطد قدمهم في ناحية الشمال الصقلي ؛ وذلك باحتلال مدينة مسينا ، سنة ٢١٩ (٨٣١) فانحصر الروم والمسيحيون فى الناحية الشرقية من صقلية حوالي مدينة قطانيا ، واصبحوا لا يحتلون من الجزيرة الا مثلثا يمتد من الشرق نحو الجنوب الغربي من مسينا الى قصريانة ، ثم يرجع من قصريانة نحو الجنوب الشرقي الى مدينة نوتو ؛ وعلى هذا الخط الحربي الذى كان يتضاءل شيئا فشيئا كانت تتوالى اعمال الهجوم من ناحية المسلمين، وكانت تتوالى اساليب الدفاع من ناحية المسيحيين

هاجم المسلمون الخط من وسطه مرتين ، خلال سنتي ٢١٩ و ٢٢٠ محاولين احتلال معقل قصريانة المنيع ؛ انما هم لم يستطيعوا ان ينالوا منه منالا ، فاكتفوا بغنائم غنموها ورجعوا الى معسكرهم .

كذلك حاولوا تمزيق الخط من اسفله ، فهاجموا مدينة سرقوسة بشدة ، لكنها تصلبت فى الدفاع ، واشتدت مقاومتها بصفة أجبرت المسلمين على الرجوع إلى مراكزهم لكن هذه الخيبة انقلبت نصراً مبينا ؛ ذلك أن جند الروم رأى أن يقطع عن المسلمين خط الرجعة ويصدهم عن الرجوع إلى مراكزهم فاعترض لهم فى الطريق وانقلبت محاولته تلك وبالا عليه ؛ اذ ان المسلمين ركنوا إلى غابة كثيفة هناك حجبتهم عن انظار المتتبعين ،وكنوا هنالك الى حين ، ثم انقضوا فجأة على الجند الرومي فمزقوه شر ممزق ، وقتلوا البطريق قائده وغنموا زاده وعتاده ثم عادوا نحو سرقوسة فنصبوا عليها الحصار وضيقوه .

كذلك سار القائد محمد بن عبدالله على راس كتيبة فناجز مدينة طبرمين

القتال ولم يدخلها مكتفيا بالاستطلاع وبما ناله من غنائم واسلاب وأخيراً إحتل مدينة كوزو Gozzo سنة ٢٢١ .

ابن أبي محرز القاضي — في هذه السنة سنة ٢٢١ مات بمدينة القيروان عالم من جلة العلماء وعلم من اعلام المسلمين ، هو ابن ابي محرز قاضي صقلية ؛ وقد ضربت بنزاهته وعدله وبتقواه وورعه الامثال ، من ذلك انه عندما بلغته الوفاة ، اوصى اخاه عمر ابن ابي محرز ان يكتم خبر موته خوفاً ان يكفنه ويدفنه زيادة الله الاغلبي ، وينفق ذلك عليه من بيت مال المسلمين ، فيلقي الله وعليه من مال المسلمين شيء ، وهكذا كان . فلما بلغ نبأ ذلك الامير ، ارسل بفتاه خلف ، ومعه مسك وطيب واكفان فوصل ساعة كان النعش خارجا نحو المقبرة ؛ فنثر خلف المسك على جدث القاضي ، ورجع بالاكفان ؛ وحضر الدفن الامير زيادة الله وعزى اخاه واهل العلم فيه ، وقال لمن حوله « لو اراد الله بكم يا اهل القيروان خيراً لما اخرج ابن ابي محرز من بين اظهركم .

وفي نفس هذه السنة ٢٢١ (١) توفي زهير بن عوف امير صقلية وقد سجل اسمه على صفحات المجد بجلائل اعماله .

---

(١) في هذه السنة اشتدت بالعراق محنة القول بخلق القرآن على يد الخليفة المعتصم بالله ، وكان قد تشبه بملوك الاعاجم ، وادخل الاتراك الدواوين واعتمد عليهم في ادارة الدولة ؛ وبلغ غلمانه من الترك ١٨ الفاً ، البسهم اطواق الذهب والديباج ، وبنى مدينة « سر من راى » وانتقل اليها ، وقد حارب الروم واثخن فيهم ، وكان من ضحايا القول بخلق القرآن ، الامام احمد بن حنبل ؛ الذى امتنع من الاعتراف بذلك المنكر ؛ فعقد له مجلس للمناظرة دام ثلاثة ايام ؛ وضرب ضربا مبرحاً الى ان اغمي عليه وهو صائم ، ومات رضي الله عنه شهيداً من جراء ذلك ثم استعمل المعتصم بالله خمسين الفا من الاتراك التتار لاجل المحافظة على الثغور ،

ابو الاغلب ابراهيم بن عبد الله بن الاغلب

ولي امارة صقلية عند موت زهير بن عوف ، وامر المسلمين في نمو وسلطانهم في تمكن وحول وقوة ؛ وكان الروم لا يزالون متحصنين فى الخط الدفاعى الذى اسلفنا ذكره ؛ فكانت همة الوالي الجديد متوجهة نحو ذلك المثلث يريد نسفه ، حتى يصفو امر الجزيرة للمسلمين لا ينازعهم فيها منازع .

الحرب البحرية — رأى ابن الاغلب ان الروم يعتمدون على البحر اكبر الاعتماد ، والنجدات ترد اليهم تباعا على متن الامواج فايقن ان القضاء النهائي على المقاومة الرومية لا يقع الا بعد القضاء على مراكز تموينهم ، وقهر الاسطول الرومي والسفن التي تعمل على انجادهم .

لذلك كانت اعمال ابي الاغلب الاولى منحصرة ضمن المنطقة البحرية ، فسير سفائنه تجوب عرض البحار المحيطة بالجزيرة ؛ ولقي هنالك اسرابا من سفن الروم فنازلها وحطم الكثير منها واستولى على عدد كثير ضمه الى عمارته ؛ واصبح للاسطول الاسلامي الصقلي اثر هذه الوقائع سمعة ادخلت الرعب فى قلوب الاعداء

ولقد اغتنم ابو الاغلب فرصة تغلبه البحرى فانزل كتائب من الجند الاسلامي تحتل اغلب الجزائر الواقعة شمال صقلية وغربها ؛ وقد كانت مكامن للروم ومراكز لتموينهم .

وقائع قصريانة — في سنة ٢٢٢ ، فتح القائدالفضل بن يعقوب حصن مندار Tindars لكن المسلمين بالجزيرة ما كان ليصفو لهم الجو ، وعلى يمينهم معقل كمعقل قصريانة ، يقض مضاجعهم ويهدد امنهم بصفة مستمرة ؛ فكان الجهود تبذل من

فنقدت بذلك وحدتها ، ودخل عليها العامل الذى ادى فيما بعد لهلاكها ، اذ استبد بالحكم فيها الاتراك ولم يتركوا للخليفة الا الاسم .

جانب المسلمين باستمرار لمحاولة احتلال قصريانة كلفهم ذلك ما كلفهم من جزيل التضحيات .

ولقد كان الروم وكانت الجموع المسيحية تعرف اهمية قصريانة ، وتدرك قيمتها الحربية ؛ وهي اشبه ما يكون بخنجر ممتد نحو قلب المراكز الاسلامية ، وتدرك فوق ذلك قيمتها الادبية ؛ فهي تمثل رمز المقاومة المسيحية بهاتيك الديار .

هاجم المسلمون مراراً قصريانة ؛ واخفقوا تحت جدرانها مرارا ؛ وما صدهم الاخفاق عن موالات الهجوم ، ولم تنثن عزيمة المسلمين هنالك عزيمة الروم ؛ فمهما اشتد اولئك فى الهجوم العنيف اشتد هؤلاء فى المقاومة الباسلة ، والتقت هنالك وجها الى وجه بطولة المسلمين وبطولة الروم ؛ وسجل الفريقان على ميدان الفروسية والشهامة صحائف فخر لا تبليها الايام .

ولقد احتل المسلمون قصريانة احتلالا موقتا له قصة طريفة سنة ٢٢٣ ذلك أن ثلة من الجند الاسلامي كانت مرابطة تجاه المدينة لا هي تستطيع احتلالها ولا الروم يستطيعون ابعادها ففى ليلة من الليالي كان أحد المسلمين يغامر منفرداً تحت جدران المدينة يطوف حولها وإذا به يجد ثغرة وليس عليها حرس من الروم فانطلق يعدو الى حيث معسكر المسلمين واخبرهم بالامر فتناولوا سلاحهم وانطلقوا خلفه الى حيث تلك الثغرة فاجتازوا منها الى المدينة والروم فى غفلة وما شعر هؤلاء الا واصوات التكبير والتهليل قد تصاعدت الى عنان السماء ، وقد ملك المسلمون المدينة فانسحب الروم الى بعض الابراج وتحصنوا بها ، وامن المسلمون سكان المدينة على انفسهم واموالهم ؛ ثم انسحبوا منها بعد حين ، نظرا لقلة عددهم ولكثرة الروم المحيطين بها ، ورجعوا الى مراكزهم الاولى وعاد الروم للتحصن بها من جديد

المسلمون فى ايطاليا الجنوبية — وفى سنة ٢٢٣ (١) حيث كانت تجرى هذه

---

(١) فى منتصف هذه السنة توفى بالقيروان ملكها العظيم زيادة الله بن الاغلب

الوقائع في داخل الأرض الصقلية ؛ كانت انظار المسلمين تتجه الى ابعد من ذلك ، كانت تتجه صوب البلاد الطليانية محاولة فتحها ومهاجمة القارة الاروبية من الوسط فان ابا الاغلب ارسل باسطوله المتيد نحو بلاد قلورية تحمل جنداً مدرباً ، فهزم الاسطول ما اقيه في طريقه من مراكب المسيحيين ونزل الجند الاسلامى فى جنوب ايطاليا حيث سجل صفحة من اغرب صفحات التاريخ الاسلامي بالارض الاروبية

لقد كان المسلمون ينتهزون الفرص للوثوب على الارض الطليانية بصفة قوية تمكنهم من فتحها والاستقرار بها ؛ ونشر انوار المدنية الاسلامية على انقاض ظلمات القرون الوسطى .

وفى هاتيك الاثناء كانت مملكة نابولي الطليانية تحارب امارة بينفان Bénévent جارتها ؛ وكانت هذه الامارة قد تغلبت على جند نابولي ، فارسل ملكها رسلا الى بالرمة يستنجدون ابا الاغلب ضد خصمهم ، ورأى هذا ان الفرصة سنحت للتدخل فى سياسة البلاد الطليانية فارسل فرقة من الجند الاسلامي تشاركت مع جند نابولي في محاربة امارة بينفان ؛ حيث غلبت هذه الامارة ؛ ورضخت لشروط الصلح ؛ واصبح المسلمون يومئذ حلفاء لمملكة نابولي ، ورأى رجال هذه الدولة ما المسلمين من قيمة فى ميدان العلم والعمران علاوة عما كان لهم من قيمة فى ميدان الحرب والطعان ؛ فانفتحت فى وجوه الرواد المسلمين ابواب المملكة وكانوا يحملون معهم رايات المدنية والعلوم والفنون ؛ وكان ذلك هو حجرة الاساس في تكوين عصر النهضة باروبا (La Renaissance)

ولقد كان المسلمون المغاربة قد نزلوا ارض قلورية بالجنوب الطلياني سنة ٢١٩ (٨٣٠) واستولوا على مدينة طارنطة Tarente واتخذوها مركزاً لأعمالهم ،

الكبير بعدما وطد سلطان الدولة على اسس متينة بافريقيا وصقلية ونظم دولته فاحسن تنظيمها ، وكانت ايامه ازهر ايام الدولة الاغلبية .

ثم ارسلوا غزواتهم البحرية حتى مصب نهر بو في شمال ايطاليا ، وانتظم يومئذ امرهم بالبلاد واتخذوا مدينة باري Bari عاصمة لأمارتهم التابعة راساً لبلاط القيروان ، وجهزوا اسرابا براً وبحرا لفتح مدينة رومة فتمكنوا من ارباضها وبعض قلاعها ، لكنهم تخلوا عنها في آخر الامر لخلاف شجر بينهم وانسحبوا الى امارتهم.

وفي سنة ٢٣٩ ، اثر هذا الاخفاق اعلن مفرج ابن سليمان عامل الاغالبة ، استقلاله بالجنوب الطلياني في مدينة باري وحارب الامارات الطليانية المحيطة بامارته فدحرها ووسع املاكه واتخذ من مملكة نابولي حليفا وفيا ، وكانت مراكبه قوية جريئة دحرت اسطول الروم القادم لاسترجاع البلاد ، واضطرته للرجوع على اعقابه ثم احتل مدينة اوترنت Otrente واحتل مدينة Carigliari ، ووضع بهما جاليات اسلامية ؛ ونصب الحصار على مدينة قابو Capoue انما لم يتمكن من احتلالها وهكذا دانت لأمارة مفرج بن سليمان حول مدينة باري كامل البلاد الطليانية الجنوبية .

فتح مسينا — كان الروم قد استرجعوا مسينا من يد المسلمين ، وكانت هذه المدينة همزة الوصل بين صقلية وايطاليا ، فتمكن الروم من البقاء بها معناه انقطاع الصلة بين شطري الواجهة الاسلامية ، لذلك سار القائد الفضل بن جعفر على رأس جند عقيد ، فحاصر مسينا وثبتت امامه ثباتا عجيباً ؛ وكان يقاتلها من جهة البحر ، فارسل فرقة من جنده هاجمتها على غفلة من ورائها من جهة الجبال ، فتمكنت منها واحتلت معاقلها فاستسلم مقاتلوها وطلبوا الامان فامنوا .

فتح لسى — سار الفضل بن جعفر اثر ذلك قاصداً مدينة لسى ، وكانت حصينة متينة التحصين انما كانت حاميتها قليلة العدد ؛ فعندما رأى اهلها قدوم الجند الاسلامي استصرخوا بطريق قصريانة طالبين منه النجدة فراسلهم بقول انه منجدهم بمدد وانهم متى رأوا ناراً اوقدت على الجبل المشرف على المدينة فعليهم ان يفتحوا بابها في وجه النجدة القادمة لنصرتهم .

هل وقع الرسول والرسالة فى يد القائد الفضل بن جعفر ، ام كانت له عيون اخبرته بذلك النبأ ؟ الامر المحقق هو انه علم جلية الخبر ، فاعد جنده ليلا واوقد على الجبل ناراً ، ففتح اهل المعقل ابواب حصنهم وخرجوا لملاقات النجدة فما راعهم الا والجند الاسلامي يهاجمهم من كل جهة ويقتحم عليهم الابواب ويستولي على المدينة وعلى حصونها ؛ وكان ذلك سنة ٢٣٢ (١)

واستمر الامير المعظم ابو الاغلب ابراهيم يدير امارته بهمة عالية ويوالي اعماله بين قطبي السيف والقلم الى ان توفاه الله سنة ٢٣٦ ؛ وقد كان شهما كريما جواداً وهو ابن اخي الملك زيادة الله ؛ وقد قص علينا ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام قصة ترينا مثالا من جوده وشهامته ، قال :

« يحكى من اخبار كرمه انه اشرف يوماً من دار الامارة فرأى امرأة قد هيأت فرخين ونظفتهما وطبختهما طبخاً محكماً ؛ فلما انزلت القدر وقد ادركت دعا بعض فتيانه وراء الدار وقال اذهب فاجعل القدر في قفة وجئني بها ، ففعل واكل منها . ثم امر بغسل القدر فغسلت ؛ وامر بكيس دنانير ففرغ فى القدر حتى امتلات . وقال للغلام امض بها فاجعلها فى يد المرأة ولا تقل لها شيئا ففعل وارادت المرأة ان تطبخ بها شيئا آخر فكشفتها فاذا هي مملوءة دنانير » .

(١ انتهت ببغداد فتنة القول بخلق القرآن ، وقد رأى الخليفة الواثق بالله فى آخر ايامه ان هذه البدعة لم تلق اي نجاح وانها اوقعت العداوة والبغضاء بين المسلمين ؛ وقد انتهت الفتنة على يد الشيخ ابي عبد الرحمان الاسدى ؛ شيخ ابي داود والكسائي ؛ اثر مجلس مناظرة شهير .

وان كان الواثق قد بيض صفحة تاريخه بترك القول بخلق القرآن فقد سودها بوضعه فى بغداد الى جانب الخليفة ؛ سلطانا من الترك البسه بيده التاج وجعل له الحكم المطلق ؛ فنسف بذلك سلطة بني العباس .

العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة

ويعرف بابن بربر

كان في صقلية عين الاعيان ، وكانت له الصدارة والامارة والمقام الاول اثناء ولاية الامير السالف الذكر ، اي الاغلب ابراهيم .

فما كاد هذا الراحل الكريم ينتقل الى جوار ربه ، حتى اجمع اهل صقلية امرهم على توليته الامارة ؛ وبايعوه على السمع والطاعة ، وارسلوا وفداً منهم الى القيروان يطلب الى اميرها محمد بن الاغلب المصادقة على ذلك الاختيار . ونال الوفد مرغوبه فرجع الى العباس بن الفضل بعهد الامير الاعلى على ولاية صقلية .

فتح قصريانة — كانت همة العباس متوجهة لانجاز الفتح ، واستخلاص البقية الباقية من جزيرة صقلية بايدي الروم والمسيحيين ؛ وهيهات ان يتم ذلك مادام هؤلاء يعتزون بصياصيهم في قصريانة ، ويتحدون من تلك الاعالي سلطان المسلمين

كانت قصريانة ميدان حرب وجلاد منذ عشرات السنين ، وكأن الله كتب المسلمين ان يفتحوها نهائيا كما فتحوها اول مرة بواسطة التسلل من ثغرة الى داخلها ؛ واليك البيان :

قبضت سرية من سرايا المسلمين عدداً من الاسرى ، ورأت ضرب اعناقهم ، فقال احدهم وقد تولاه الجبن واستولى على نفسه الصغار : استبقوني وان لاميركم عندي نصيحة تمكنكم من فتح المدينة ؛ فساروا به الى العباس فاستفسره عن جلية الامر ، وكانت النتيجة ان الخائن اخذ الامان لنفسه وآله وذويه مقابل السير مع الجند الاسلامي ليريه طريقا سريا يمكن منه ولوج المدينة دون انتباه الحراس .

بادر العباس بارسال كتيبة من المقاتلة ، تحت امرة عمه ، والعلج الخائن

وكان الواثق اعلم الخلفاء بالغناء ؛ وقد وضع نحو المائة صوت وله الف ابو الفرج الاصفهاني كتابه الشهير « الاغاني »

يدلهم على الطريق ، حتى اوصلهم الى قناة يخرج منها ماء المدينة ، فاجتازوا تلك القناة حتى اصبحوا داخل المدينة ،ثم اتجهوا الى الابواب فاعملوا السيوف فى رقاب الحراس ؛ وكانت جموع الجند الاسلامى مستعدة للحملة من الخارج ، ففتحت الابواب ودخلها المسلمون ، ورأى المدافعون عن المدينة ان المقاومة اصبحت لاتجدى نفعا فاستسلموا للاسر ، والقوا بالسلاح بين ايدى الغالبين ، وكان ذلك فى منتصف شوال سنة ٢٤٤ ؛ وجاء العباس بنفسه الى قصر يانة فاسكن بها المسلمين وأمر ببناء مسجدها، وحضر افتتاحه وأدى به فريضة الجمعة .

محاولة فتح رومة — راى العباس من توافر القوة بين يديه ، واجتماع الناس عليه أن الفرصة قد سنحت لضرب المسيحية الضربة الحاسمة وانجاز العمل الذى فشل فيه المسلمون منذ سنة الا وهو فتح رومة .

ففى سنة ٢٣٩ ؛ جهز العباس اسطولا ضخما يحمل جنداً عتيداً وسيره لانجاز ذلك العمل فنزل الجند الاسلامي عند مصب نهر التيبر ؛ واحتل مدينه اوستى Ostie واخذ يستعد للهجوم النهائي .

الا ان المسيحية التى شاهدت الخطر منذ سنة ؛ وايقنت ان المسلمين سيعيدون الكرة لامحالة ؛ كانت مستعدة لتلقى الصدمة وكان الاسطول المسيحي قوياً عتيداً ؛ فما كاد المسلمون يباشرون هجومهم حتى بدت في الافق طلائع اسطول العدو وعلمت قيادة المسلمين انها لا تستطيع ان تقهر الاسطول وترده على اعقابه ؛ وانها لا تنجو من كارثة وبيلة الا بالانسحاب السريع ، فالقت امرها الى الجند الاسلامي بالرجوع الى مراكبه واستطاعت بمهارة غريبة النجاة من العدو المحدق بها اذ تسللت من بين مراكبه فلم يستطع ان ينالها بسوء واخفقت الحملة على رومة مرة اخرى .

محاولة فتح كريت — سار الاسطول الاسلامى تحت امرة اخى العباس

يؤم سواحل المتوسط الشرقي ، لبسط سلطانه على انقاض سلطان القسطنطينية وليفتك منها سيادة البحر .

حط الاسطول مراسيه حوالي جزيرة افريقش وناوشها القتال ، فكانت قوية على الدفاع وكانت مستعدة لتلقي الصدمة ؛ فاكتفى الاسطول الاسلامي الصقلي بضربات اصاب بها أسطول العدو ، ورجع لصقلية عائداً بغنائم واسلاب .

انهزام الروم في البحر — كان لانتصار المسلمين بقصريانة واندفاعهم الجريئي في غمار البحر المتوسط أثر عظيم في نفوس الروم ؛ وقد علمت القسطنطينية انها ان لم تقض على هذه الدولة الناشئة في صقلية فان نفوذها سيتقلص نهائيا عن حوض البحر المتوسط الغربي ؛ لذلك جهز الروم اسطولا يجمع ثلاثمائة شلندي (١) يحمل نجدات قوية ، وارسلت به مدداً لمدينة سرقوسة ، ليحميها من غارات المسلمين وليمكن الروم من اعادة الكرة واسترجاع البلاد .

لكن سيادة البحر كانت قد انتقلت نهائيا من ايدى المسيحيين الى ايدى المسلمين ؛ وكان العباس ورجال البحر بالمرصاد ، فصمد الاسطول الاسلامي لاسطول الروم وابدى كل من الفريقين اقصى ما لديه من مهارة المناورة وانتهت المعركة بنصر اسلامي مبين ؛ اذ استولى المسلمون على مائة من مراكب الاعداء ، ولاذ الباقون بالفرار راجعين الى بلاد الروم . ويقول ابن الاثير ومن نقل عنه من المؤرخين ان ذلك النصر العظيم لم يكلف المسلمين من الخسارة الا ثلاثة فقط اصيبوا بالنشاب ؛ على انني ألاحظ ان في هذا الخبر مبالغة لاتخفى على بصير ، اذ لا يعقل ان معركة بحرية تسفر عن اسر مائة سفينة وانهزام مائتين اخريين لا يخسر

(١) نوع من السفن النقالة يدعى بالفرنسية Chaland وقد استعمل العرب هذه الكلمة وجاءت بلفظها في كتب التاريخ كابن خلدون وابن الاثير وغيرهما .

المتصرون فيها الا ثلاثة من الشهداء .

بعد هذا النصر العظيم عزم العباس على فتح سرقوسة وتحطيم آخر امل الروم فى البلاد ، فسار اليها على رأس الجند الاسلامي ؛ لكن المرض اعتراه وهو على مقربة من المدينة ؛ فاسلم روحه لبارئها فى ذى الحجة من سنة ٢٤٧ (١) وانطوت بموته صفحة من اجمل وازهر صفحات الجهاد في سبيل التوسع والنور والمدنية ؛ ودفن بموقع استشهاده ، فنبش الروم قبره واخرجوا جثته واحرقوها تشفياوانتقاماً

عبد الله بن العباس بن الفضل

اجمع المسلمون امرهم يومئذ على تولية ابنه عبد الله ، كما اجمعوا من قبل امرهم على تولية العباس مكان ابيه ؛ فاستلم عبد الله بن العباس زمام الحكم من يد الامة وقد كان فى حياة ابيه العظيم معواناً له فى حروبه وادارته.وأخذ يستعد لاخضاع سرقوسة وينازل قلاع الاعداء

على ان الوفد الذى سار الى القيروان يطلب من اميرها المصادقة على تولية عبد الله الامارة مكان ابيه لم يلق بها النجاح الذى لقيه من قبل وفد الصقليين عندما طلب المصادقة على تسمية العباس بن الفضل .

ذلك ان بلاط القيروان ادرك مقصود الصقليين وعلم انهم ارادوا هنالك الاستقلال بامرهم تحت امرة عائلة ابن الفضل يتوارثونها خلفاً عن سلف وبذلك تتقلص سلطة القيروان شيئاً فشيئاً ؛ فامتنع عن المصادقة واصدر امره لعبد الله بترك

(١) فى هذه السنة قتل فى بغداد المتوكل على الله ؛ قتله قائد الترك (بغا) مع وزيره الفتح ابن خاقان صاحب كتاب قلائد العقيان ؛ وقد اصبح الترك يومئذ أصحاب القول المطلق في بغداد . وتولى بعده المنتصر بالله ؛ فكان كما قيل فيه :

خليفة في قفص بين بغي و (بغا)
يقول ما قالا له كما تقول الببغاء

الولاية ، بعد ان شغل مركزها السامى خمسة اشهر سائرا فيها سيرة ابيه وجده ، موالياً الجهاد ساهراً على امور الرعية فصدع بالامر عن غير مضض واصبح من اكبر انصار الوالي الجديد .

خفاجة بن سفيان

قدم الى صقلية فى جمادى الاولى من سنة ٢٤٨ ، وكان شهما عالي الهمة طويل الباع فى السياسة وفي الحرب ؛ واتخذ لنفسه من ابنه محمد ، والولد نسخة من ابيه ، عضداً متيناً يخضد به شوكة الاعداء ويدير بواسطته سياسة الملك .

ابتدأ اعماله الحربية فى الناحية التي بقيت بيد المسيحيين فى شرق الجزيرة ؛ باحتلال مدينة نوطس (نوتو) مضيقا بذلك الحصار على مدينة سرقوسة التي كانت رافعة علم المقاومة بتلك الديار ، وكانت آمال الروم وآمال سائر المسيحيين فى استرجاع الجزيرة الصقلية معلقة عليها .

المرأة فى السياسة — لم تقم المرأة المسلمة بدور مباشر كبير فى السياسة العامة ، وكانت قصارى جهودها من تلك الناحية هي بسط السلطان على قصور الامراء والوزراء والقواد ، والاستحواذ بتلك الصفة على النفوذ المطلق وتوجيه السياسة العامة حسب ما يتراءى لها من مصلحة خاصة او نفع عام ؛ على ان التاريخ ضنين بسر هاتيك الحوادث الا ما ذاع واشتهر منها .

لكن من نوادر المسلمين فى جزيرة صقلية ان امرأة مسلمة شاركت بصفة فعلية فى عمل سياسى كبير ، وارسلت في سفارة ومهمة شاقة .

كان أهل طرميس يوالون القتال ضد المسلمين وكانت معاقلهم من أمنع المعاقل واشدها مراساً ولقد حاول المسلمون مرارا أن يدكوا اسس هاتيك الصياصي فما استطاعوا لذلك سبيلا واخيرا أظهر المسيحيون هنالك جنوحا للمسالمة والتسليم وارسلوا الى خفاجة يطلبون اليه ارسال وفد يفاوضهم ويضع معهم شروط الاستسلام

فارسل اليهم امرأته واحدابناته ولا ريب ان امرأة مثل هذه المرأة تسير بمثل هذه المهمة فتخترق صياصي الاعداء ومعاقلهم وتفاوضهم في عقر دارهم تطالب اليوم الاذعان والاستسلام لهي من مفاخر الجنس اللطيف وهي من كرائم السيدات المسلمات اللاتي يجب ان يحفظ لهن التاريخ ذكرهن العاطر الحسن وهي مع ذلك عنوان ازدهار مدنية وبلوغها اوج القمة ودليل قاطع على ما احرزته السيدة المسلمة من قيمة عليا في المجتمع الزاهر تحت الراية الاغلبية بافريقيا او بصقلية

نجحت السفارة نجاحا كبيرا وكأن القوم قد تأثروا بذلك المعنى البديع اللطيف الذى احتوى عليه ارسال سيدة جبلت على الخير والاحسان والعطف فلبوا دعوتها واذعنوا الامرها وسلموا مفاتيح المدينة لها فدخلها المسلمون صلحا

لكن قضى الله ان تهلك المدينة على يد اشرارها فنقضوا العهد بعد ميثاقه وثاروا بالمسلمين على حين غفلة فاخرجوهم غدرا واوصدوا دونهم الابواب ونكلوا بمن بقي منهم داخل الجدران ثم اعتصموا بالقلاع .

رأى خفاجة يومئذ ان السكوت على مثل هذه الخديعة يعد ضعفاً وهواناً وانه ان ترك الامر بدون انتقام يوشك ان يتخذه القوم نموذجا للانتقاض فى كل مكان ، فارسل ابنه المجاهد محمد ، على رأس كتيبة من المسلمين شديدة المراس ، فاحتل المدينة قسراً وسبي اهلها ؛ والفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة .

مقاومة سرقوسة — كانت سرقوسة كما اسلفنا قوية منيعة ؛ وكانت محط

آمال المسيحية بتلك الديار ؛ وكانت القسطنطينية توالي انجادها بالمدد رغم ما اصابها في ذلك الطريق من نكبات بحرية ؛ فاتجهت همة الامير خفاجة لقهر سرقوسة واخماد جذوة المقاومة فيها فرماها بفلذة كبده محمد ؛ على رأس جند عتيد واشتعلت بين الفريقين نار حرب عنيفة استبسل فيها المدافعون استبسالا سجل لهم صفحة من العزة والفخر .

وكانت الوقائع تترى عنيفة دامية ، منها وقعة الالف فارس الشهيرة سنة ٢٥١ وتفصيلها ان الامير محمداً هاجم المدينة بعنف ، ثم اظهر الارتداد خدعة حربية ، وشركا نصبه للمدافعين عنها فوقعوا فيه وخرجوا من معاقلهم يتتبعون الجند الاسلامي الذى اظهر الانهزام ؛ وكان الكمين الاسلامي يكتنف الطرق ، فباشارة من القيادة انقض المسلمون من مكامنهم على الاعداء المتتبعين فاطبقوا عليهم واسفرت المعركة عن قتل الف فارس من الروم .

وفى سنة ٢٥٤ ، سار محمد بقوته بحراً لمنازلة سرقوسة كما كانت قوته البرية تضيق عليها الخناق ، فالتقى في مياه المدينة بعمارة كبيرة ارسل بها امبراطور الروم نجدة المحصورين ، وكان الاسطول الاسلامي الصقلي قد تعود قهر اسطول الروم حيثما ثقفه ، فاختلطت صواري المسلمين بصواري النصارى والتحمت نيران المعركة البحرية ، فاسفرت عن انهزام الروم ، وتركهم لاغلب سلاحهم ومتاعهم بايدى المسلمين وفرت المراكب السليمة راجعة على اعقابها خاسرة .

وهكذا فت فى عضد الدفاع السرقوسي بحراً كما فت في عضده براً ؛ واصبحت المدينة لا تستطيع الثبات فى الميدان طويلا لكنها صممت على الدفاع الى آخر رمق ، ولم يكتب الله فتحها على يد خفاجة وابنه محمد .

حادثة طبرمين — كانت هذه المدينة من جملة قلاع النصارى التى صعب على المسلمين فتحها بالقوة ، فكانت المناوشات تتوالى حولها ، وكان دفاعها دفاع المستميت جاء الامير محمد ، وصمم على فتحها ، فاصطنع رجلا من اهلها اعماه حب المال والجاه عن حب الوطن والتضحية في سبيله فخان امته واصبح دليلا للمسلمين ، يسير بهم في معابر سرية اوصلتهم الى داخل المدينة والتحمت نيران المعركة هنالك راى المسلمون ان الامير محمدا لم يدخل المدينة ولم يكن الى جانبهم فاعتقدوا انه قد حيل بينه وبين الدخول وانهم اصبحوا مهددين بالحصر فانهزموا ورجعوا

من حيث اتوا ، وكانت الفرقة التي يقودها الامير محمد بنفسه قادمة حينئذ لنجدة الذين دخلوا ، فلما راتهم خارجين اعتقدت انهم غلبوا على امرهم فتوقفت عن السير واثناء ذلك الارتباك ، وقبل ان يعلم الفريقان المسلمان ان في الامر غلطة يسيرة ، كان اهل المدينة قد تخلصوا من المسلمين فاوصدوا ابوابهم واعتصموا باسوارهم ، وخابت المحاولة بعد نجاح .

فتح مالطة — كانت جزيرة مالطة معقلا من معاقل الروم في البحر المتوسط استولوا عليه سنة ٥٣٣ ، واصبحت حلقة وصل بين ممتلكاتهم في الشرق ومطامعهم في الغرب .

والجزيرة تمسح ٢٥٠ كيلو مترا مربعا ، جيدة الهواء خصبة الارض طيبة المناخ واهلها من اصل سامي كنعاني لا ريب فيه ؛ لغتهم منذ القدم عربية محرفة وقد طبعهم الاحتلال القرطاجني الطويل بطابع خاص دام معهم الى يومنا هذا .

فالامير خفاجة رأى انه لا يتمكن من ابعاد الروم نهائيًا عن صقلية وقطع آمالهم منها وقهر سرقوسة الا باخضاع مالطة لسلطانه ، ومالك مالطة منذ قديم الازمان مهيمن على البحر المتوسط باسره .

سار الامير محمد على راس اسطول عتيد وجند عنيد ، فنزل مالطة سنة ٢٥٦(١) (٨٧٠ م) واتم استيلاءه عليها تلك السنة ، بعد ان دحر مقاومة الاسطول الرومي

---

(١) في هذه السنة تولى الامير احمد بن طولون امر مصر ، وطولون كان مملوكا تركستانيا اسر ضمن معركة ، فاعجب به الخليفة المامون ، وجعله من خاصته ورئيس حرسه ؛ وعندما ولي احمد امر مصر وكان اعلم الناس بضعف دولة بني العباس ، وراى حالة مصر من جراء اضطراب الولاة وهرجهم ؛ اعلن استقلاله في البلاد ومنع الخراج عن بني العباس ؛ واستمرت دولته ٣٥ سنة الى ان اعاد العباسيون فتح مصر من جديد ؛ ومن مآثره مسجد ابن طولون العظيم .

ومقاومة الحامية الرومية ، ووجد المسلمون الافارقة الصقليون انفسهم هنالك بين قوم كادوا يكونون من اهلهم وذويهم ؛ واستمر سلطان المسلمين هنالك تابعاً لامارة صقلية ، مائتين وعشرين عاما (٨٧٠ ـ ١٠٩٠) الى ان استخلصها منهم غزاة النرمان عندما دحروا آخر مقاومة اسلامية في جزيرة صقلية .

وفي السنة الموالية ، اى سنة ٢٥٧ ارسل الامبراطور الرومي اسطـولا ضخماً يحاول به استرجاع مالطة ، وقد ادرك ما هي الكارثة التي اصابت الروم بفقدهـا ، فجاء الاسطول الرومي يتباهى بقوته ومنعته ونصب حول الجزيرة حصاراً ، واخذ يستعد لانزال جند يرفع فوق اديمها علم القسطنطينية .

حينئذ جمع الاسطول الاسلامي الصقلي رجاله وسفنه وسار نجـدة الى جزيـرة مالطة ؛ ولقد علم الروم من قبل انهم ما لقوا اسطـول مسلمي صقلية الا وارتـدوا امامه خاسرين ؛ وقد القى ذلك الاسطول الاسلامي الرعب في قلوبهم واصبح منظره يكفى لهزم اعدائه قبل استعمال ناره واسلحته ؛ وهكذا كان ، فانه لم يكد اسطول الروم يرى مراكب المسلمين قادمة نحوه حتى نشر شراعاته واعمل مجـاذيفه ولاذ بالفرار نحو الشرق وصفا حكم مالطة لامراء المسلمين .

محمد بن خفاجة

اثناء هذه المعارك وهذا الفوز المبين كان الامير خفاجة يسير مع جنده واتباعه في طريق سرقوسة فاغتاله غدرا احد الجند ولا ندرى ان كان ذلك نتيجة مؤامرة او عمل انتقام او دسيسة من الاعداء فقضى نحبه رحمه الله بعد ولاية دامت سبعة اعوام كلها عمل وجهاد في سبيل الاسلام والمعرفة والمدنية

اتفق المسلمون يومئذ واجمعوا امرهم على تولية ابنه الامير محمد مكـانه ولقـد كان القائم بأعباء الجهاد الى جانب ابيه وسار وفد الى القيروان يطلـب الى الملك الاغلبي محمد بن احمد المصادقة على تلك الولاية فلبى الطلب واصدر امره باسنـاد

امارة صقلية الى محمد بن خفاجة لانجاز ما كان قائما به من جلائل الاعمال .

وقد اولاه المسلمون امرهم فى رجب سنة ٢٥٥ ووردت أليه الخلعة والعهد من القيروان يوم السبت لست بقين من رمضان من تلك السنة.

وقد كان الامير رحمه الله يوالى استعداده ويجهز المسلمين للقضاء على ما بقي من صقلية بايدى الروم وخاصة مدينة سرقوسة التى كانت مطمح انظاره.

لكن مقتل الامير خفاجة كان قد احدث صدعاً عظيماً في صفوف المسلمين ونشأت عنه ارتباكات عظيمة جعلت جهود الامير متوجهة لاقرار السلم وتمهيد الراحة بدل التوجه بكليته لانجاز الفتح . وما كادت تنقضى سنتان على ولايته حتى اغتاله نهارا ثلاثة من خدمه فى رجب سنة ٢٥٧ . ولقد انفتحت بمقتل الشهيدين خفاجة وابنه محمد ابواب فتنة عمياء اصبحت في الجزيرة داء عياء كان اكبر اسباب انهيارها .

احمد بن عمر يحيى

وهو من رجالات العائلة الاغلبية اولاه الامير ابراهيم بن احمد بن الاغلب امر صقلية وكان اول همه اقرار الامن وارجاع الطمانينة الى النفوس وازالة ما احدثه مقتل الأمير بن محمد وابيه خفاجة من جزع ومن ارتباك

لا ريب ان الامير احمد قد لقي نجاحا كبيرا فى مهمته تلك فلم يسجل التاريخ فى ايامه ارتباكا او اضطرابا ؛ وعاد الى سياسة الغزو والفتح ، جامعاً بذلك كلمة المسلمين حول راية الله .

ذهب فى صائفة تلك السنة غازياً نحو سرقوسة فأثخن فى الروم ، انما لم يستطع فتح المدينة ، ولا نصب الحصار بصفة ضيقة حولها فاكتفى بما غنمه من اطرافها ورجع الى قصر حكمه فى بالرمة .

ثم خرج بنفسه فى غزوة على رأس المسلمين ، فلقي جنداً من فرسان العدو

عند مكان يدعوه ابن الخطيب « قلعة نصر » وكان اولئك الفرسان قد انقضوا في بعض الجهات على المسلمين وغنموا منهم مغانم كثيرة ؛ فالتحم احمد ومن معه في القتال مع الجند المسيحي ، فنكل به تنكيلا ، وانتزع من بين ايديه جميع ما غنمه من المسلمين ورجع الى بالرمة بالاسلاب والغنائم والاسرى ورؤوس القتلى لتعرض على الملا .

ثم جاءه من القيروان ، امر ابراهيم بن احمد بن الاغلب بعزله عن الامارة فاعتزلها ؛ وكان بذلك ابتداء عهد اضطراب جديد لم يكن مصدره صقلية نفسها بل كان مصدره عاصمة الدولة القيروان ؛ اذ كان البلاط الاغلبي يقاسي يومئذ ازمة عنيفة ، وقد تولى عرش الملك ابراهيم الآنف الذكر ، وهو جبار عنيد طاغية شديد كان مصابا بنوع من الهستريا الدموية ، يعيش تحت رحمة ماليخوليا مستمرة ؛ وسيأتيك فيما يلي شيء من اعماله الغريبة ، فلا غرو ان تسربت الى المملكة قاصيها ودانيها عوامل الشقاق والافتراق ، واخذ الصيادون في المياه العكرة يعملون اعمالهم وينصبون حبائلهم ، واصبحت امارة صقلية خلال تلك الايام النحسة كرة تتلقفها الايدي وتتلاعب بها الغايات .

جعفر بن محمد بن برير

ارسله ابراهيم بن الاغلب واليا مكان احمد بن عمر ؛ واستقر به المقام في بالرمة ، واخذ يعيد النظام لبلاد تسربت اليها الفوضى واخذت تعمل بها عوامل الانحلال .

في هاتيك الاثناء ، كان الارتباك كما اسلفنا سائداً في بلاد القيروان وكان ابراهيم الطاغية يقاسي ازمة عنيفة في داخل نفسه وفي بلاطه وبين آله وذويه ، وكانه قد آنس من عائلته ميلا للتخلص منه ، فالقى القبض على عمه الاغلب بن محمد واخيه الاغلب ابن احمد وابن اخيه احمد بن ابي عبدالله ؛ ووجههم الى صقلية

مبعدين فحبسوا فى دار الامارة عند جعفر بن محمد .

كان احمد بن ابي عبدالله اكثر الاغالبة المحبوسين مكراً ودهاء ، واقدمهم على الاندفاع فى طريق المغامرة ، فصانم هو ومن معه من رجال العائلة غلمانا للامير جعفر ، واطمعوهم فى المال والجاه ان هم قتلوه ، فترصدوا له حتى اذا كان خارجا للصلاة وثبوا عليه واسقطوه تحت ضرباتهم الفتاكة ؛ واستولى احمد على كرسي الحكم ، مصطنعاً الرجال متغلبا على الامر .

احمد بن أبي عبد الله الاغلبي

ويلقب فى عائلته باسم « خرج الرعونة » ولقد كان مقداما ، وسجل اسمه على صفحات التاريخ الصقلى ، رغم سفالة الوسيلة التي توصل بها الى الحكم ، وكانت له في الجهاد وانجاز الفتح اعمال باهرة .

فتح سرقوسه — اتم تجهيز الجند الاسلامى ؛ وسار على رأسه نحو مدينة سرقوسة ، وقد عقد العزم على افتكاكها كلفه ذلك ما كلفه ، وكانت سرقوسة بعد ان قاومت جيوش المسلمين نصف قرن ونيف ، قد ضعفت تحت الضربات الفتاكة التى كيلت لها من لدن الامراء السالفين ، وعلى الاخص الامير خفاجة وابنه محمد ، وكان الروم قد وضعوا شرفهم العسكرى بين جدران تلك المدينة ، فكانوا ابوالون ارسال النجدات والمدد وما باءوا بانكسار وانهزم لهم اسطول إلا اعادوا الكرة وارسلوا اسطولا آخر مما يعيد إلى اذهاننا جهود قرطاجنة الجبارة التي ضاعت سدى فى تلك الجزيرة

سار أحمد بن الاغلب بقوته العتيدة فخيم حول المدينة وحاصرها وضيق عليها الخناق . وعلم اهلها ان الساعة الاخيرة قد دنت ، فقاموا للدفاع البائس المستميت يتفانون فى الذود عن مدينة كانت فى انظارهم تمثل الوطن وتمثل الدين وتمثل الذكريات القديمة من عهد ارخميدس وما قبله ؟ ويالله ! ما اروع البطولة وما اجمل

ذكراها أيا كان مصدرها وأنى كان القائمون بها !

استمر الحصار تسعة أشهر من اوائل المحرم الحرام إلى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ (٨٧٨) (١)، ثم دهمها بخيله ورجله ورفع المسلمون عقيرتهم بندائهم الحربي الذى يسمو بهم إلى عالم الأرواح فى الملأ الأعلى : الله أكبر : والتحمت نيران معركة ربما كانت اكبر معارك صقلية وأكثرها هولا : وما انتهت الا بعد ان دكت الأسوار وسقطت القلاع وجندل من الابطال المدافعين ما يزيد عن الأربعة آلاف كميت وركب الباقون البحر مغامرين فراراً من الاسر والذل ، ودخل المسلمون المدينة مهللين مكبرين ؛ قال ابن الخطيب فى اعمال الاعلام : « وأصاب فيها من الغنائم ما لا يوجد فى مدينة من مدن الشرك » .

وبهذا النصر الباهر لم يبق للمسيحيين بصقلية الا الناحية الشرقية في شريط من الارض يمتد من شمال طبرمين الى جنوب قطانية يحتمون فيه وراء جبال الاتنا (جبل النار) ويستمدون فيه الاعانة مما يرد عليهم بحرا من بلاد الروم .

وكانت هنالك مراكز للمقاومة المسيحية بالشمال الغربي من الجزيرة حول مدينتى طرابنة ومرسالا . وقد اهمل المسلمون شأنها ، ولم يعيروها كبير اهمية ،

(١) في هذه السنة ، أستقر الأتراك في بلاد الصين ، وتدخلوا فى شؤونها وتوطد سلطانهم فى كثير من الجهات التى هي إلى يومنا موطن المسلمين الصينيين وذلك أن مغامراً صينياً (هوان تشاو) اعلن الثورة ، وتمكن من اغلب البلاد ، من بكين الى كنطون ، فاستعان امبراطور الصين بخان الترك الإسمينغ فانجده بقوة عتيدة ، مهدت أمر البلاد ، ودحرت الثائر ؛ واستلم الخان التركي، مكافأة له على اعانته للامبراطور ، مقاطعة شان سى . واخذ ابن عمه ، مقاطعة لوثان ونشأت هنالك امارات تركية ، طبعت البلاد بطابعها الى يومنا هذا ؛ حيث المسلمون يمثلون اغلبية البلاد ومنهم بقايا الترك ومن اسلم تبعا لهم من الصينيين .

موجهين اكثر عنايتهم للناحيـة الشرقية . فلما فتحوا سرقوسـة وجهوا أنظارهم نحو الناحية الغربية كما سيمر بك فيما بعد .

اقام احمد بن الاغلب بسرقوسة شهرين ، ثم كتب اليه عمه الاغلب يشـير عليه بتهديمها ، كما امر حسان بن النعمان من قبل بتهديم ما بقى من قرطاجنة ، حتى ينقطع آخر امل للروم بتلك الديار ولا يجدوا معقلا ياويهم ان حاولوا النزول للبر؛ ثم رجع الى البالرمة لكن مقامه لم يطل هنالك اكثر من شهرين ، وما اغنى عنه انتصار سرقوسة شيئا ، فان اهل بالرمة اعني كبار القوم واصحاب الحل والعقد بها راوا من اختلال الادارة على يد احمد وعمه الاغلب ومن معهما ما جعلهم يقبضـون عليهما ، ويرسلون بهما مصفدين الى القيروان ، وماذا كان ينتظرهما هنالك على يد النمر المتعطش للدماء ابراهيم بن الاغلب ، غير السيف والنطع ؟

الحسين بن رباح

اضطرب امر الولاية بصقلية اثر هذه الحوادث اضطرابا غريبا ، فكان ابراهيم بن الاغلب يولي ويعزل حسب اهوائه وشهـواته ، او حسبمـا تمليه عليه مصلحة الدولة ، وكان اهل صقلية منذ مقتل خفاجة ، قد الفوا نوعا من الفوضى ، واصبحوا يريدون التحكم فى الولاة ويريـدون ان يسير اولئك الولاة حسب اهـوائهم واغراضهم ؛ وكان الولاة لا يستطيعون فى الغالب التوفيق بين رغائب اهل صقلية ورغائب بلاط القيروان وتنفيذ آرائهم الخاصة ، فالبعض منهم كان يثور به الصقليون فيرجعونه الى القيروان والبعض الآخر كان يعزله ابراهيم ويرسل غـيره مـكانه ؛ والحق ان بنيان الدولة الاغلبية كان قريبـا الى الانهيار ، وكانت سياسة ابراهيم الثـاني قد اصابت الدولة فى مقاتلهـا ، فاستمر امرهـا يسير الى الضعف والانحلال حتى الموت رغم ما كان يبدو عليها بين حين وآخر من وثبات فى سبيل الحيـاة هي اشبه شيء برجفة المحتضر .

من اجدر هؤلاء الولاة بالذكر ، الحسين بن رباح ، فانه تمكن من جمع الجند وتوحيد الكلمة الى حين ونازل مدينة طبرمين ، رائما بذلك القضاء على الناحية الشرقية الرومية ، فأثخن فى اهل المدينة وقتل البطريق الرومي الذى كان يحكمها ويقود حاميتها .

نكبة بحرية — ولقد سرى داء الانحلال فى سائر الجسم الاسلامي فضعفت النفوس ، وكادت تخبو جمرة الايمان ، وفقد رجال البحر قوتهم الروحية التي كانت اساس انتصارهم ومبعث الرعب في قلوب اعدائهم ؛ وكانت نتيجة ذلك ان مني الاسطول الاسلامي بصقلية بنكبة كانت وحيدة فى بابها .

ذلك ان الحسين بن رباح سير اسطوله غازيا سنة ٢٦٦ ، فنقي اسطولا للروم مؤلفاً من ١٤٠ سفينة ، والتحم القتال شديداً بين الطائفتين ، فتغلب هذه المرة اسطول الروم ؛ وترك المسلمون سفنهم ومتاعهم غنيمة للعدو ، ورجعوا على طريق البر منهزمين الى صقلية .

الحسين بن العباس

جاء واليا سنة ٢٦٧ ؛ ورجع للقيروان معزولا سنة ٢٦٨ ؛ اراد التضييق على الروم المحصورين فى قطانية وطبرمين ؛ ولم ينجح فى ذلك كثيراً ، اذ ان الروم اغتنموا فرصة الانحلال الذى ظهرت آثاره جلية في الادارة الاسلامية فاصبحوا يخرجون من بين جدران قلاعهم سرايا تضيق على المسلمين كثيراً ؛ وتغنم منهم المتاع والاسلاب والاسرى .

لكن همة الحسين بن العباس كانت متوجهة الى تمهيد الامن واصلاح الحالة العامة ، وقد نجح في ذلك خلال السنة التي بقي فيها على رأس الادارة الاسلامية نجاحاً كبيراً .

ابو الحسن محمد بن الفضل

ولي الامر سنة ٢٦٨ ، وكان الامن قد استتب والراحة قد تمهدت بفضل جهود الحسين ابن العباس ؛ فاخذ الوالي الجديد يستعد لدحر قوى الروم التي كانت تعيث في الارض فساداً عندما آنست من المسلمين ضعفا وافتراق كلمة .

اتجه على رأس القوة الاسلامية ، يريد جموع الروم في معقلهم الجديد (قلعة الملك) وكان ذلك المعقل هو الذي يقض مضاجع المسلمين ، ويثخن فيهم حينا بعد حين ، فالتقى الجمعان على مقربة من المعقل ، وكانت طمأنينة الايمان قد رجعت الى نفوس المؤمنين ، فثبتوا امام الاعداء واشتد مراسهم الى ان انتهت المعركة بنصر عظيم ، وخسر الروم ما يزيد عن الثلاثة آلاف من القتلى انتشرت اجدائهم فوق ميدان القتال ثم سار المسلمون نحو (قلعة الملك) فاحتلوها وثبتوا بها الاقدام ، وتركوا بها حامية قوية ، ثم رجعوا لبالرمة تخفق على رؤوسهم اعلام النصر .

ثم في سنة ٢٦٩ سار على راس الجند الاسلامي يريد تحطيم مراكز الروم في الناحية الشرقية ، فالتقى بجند العدو وناوشه القتال ، واخترق في بعض الاوقات صفوفه حتى وصل تحت جدران قطانية ؛ لكن المدينة استعصت عليه ، وكذلك كان امر رمطة فلم ينل منهما منالا واكتفى بما استحوذ عليه من غنائم واسلاب ورجع لبالرمة في ذي الحجة من تلك السنة . وقضى بقية ايامه ساهرا على امور البلاد مدبرا سياسة الملك ، ممعنا في اعمال العمران والرقي المادي الى ان عزل عن الولاية سنة ٢٧١ في ربيع الاول .

سوادة بن محمد بن خفاجة

هو حفيد خفاجة بن سفيان والي صقلية الطيب الذكر وقد ارسل به ابراهيم ابن الاغلب واليا في منتصف شوال سنة ٢٧١ بعدما عزل عنها علي بن ابي الفوارس الذي لم تطل ايامه اكثر من ستة اشهر ، لم يذكر التاريخ عنها خيرا ولا شرا .

عودة الروم — اهم حدث سجله التاريخ فى هذه الايام ،هو عودة الروم بقوة للميدان ،والتحام المعركة الحامية بينهم وبين المسلمين ، كأن الروم قد رأوا من اختلال الادارة في بعض الاحيان ومن تفرق كلمة المسلمين الناشئين عن اضطراب في سياسة البلاط الاغابي نحو صقلية وتوارد الولاة وعزلهم حسب الاهواء والمصالح والاغراض ، راوا فى ذلك ما جعلهم يعتقدون ان الفرصة قد سنحت لاعادة الكرة واستخلاص الجزيرة من يد المسلمين .

ابتدأت هذه الحملة الرومية الجديدة ، بعقد هدنة مع المسلمين كانت فيما اعتقد خدعة حربية ماهرة ؛ وكان المسلمون قد ارتكبوا غلطة فادحة بقبولها ؛ وقد غرهم ان الروم اطلقوا سراح ثلاثمائة اسير من المسلمين فى سبيل ذلك الصلح الموقت ؛ وما كان ذلك الا استعداداً منهم لامر عظيم ؛ فما كانت تنتهى الثلاثة اشهر ، حتى كانوا رتبوا امرهم بعد اختلال وحصنوا مراكزهم بعد ضعف ، وجاءهم المدد العظيم من القسطنطينية تحت امرة البطريق نجفور (Nicefors) فانزل جنده البر ، دون ان يلقى اعتراضا من اسطول المسلمين ؛ وتقدم فى جموع وفيرة العدد كاملة العدة ، فاستخلص من المسلمين مدينة سبرينة Santa Severina ومدينة منتية Amantea واشتد الخوف يومئذ على صقلية ، اذ كانت بنفسها وبمجرد قواها لا تستطيع ان تصمد لزحف الروم ان توالت نجداتهم وباشروا اعمالهم بتلك الصفة .

رأى اهل صقلية ان سوادة بن محمد ليس بالرجل الذى يصلح لادارة الملك والحرب في مثل هاتيك الاوقات العصيبة ، فاعلنوا خلع طاعته وارسلوا به صحبة اخيه واهله الى القيروان سنة ٢٧٣ .

والذى يجب ملاحظته هنا هو ان اهل صقلية كانوا اذا راوا خلع امير انقياداً لمصلحة عامة او اندفاعا مع غرض ، قبضوا عليه وارجعوه صحبة اهله الى القيروان ليصنع به الملك ما شاء وليحاسبه على اعماله ؛ فكان ذلك العمل يدل على مبلغ ما

كان لهم من مهارة وحسن تدبير ، رغم القلاقل ورغم الاضطراب ، وما سفك دم احد الولاة الا نادراً وعلى يد اوغاد من الدهماء .

ابو مالك احمد بن عمر حبشي

هو من احفاد ابراهيم ابن الاغلب الكبير ، مؤسس العائلة ؛ وكان عمدة فى البلاط الاغلبي ؛ ارسل به الملك ابراهيم الثاني عاملا على صقلية ، كأنه قد اعتمد على جاهه وفضله ومكانته ، ليرجع الى النفوس ثقتها ، وليثبت لاهل صقلية مدى اهتمام القيروان بها ، فكانت هذه الولاية اشبه بسفارة منها بامارة .

ولقد نجحت المهمة نجاحا كبيراً ؛ فهدأت الثائرة واطمأنت الافكار ؛ وعاد الامن الى نصابه وانتظر الناس الفرج القريب ، في صورة مدد جسيم يفد من القيروان ويعين المسلمين على قهر شوكة الروم الذين كانوا يستعدون لأمر جسيم .

وكان اهل صقلية قد طلبوا الى الملك ابراهيم ان يولى عليهم ابنه ابا العباس عبد الله لما يعرفون من مهارته فى السياسة وفى الحرب ، وكما املوا على يديه من انقاذ الجزيرة تجاه الخطر الرومى ، وقد اعتقدوا ان الوالد لا يعزل ولده في مدة وجيزة ، ولا يبخل عليه بنجدة او مدد ، فتستقر بذلك امور الادارة ويستقيم بذلك امر الجهاد ، وهكذا كان .

ابو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

ممثل الدولة ونائب الملك

ولقد كانت امارة ابي العباس عبد الله امارة عامة تشرف على امور البلاد ، وتراقب سير الولاة ؛ لاننا ان تصفحنا سائر كتب التاريخ التى اوردت لنا الاحاديث عن صقلية وخاصة ابن الخطيب في اعمال الاعلام وابن الاثير وغيرهما رأينا ان الولاية كانت اثناء تلك المدة مداولة بين ابي العباس محمد بن الفضل

وقد كان عزل سنة (٢٧١)(١) والحسن بن احمد بن نافذ فكان الامير ابو العباس عبد الله يمثل يومئذ ما يمكن ان نسميه باصطلاح اليوم : نائب الملك او المندوب السامي . فالاعمال التي ستراها مبينة اثناء ولاية هذين العاملين كانت تقع مباشرة تحت اشراف الامير ابي العباس عبد الله .

الانتصار البحري — ابتدأ هذا العصر الجديد يظهر آثاره وقد كانت الحاجة ماسة لاظهار القوة امام الروم والقيام بعمل يوقف تيار هجومهم المخيف فاول شيء اتجهت اليه همة نائب الملك هو اعادة النظر في امر الاسطول وتجهيزه من جديد بصفة تجعله قادرا على مقاومة العدو وكسر شوكته ؛ فبذل في سبيل ذلك همة عالية واظهر مراسا شديداً فبدت النتائج الحسنة بعد حين .

ذلك أن الروم ارادوا أن يستثمروا فوزهم السالف فارسلوا نجدة ذات قوة وباس شديد ؛ وكانوا يريدون بها القضاء نهائيا على ملك المسلمين بصقلية .

لكن المسلمين كانوا هذه المرة على غير ما كانوا عليه في المرة السالفة ؛ كانوا مستعدين يقظين متنبهين ؛ فما كادت بوادر الاسطول الرومي تظهر ، وما كادت عملية انزال الجند الى البر تبتدي حتى التحمت فوق اديم الارض وفوق عباب البحر

(١) من اغرب ما وقع لبني العباس اثناء ضعفهم وانحلالهم ان الزنوج هاجموا مدينة البصرة واحتلوها ، ثم تدفقوا على اعمالها ، فامعنوا في الحرق والنهب والسلب وانتهاك الحرمات وسفك الدماء ؛ وقاتلهم العباسيون والجند التركي مدة الى ان تمكنوا من القضاء عليهم في هذه السنة (٢٧٠) وقتل رئيسهم يهودا ؛ وقد كان يدعي انه نبي مرسل ، وكان له منبر يصعد عليه ويمعن في سب عثمان وعلي ومعاوية وطلحة والزبير ؛ فلما قتل وانتهى امر الزنوج ، زينوا بغداد وطافوا برأس يهودا على رمح .

معركة هائلة عنيفة ، لم يكن الروم ينتظرونها ؛ وكانت تلك المعركة بالنسبة للمسلمين معركة فاصلة بين طريقي الموت والحياة ، وكانوا يعلمون علم اليقين انهم ان خسروها فسلام على صقلية وسلام على ملك وعمران وحضارة زاهية بها .

دامت المعركة أياماً وثبت المسلمون ثباتاً مكنهم آخر الامر من الغلبة والفوز وكانت كارثة الروم هائلة فظيعة ، اذ تركوا على اديم الارض ما يزيد عن السبعة الآلاف قتيل ؛ وعندما رأوا مدى الكارثة ، ولاذوا بالفرار الى ما بقي باسطا جناحي شراعاته من مراكبهم ، غرق منهم اثناء تلك العملية نحو الخمسة آلاف فرجعت بقايا الاسطول من حيث اتت ، واضطر الباقون من الروم والمسيحيين لاخلاء مراكزهم المتقدمة وما استولوا عليه من قلاع ومراكز المسلمين اثناء السنوات السالفة وفرح المسلمون يومئذ بنصر الله وقد وقع ذلك سنة ٢٧٥ (١) (٨٨٩م)

قلورية — كان الروم قد تحصنوا في ارض قلورية التي يفصلها عن صقلية مجاز مسينا . وكانوا يريدون بذلك ان يحولوا دون انتشار المسلمين في الجنوب الطلياني وأن يقطعوا الصلة بين مسلمي صقلية ومسلمي ايطاليا ؛ وعلى الاخص كانوا يريدون ان يجعلوا من قلورية مركزا لمهاجمة صقلية ولامداد حاميات طبرمين ورمطة وغيرها

فالمسلمون اغتنموا فرصة انتصارهم العظيم على اسطول الروم وعلى جندهم واغتنموا فرصة الفزع الذى ساد فى اوساط المنهزمين فجمعوا الاسطول والجند وهاجموا قلورية من وراء المجاز فاثبتوا بها اقدامهم ودحروا من تعرض لهم هنالك من الروم وجموع المسيحيين .

---

(١) فى هذه السنة أكمل الامير اسماعيل زعيم بنى سامان الفرس استقلال بلاد ما وراء النهر اذ ابتدأ امره بالتمركز في بخارى وسمرقند ثم اعلن انضمام بلاد خراسان لمملكته ؛ واستمرت الدولة السامانية حاكمة تلك الناحية طيلة القرن العاشر الميلادى (٩٠٠ـ١٠٠٠)

قدم صقلية هاتيك الاثناء محمد ابن الفضل واليا المرة الثانية في الثاني من صفر سنة ٢٧٩ .

وكانت الاعمال مستمرة على التوالي في شبه جزيرة قلورية إلى أن أذعن الروم هنالك لعقد هدنة مداها اربعون شهراً يحتفظ اثناءها كل من الفريقين بما كره على ان يطلق الروم سبيل الف من اسرى المسلمين ، وان يرسل المسلمون بضع رجال بين عرب وبربر بصفة رهائن يقع استبدالهم كل ثلاثة اشهر .

فتنة عمياء — ولي الامارة بعد ابن الفضل سنة ٢٨٤ ؛ الحسن ابن احمد ابن نافذ ، تحت اشراف نائب الملك المذكور حسبما اسلفنا ؛ وكانت هنالك نار تحت الرماد ، وكانت هنالك فتنة نائمة ، فتنة العصبية الجاهلية وذات النعرة العنصرية فلامر ما نسي المسلمون الاخوة الاسلامية ؛ ونسوا عدوا يترقب بهم الدوائر دوائر السوء من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب ومن وراء العدوة ؛ وقد تولى كبر هذه الفتنة جماعة من العرب وجماعة من البربر ، فكانت فتنة لم تصب الذين ظلموا خاصة واظهر سفهاء القوم من العنصرين حمية جاهلية فانغمس المسلمون في حمأة حرب اهلية قاسية ، لم يستطع العقلاء اخماد نارها ، فعم الفساد وساد الاضطراب .

ارسل ابراهيم ابن الاغلب جندا الى ولده ونائبه ابي العباس ، وجمع اليه كما يقول ابن الخطيب ، جياد الرجال واشداءهم فنزل الجند ارض صقلية في جمادى الاخيرة من سنة ٢٨٤ ، وكان قد ارسل اليهم انذاراً مؤداه : انه يؤمن الناس على انفسهم واموالهم وذويهم ان هم جنحوا الى السلم وتركوا امر الفتنة ما عدا الذين تولوا كبر الحرب الاهلية ، وهم الحسن بن يزيد وولداه وعبد الله الحضرمي .

حارب رجال السلطة الثائرين والمفسدين وتغلبوا عليهم وشتتوا شملهم ووضعوا يد العدل فوق اعناق المجرمين ، فاما الحسن بن يزيد فقد شرب سماً ، وكانت بيده لا بيد عمرو ؛ واما الباقون فقد نفذ فيهم امر الله وقطعت رقابهم وساروا من العار

الى النار ؛ ودخل الجند الحكومى مدينة بالرمة بعد اخماد الفتنة فى العاشر من رمضان سنة ٢٨٧ ، وأمن الناس واستتب الهدوء من جديد .

ولقد اراد الروم اغتنام تلك الفرصة ، فجمعوا اسطولهم وقدموا نحو الجزيرة لكن الفتنة الداخلية لم تمنع السهر الخارجي ، اذصمدت فرق من اسطول المسلمين لمراكب الروم فدحرتهم ؛ وغنمت منهم ثلاثين سفينة .

ابراهيم بن الاغلب

قال ابن الخطيب فى اعلام الاعلام :

وفى سنة ٨٩ عظم المرار والوسواس على الامير ابراهيم بن احمد وتخلى لابنه الوالي بصقلية على الامر ، واستفز الناس ودعاهم الى الجهاد ، وفرق الاموال و كان وصوله الى بالرم من صقلية لليلتين من رجب من السنة فرحل الخ .

نعم ـ لقد عظم به المرار والوسواس، او بالاحرى عظمت به النوبات الجنونية التى تسلطت عليه طيلة ايام ملكه ؛ فرأى ان يخوض في بحر من دماء الجهاد ، بعد ان خاض فى بحر من دماء امته وعائلته ورجال دولته ؛ فاظهر الزهد فى الدنيا والاقبال على الآخرة واستدعى من صقلية نائبه بها ، ابنه ابا العباس عبد الله فتنازل له عن عرش القيروان الذى خضبت اركانه بدماء الابرياء ، والذى اخذت تزعزعه عواصف الدعوة الفاطمية ؛ ثم سار ابراهيم ليقضي بقية ايامه مجاهدا فى صقلية وايطاليا ، عسى الله يغفر له ما تقدم من ذنبه ؛ فدخل سوسة فى ثوب مرقع علامة الزهاد ؛ وسار منها على رأس جند قوي ، فنزل بالرمة وباشر هجومه العنيف .

احتلال طبرمين — كانت طبرمين يومئذ امنع مراكز الروم واعز قلاعهم بعد سقوط سرقوسة ؛ وكان الروم يوالون ارسال المدد لها دون انقطاع عساها تكون يوما ما مبعث الموجة المقدسة التي ترجع صقلية تحت حكم الصليب القسطنطيني الرومي .

هاجم ابراهيم المدينة المحصنة بخيله ورجله ، والتحم مع رجال الروم فى معركة هائلة ، دارت رحاها بشدة لاعهد للفريقين بها من قبل ، ورأى المسلمون شدة النصارى فى الدفاع عن مدينتهم ، فاخذت ريح الفشل تهب بين صفوفهم، لكن ابرهيم تغلب على الموقف بحزم نادر ، فجمع جموع المسلمين وقرأ القارئ بين يديه قوله تعالى : هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم؛ يصهر به ما فى بطونهم والجلود؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ؛ ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد » فعادت الثقة الى نفوس المؤمنين وهبت عليهم رياح الجنة فانقضوا على اعدائهم كالصواعق النازلة وانهزم الروم امامهم فاخذوا يتتبعونهم بين وهاد الاودية واعالى الجبال فقتلوا اكثر المدافعين وتفرق الباقون شذر مذر واصبحت مدينة طبرمين مفتحة الابواب دون مدافع فدخلها ابراهيم مع جماعة المسلمين وغنم جميع ما كان الروم قد اعدوه بها من كنوز وسلاح وعدد للقتال

ولقد كان لفتح المسلمين لهذا المعقل المنيع اسوأ وقع في العالم المسيحي اهتزت له البلاد الرومية باسرها واعلن الامبراطور في القسطنطينية الحداد سبعة ايام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك .

فتح رمطة — لم يترك ابراهيم للروم وقتا يرجعون فيه من ذهولهم اثر نكبة طبرمين ، فسار توا يقصد مدينة رمطة ، وهى معقل آخر للروم شرقي الجزيرة ، يقع جنوبي طبرمين ؛ ويتكون منه ومن قطانية آخر ما بقي للروم فى تلك الانحاء

هاجم المسلمون رمطة ، والروم لا يزالون يالمون من ضربة طبرمين ، فلم

يستطيعوا بهذه المدينة ثباتا وانهارت سريعـا ، فدخلها ابراهيم ومن معه وغنموا سائر ما فيها من مال ومتاع .

في ايطاليا — لم يبق يومئذ بصقلية ما يشبع نهم الامير ابراهيم فجمع جموعه القوية ؛ وركب البحر مجتازا الى ارض قلورية ؛ وكان يقصد يومئذ الصعود منها الى الارض الطليانية ، ومنازلة دولة نـابولي ؛ فاخترق بجموعه شبه الجزيرة القلورية ؛ ووصل فى شمالها الى الحد الذي يفصل بينها وبين ممتلكات نابولي ؛ وكانت هنالك قلعة كسنتة Cosenza المنيعة فخيم حولها ونصب عليها الحصار ؛ وامعن في التضييق عليها .

اشتد به المرض يومئذ ، فاسلم روحه لخالقها ؛ يوم السبت ١٨ من ذى القعدة سنة ٢٨٩ (اكتوبر ٩٠٢)

لم يعلم اهل كسنته بموت الامير ؛ فارسلوا وقد ضاق عليهم الخناق يطلبـون الامان والتسليم ، فامنوا ؛ وقبل استسلامهم ، ونقلت جثة الامير ابراهيم الى بالرمة فدفن هنالك وبني على قبره قصر .

سيرة ابراهيم بن الاغلب — ولي ابراهيم ملك القيروان ، وهو لا يبلغ من العمر الا ١٤ عاما ؛ ومات مجاهداً في ايطاليا وسنه ٤٢ سنة ، فكانت مدة ولايته ٢٨ سنة ، ارتكب اثناءها من الفظائع والآثام ما قضى به على الملك الاغلبي وكان اعظم ممهد للسبيل في وجه الدعوة الفاطمية الناشئة .

ارى ، وقد ازفت الساعة التى ستنهار فيها الدولة الاغلبية ويتغير وجه الخريطة السياسية فى الشمال الافريقي وفى صقلية ؛ ان انقل الك صفحة عن سيرة هـذا الملك الطاغية الجبار حتى يتبين لك كيف يمحو الظلم آثار الـدول وكيف تعمى القلوب التي فى الصدور ، فلسير مع اغراضها وشهواتها غير حاسبة حسابا لمـا يحـدق بهـا من الاخطار .

قال ابن الاثير عن هذا الامير ، ولعله يصفه بذلك عندما ابتدأ ممارسة الحكم غلاما او عندما تاب توبة الافلاس قبيل موته : وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير والاحسان ، تصدق بجميع ما يملك ووقف املاكه جميعها وكانت له فطنة عظيمة باظهار العملات »

هذه الصورة غالطة لا تمثل لك شيئا من ابراهيم الجبار الذى كان السبب الاصلي في انهيار الملك الاغلبي ؛ اما ما اتفق عليه المؤرخون في شأنه فقد لخصه تلخيصا بليغا مؤرخنا التونسي العظيم احمد بن ابي الضياف ، مستمدا معلوماته من اعمال الاعلام لابن الخطيب ومن غيره ؛ واليك ما يقوله ابن ابي الضياف :

« وكان ابراهيم هذا قد ابتدأ امره بحسن السيرة وسلوك ما يحمد اثره ، ثم انقلب الى ضد ما كان عليه وانسلخ من الخلال الحميدة شأن الدول قبيل الانقراض فساءت ظنونه وتغيرت اخلاقه وفسد فكره واسرف في القتل ؛ وفى سنة ٢٦٨ فتك باهل الزاب فقتلهم وقتل اطفالهم والحقهم فى الحفر ؛ وفى سنة ٢٧٧ قتل حاجبه نصر بن الصمصامة بعد ان ضربه خمسمائة سوط فما تحرك ولا نطق بكلمة ثم امر بضرب عنقه ، فقال الحاجب لمن حوله : لا تظنوا انى افزع من الموت ووعدهم انه يفتح كفه ويضمها ثلاث مرات بعد ضرب عنقه ؛ ففعل . الخ

«وفيها قتل من اهل افريقيا عددا مستكثرا منهم القاضى عبد الله بن احمد بن طالب بن سفيان عزله وحبسه ثم سمه ومنهم اسحاق بن عمران المحتسب قتله وصلبه ومنهم حاجبه فتح ضرب بالسياط حتى مات ومنهم فتيانه من الصقالبة وسبب ذلك انه كان له اذن صاغية لاقوال المنجمين والمتخرصين على الغيب وكانوا يقولون له انه يقتله رجل ناقص وانه يمكن ان يكون فتى فكان اذا رأى احدا من فتيانه فيه نشاط وحدة يتقلد سيفا قال هذا صاحبي فيقتله ولما قتل منهم جماعة خافهم وافضى به ذلك لقتل جميعهم ، واستخدم عوضهم فتيان السودان ثم عرض له منهم

ما عرض للفتيان الصقالبة فقتلهم اجمعين ؛ وقتل ابنه المكنى بابي الاغلب وضربت عنقه بين يديه وسبب ذلك انه نمي اليه ان محمد المنجم قال لأبنه انه يلي الملك ، ثم امر باحضار المنجم فقتله وقتل اخوته و كانوا ثمانية ، ومن هناته انه افتقد منديلا كان يمسح به فمه ، وقد سقط من يد بعض جواريه فالفاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ؛ ومنها انه كان يقتل بناته ، فكانت امه اذا ولدت له بنت من احدى جواريه اخفتها وربتها حتى اجتمع عندها منهن ستة عشر جويرية فقالت له يوما وقد رأت منه رقة : يا سيدي قد ربيت لك وصائف قال نعم ؛ قالت اتراهن فقال نعم ؛ فزينتهن وادخلتهن اليه فاستحسنهن ؛ فقالت له هذه بنتك من فلانة وهذه بنتك من فلانة حتى اتت على آخرهن ، فلما خرج قال لخادم له اسود كان سيافاً يقال له ميمون : امض وجئني آلان برؤوسهن فتوقف استعظاماً لذلك ؛ فقال له امض ويلك والا قدمتك قبلهن ، ولما دخل على امه كبر ذلك عليها فقالت له راجعه ؛ فقال لها لا سبيل لذلك ، ووقفن على ما يراد بهن فصحن بالبكاء وقلن للسياف ياسيدى وما الذى اذنبنا اما ترحمنا فلم يغن ذلك شيئاً ، فقطع رؤوسهن ، ينظر بعضهن إلى بعض وجاء إليه بها معلقة بشعورهن ، فوضعها بين يديه (١) . قال لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام عندما ذكر هذه القصة الفظيعة ما نصه : فات اللهم لا ترحمه ، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذى لا يتعقبه رضاك ولا تمنحه رحمتك ، اه . وكان من كتابه الأديب البارع العالم احمد القديدى ، فقربه وجعل اليه اموره كلها ، ثم سخط عليه فسجنه فخاطبه من محبسه برسالة بديعة تلين القلوب القاسية (هنا ذكر ابن ابى الضياف

---

(١) من المحتمل ان تكون الدعاية العبيدية الفاطمية قد بالغت فى وصف فظائع ابن الاغلب ، واعتمدت على الاصل فاضافت لها اساطير لتسود نهائيا صفحته ، ولتتمكن من القضاء المبرم على دولته .

نصها ، وهي طويلة ، لاموجب لذكرها ، وان كانت من آيات الفن ، ختمها بقوله :

هبني اسأت فاين العفو والكرم قد قادني نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الايدي اليه اما ترثي لمن قد بكاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فوقع بجهله وطغيانه محتما · ان الملوك اذا ما استرحموا قتلوا . ووضعه في تابوت حتى مات جوعا وعطشا ·

« وبقي ابراهيم في تونس يبدد شيعته وانصاره بالقتل ، وثار الداعي الى الدولة العلوية العبيدية تاكل اطراف مملكته . وكان قد اتخذ جند بلزمة (١) ، واصطفى من ابطالهم سبعمائة رجل ، واعتضد بهم في حراسته ؛ ثم بعث اليهم ابنه في جند وقتلهم بتمامهم · وكان ذلك اقوى الاسباب في انقراض دولة بني الاغلب ، وذلك ان اهل بلزمة من العرب من ابناء المغرب ، والجند الداخلين الى افريقيا عند افتتاحها ، واكثرهم من قيس ؛ وكانوا شجى في حلق كتامة من البربر القائمين بالدعوة العبيدية ، فلما قتلوا استطالت كتامة ووجدت السبيل الى حل عرى دولة بني الاغلب ؛ ومن اتبع هواه ، اعطى عدوه مناه ، وسوء الراى اشد المحاربين ·

« وثار على ابراهيم اهل تونس والجزائر والاربص وباجة وقمودة ، وقدموا على انفسهم رجلا من الجند ؛ فانتقل ابراهيم الى رقادة وحصنها ؛ والجرأة على سفك الدم، انذار بزوال الملك » انتهى ما نقلناه عن ابن ابي الضياف رحمه الله وارضاه

الدعوة الشيعية — في هاتيك الاثناء ، والدولة الاغلبية تسبح في بحر من الدماء قدم من المشرق ، داعي الشيعة الاسماعيلية ابو عبد الله الحسين بن احمد ونزل بفرجيوة من ارض كتامة ؛ واخذ ينشر الدعوة للمهدي المنتظر من ابناء فاطمة البتول ويبشر الناس بقرب ظهور المهدى الذى يملا الارض عدلا بعد ما

(١) قرية على ٢٧ كيلو مترا في الشمال الغربي من مدينة باتنة .

ملئت جورا ؛ فالتفت حوله كتامة المتعطشة للحكم الفائقة على الدول الهرمة التي كانت تقتسم يومئذ ارض الشمال الافريقي : دولة الاغالبة في الشرق ودولة الرستميين في الوسط ودولة بني ادريس في الغرب ؛ واخذ يدعو جهارا لعبيد الله المهدي ؛ ويجمع الناس حول مذهب الشيعة الاسماعيلية العلوية ؛ فلقيت هذه الدعوة نجاحا يفوق حد التصور كأن البلاد كانت تنتظر الحكم الحقيقي الذي يوحد صفوفها ويجمع كلمتها ويرفع فوقها لواء العدل والحكم النزيه وخاصة ان الدعوة لآل علي وابناء فاطمة كانت تصادف هوى في النفوس وكان الناس يأملون على يد احفاد محمد صلى الله عليه وسلم اصلاح الحال ورفع المظالم واعلاء كلمة الله .

قال مؤرخنا الكبير احمد بن ابي الضياف في شان الشيعة الفاطمية : ولا يظن في القوم أنهم من الغلاة المدحوض غلوهم عند ائمة الشيعة ، كما لا يظن بهم انهم ممن يكفر الصحابة رضي الله عنهم ؛ وقصارى امرهم تفضيل علي على الشيخين مع اعتقادهم صحة امامتهما عند جدهم سيدنا علي ؛ حيث قبل جارية من سبي عمر وهي الحنفية واولدها ابنه محمد ، ويستندون في هذا التفضيل الى احاديث لم يوافقهم على المراد بها اكثر اهل العلم ، ولهم نزغات يستندون فيها الى ما يؤثر على بعض اهل البيت وانكار العلماء عليهم من حيث البدعة ؛ واهل افريقيا يدينون بحب علي وآله يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم ، جبلة في طباعهم حتى ان نسوانهم عند طلق الولادة ينادون : يا محمد يا علي . الى ان يقول : وقوة المحبة لآل البيت مع الاعتراف بالفضل والمحبة لغيرهم ليس من الرفض في شيء ، والله يقول : « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » ولا يخلو مسلم من هذا الحب ، ورحم الله الشافعي اذ يقول :

ان كان رفض حب آل محمد   فليشهد الثقلان اني رافضي

كان عبيد الله المهدي قد وقع بين يدي الاغالبة فسجن ، وكان عبدالله بن

الحسن الصنعاني بجمع الجموع ويجيش الجيوش ويستولى على اطراف البلاد معتمداً على سواعد كتامة وحرابهم الشديدة ، فدانت له البلاد دون مقاومة تذكر ، حتى وقف وراءه مئات من الالوف ، يستعد للوثبة النهائية وتحطيم دولة الاغالبة التي حطمها ابراهيم الآنف الذكر قبل ان يحطمها اعداؤه :

انهيار الدولة الاغلبية — خلف ابراهيم السفاح ابنه الذى كان كما اسلفنا يمثله فى صقلية ، فكان شهما عالي الهمة سديد النظر اراد اصلاح الحالة ورتق ما امعن ابوه في فتقه ولقد كاد ينجح وكادت الحالة تستقيم لولا ان القضاء قد حم ، وآذنت ساعة الزوال على يد شقي كتب الله عليه ان يكون هو النقطة السوداء التي تختم صفحة ناصعة ؟ ذلك هو زيادة الله الحقير .

استولى ابو العباس عبد الله ملك القيروان ، فارسل بابنه هذا زيادة الله ليمثله فى صقلية ، وليقوم على امر الجهاد والادارة فيها ؟ فما كانت ايامه هنالك سوى الاضطراب والخراب ، وقد وصلت دعوة الشيعة هاتيك الاصقاع ، واشرأبت لها الكثير من النفوس ، واخذ الناس يتفرقون شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون . أما زيادة الله الخبيث ، فقد قابل كل ذلك بمجالس لهو وخلاعة وشراب ، كان يعقدها بقصره فى بلرمة ، الى ان بلغ الارتباك درجة اضطرت ملك القيروان لاستقدام ابنه المفسد من صقلية ، فالقاه مسجوناً مقيداً داخل داره .

اخذ هذا الشقي يستميل خدام ابيه اليه ، فتواطأ مع غلامين منهما ، ترصدا لابيه حتى نام ، وهما على حراسته فاحتزا رأسه وذهبا به داميا فرميا به بين يدى الابن النذل وفكا قيوده فنادى بنفسه ملكا وأخذ البيعة العامة فى شعبان سنة ٢٩٠ وبادر بالغلامين قاتلى ابيه فمثل بهما وقتلهما شر قتلة دفعا لتهمة التواطي، معهما على ذلك .

وقد رأى ان الخرق الفاطمي قد اتسع على الراقع وعلم ان لا قبل له بدفع تلك

الكارثة الا باعتماد على الخليفة العباسي المكتفي بالله عله يرسل له جندا يعينه على دحر قوى الصنعاني المخيمة على اطراف المملكة ٠ فارسل للخليفة هدية فيها نفائس كثيرة منها عشرة آلاف دينار زنة الواحد منها عشرة مثاقيل وقد كتب على وجهها:

يا سائراً نحو الخليفة قل له ان قد كفاك الله امرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيـ ف الله من دون الخليفة سله
ما ينبري لك بالشقاق منافق الا استباح حريمه واذله
من لا يرى لك طاعة فالله قد اعماه عن سبل الهوى واضله

ولو انه جهز بذلك الذهب الغزير جنداً ، واصطنع به رجالا لكان ذلك اجدى للملكه وانفع لأن انتصابه مدافعا عن خلافة العباسيين دون دعوة الفاطميين لم تجده نفعاً ، فان عبدالله الصنعاني قد وثبت وثبته النهائية فكانت معركة الاربص الهائلة التي تفرق فيها جيش الاغالبة بعد ان مات اكثرهم وذلك سنة ٢٩٠ فجمع زيادة لله ، او نقصان الله ما استطاع جمعه من مال ومتاع ؛ وشد رحاله الى المشرق تاركا ملك الاغالب يبكي من بناه ، فاقام بمصر ينتظر مدد الخليفة وينتظر تنفيذ عامل مصر اوامر الخليفة ولم تكن حالة مصر يومئذ ازهى ولا ازهر من حالة افريقيا فبعد ايام قضاها زيادة الله في القدس الشريف يلهو ويلعب ويعبث ويطرب قبض الله روحه الشقية بالرملة سنة ٣٠٣ (١)

(١) كانت الحرب حامية الوطيس في بلاد الاندلس بين الملك اردونيو ؛ الذى جمع شتات البلاد المسيحية هنالك وتصدى لحرب المسلمين وبين الخليفة عبد الرحمان الثالث ؛ فاندحر عبد الرحمان اول الامر ثم اعاد الكرة فانتصر واحتل طليطلة ثم انكسر ثانيا سنة ٣٠٦ وعقد هدنة لثلاثة اعوام ؛ فلما انقضى اجلها وكان قد جمع جنداً عتيداً هاجم المملكة الاسبانية فشتت شملها ودحر جندها واستولى على بلادها واندفع وراء جبال البيرنات في فرنسا .

وهكذا انهارت دولة بني الاغلب العتيدة التي كانت من اغرب ممالك المسلمين واكثرها مدنية ونظاما واحسنها جهاداً وامعنها عمراناً .

قال فيكتور بيكي في كتابه الآنف الذكر : مدنيات الشمال الافريقي « لولا ان الاغالبة جمعوا الى جانب خلالهم العسكرية الانهماك في الملذات والشهوات لاستطاعوا ان يمدوا في اجل تفوق العنصر العربي بهذه الديار ؛ لكنهم سقطوا تحت عنف الضربات البربرية الواردة من ناحية المغرب ، وكان بسقوط الاغالبة سقوط النفوذ العربي ، وانهيار السنة تحت موجة الشيعة الظافرة . »

العبيديون بالقيروان — دخل ابو عبد الله الصنعاني مدينة القيروان ظافرا منصورا وكان عبيد الله سجينا مع ابنه ابي القاسم في مدينة سجلماسة عند اميرها فخرج علماء المدينة واهل العقد والحل فيها للقاء الصنعاني وهنؤوه بالنصر والفوز وسألوه لمن يخطبون في صلاة الجمعة فلم يعين لهم احدا لانه لم يكن يعلم مآل عبيد الله انما امرهم بالدعاء لمن نصر الدين . واعلن ابوعبد الله الامان العام للناس في اموالهم واعراضهم وحرياتهم وصادر اموال زيادة الله الاغلبي الهارب وحفظ سلاحه وجواريه ثم نقش على النقود من وجهها الايمن بلغت حجة الله ومن وجهها الآخر تفرق اعداء الله ونقش على الاسلحة عدة في سبيل الله ووسم الخيل الملك لله .

ثم استخلف اخاه على القيروان ونهض في وثبة جريئة الى سجلماسة بالمغرب الاقصى فاخرج من السجن الشريف عبيدالله وجاء به مبجلا مكرما وهو يمشي بين يديه حتى ادخله القيروان ثم سار به الى قرية رقادة التي كانت يومئذ (فرساي) تونس وفيها قصر الملك الاغلبي الذي كان آية من ايات الفن والجمال وهنالك في ربيع سنة ٢٩٧ بايعه العلماء والفقهاء وخاصة الناس وعامتهم وكان عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق يبلغ من العمر ٣٧ سنة مهيب الطلعة عالما شجاعا كأنه خلق ليكون رأس دولة وزعيم ملك ، وكل ميسر لما خلق له .

تأسيس المهدية — لم يطب المقام لعبيد الله المهدي بقصر رقادة ووجد ان القيروان البعيدة عن البحر لا تصلح عاصمة لدولة وضعت بالمغرب اقدامها الثابتة ، ورمت الى المشرق بانظارها الطامعة ، وقد رأت من اختلال امر الدولة العباسية ومن وهن امرائها بمصر الذين يطيعونها اسماً ويستبدون بالامر فعلا ، ما جعلها تستعد وتمعن في الاستعداد للوثوب على تلك الاصقاع محاولة جمع كلمة العالم الاسلامي من جديد تحت لواء الدعوة لآل البيت من بني فاطمة ؛ كما حاول من قبل تلك المحاولة الذين تولوا كبر تحطيم الدولة الاموية ، جمع الامة تحت لواء الدعوة لآل البيت من بني العباس .

طاف المهدي بنفسه على رأس حاشية مختارة ، سائر السواحل الشرقية التونسية من قرطاجنة الى الجنوب ، فاختار الموقع البديع في الساحل الذي امر بان تبنى فيه المدينة الجديدة التي تحمل الى الابد اسمه « المهدية » فابتدأ البناؤون في العمل سنة ٣٠٠ (١) وانتهوا منه سنة ٣٠٨ ، فانتقل اليها برجاله وامواله وجنوده وسكنها معه اصحاب الدولة واعيان القوم ، فاصبحت مدينة من ازهى وازهر مدن المسلمين .

محمد السرقوسي

بعد هذه البسطة الوجيزة عن انهيار الدولة الاغلبية وقيام الدولة الفاطمية ، وسنرى آثار هذا الانقلاب العظيم في جزيرة صقلية ؛ نعود الآن لحوادث الجزيرة اثناء هذا العهد المضطرب .

---

(١) في هذه السنة تولى الخلافة ببلاد الاندلس عبد الرحمان الناصر ، وهو اول من لقب بالخليفة هنالك ، واندفع في ميدان الانشاء والتكوين ؛ فاختط مدينة « الزهراء » البديعة واتخذها دار ملكه ؛ وانشأ في قرطبة وغيرها عدداً جسيما من الابنية والقصور والبساتين ودور الصناعة ؛ واصبحت في ايامه قرطبة كعبة العالم يقصدها طلاب العلم من كل صقع .

بعد موت ابراهيم بن الاغاب المجنون ، محاصراً مدينة كسنته ، استولى ابنه وممثله بصقلية ، ابو العباس ملك القيروان ؛ فارسل ابنه زيادة الله ممثلا له بالجزيرة فخلا الى اللهو والطرب والشراب حتى استقدمه ابوه وحبسه وكان من امره ما رأيت فى الصفحات السالفة اذ قتل اباه وانتصب في القيروان ملكا ، كتب الله عليه ان يسجل التاريخ له انهيار دولة بنى الاغلب على يديه .

كان محمد السرقوسي ابرز ولاة هذا العهد المضطرب ، وقد حاول ، ونجح فى بعض الاحيان تسكين الثائرة وتهدئة الخواطر وجمع الكلمة ريثما تسفر حالة افريقيا عن امر ؛ وتوفاه الله اليه سنة ٢٩٠ .

علي بن محمد بن ابى الفوارس

واحمد بن ابي الحسين بن رباح

اولى الناس امرهم علي بن محمد ودانوا بطاعته ، ورجوا أن يتمكن من انجاز عمل محمد السرقوسي فى تمهيد الامن وجمع الكلمة ، وراسلوا امير القيروان زيادة الله في ذلك فامتنع من المصادقة وارسل من قبله واليا على صقلية الامير احمد بن ابي الحسين فما قبله اهل الجزيرة الاعلى مضض ، وان كان قد عمل اثناء ولايته على حفظ الجزيرة وصيانتها ضد كل اعتداء من الخارج وضد محاولات الفوضى من الداخل .

عندما بلغ اهل صقلية نبأ انهيار دولة بنى الاغلب وفرار زيادة الله آخر ملوكها ؛ ثاروا بالامير احمد بن ابي الحسين فحبسوه واعادوا للولاية علي بن محمد وذلك يوم ١٠ رجب ٢٩٦ (٩٠٨) وراسلوا ابا عبدالله الصنعاني داعية المهدي يطلبون اليه المصادقة على الوالي الجديد ويعلنون الانضمام للدعوة الفاطمية والقيام بامرها ، فصادق ابو عبدالله على ذلك وراسل الامير الجديد يقره على عمله ويوصيه بالتقوى والجهاد والثبات فى سبيل الله . لكن ايام هذا الوالي لم تدم طويلا ، اذ

ان العبيدين ما صادقوا على توليته الا بصفة مؤقتة ريثما يستتب لهم الامر وتدين لهم سائر البلاد بالطاعة والانقياد ، فعندما تم لهم ذلك استقدموا احمد بن ابي الحسين وامروه بان يستقر في رقادة ولا يبرحها ، وارسلوا من قبلهم اول ولاتهم نحو الجزيرة وهو الحسن بن احمد .

فتكون ايام الحكم الاغلبي بجزيرة صقلية ؛ منذ افتتاحها على يد اسد بن الفرات سنة ٢١٢ ، الى يوم اعلنت الجزيرة اعتناقها دعوة الفواطم سنة ٢٩٦ ؛ ٨٤ سنة ، مضت كلها في جهاد شريف ونضال عنيف وتمهدت فيها سبل الامن واستقرت الراحة فى المدن والقرى ، ولم يكن الاضطراب الذى ساد آخر الايام مانعا الناس عامتهم وخاصتهم من انجاز اعمالهم العمرانية التمدينية ، فكان الخلاف حول الحكم والولاية يكاد يكون خاصاً ببعض الطبقات ؛ اما بقية الناس فكانت دائبة على اشغالها قصاراها من امور الدولة انها تجد دائما القاضي النزيه الذى يفض مايقع بين الناس من مشاكل وتدفع زكواتها بنظام لممثل السلطة مهما كان اسم متولى الامر .



« قلعة فيمي » نموذج من القرية الصقلية الجبلية

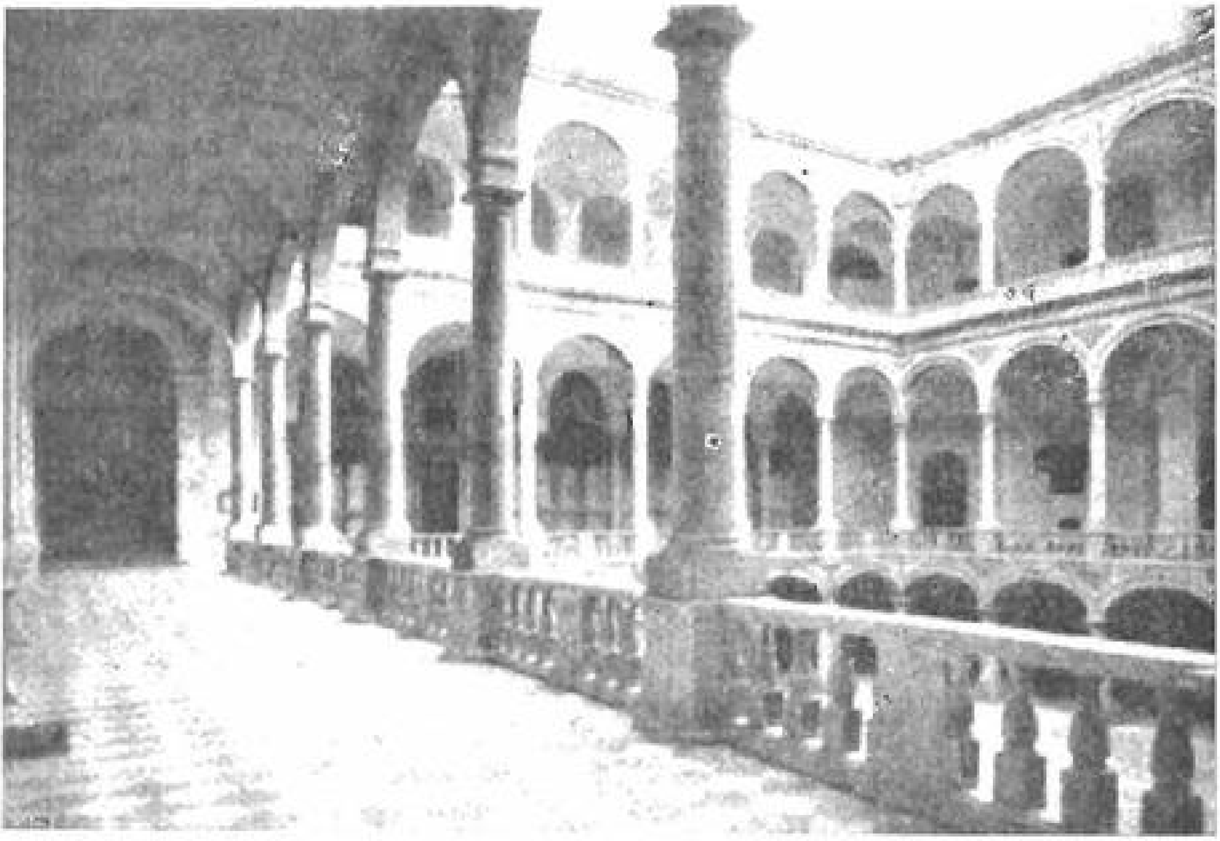




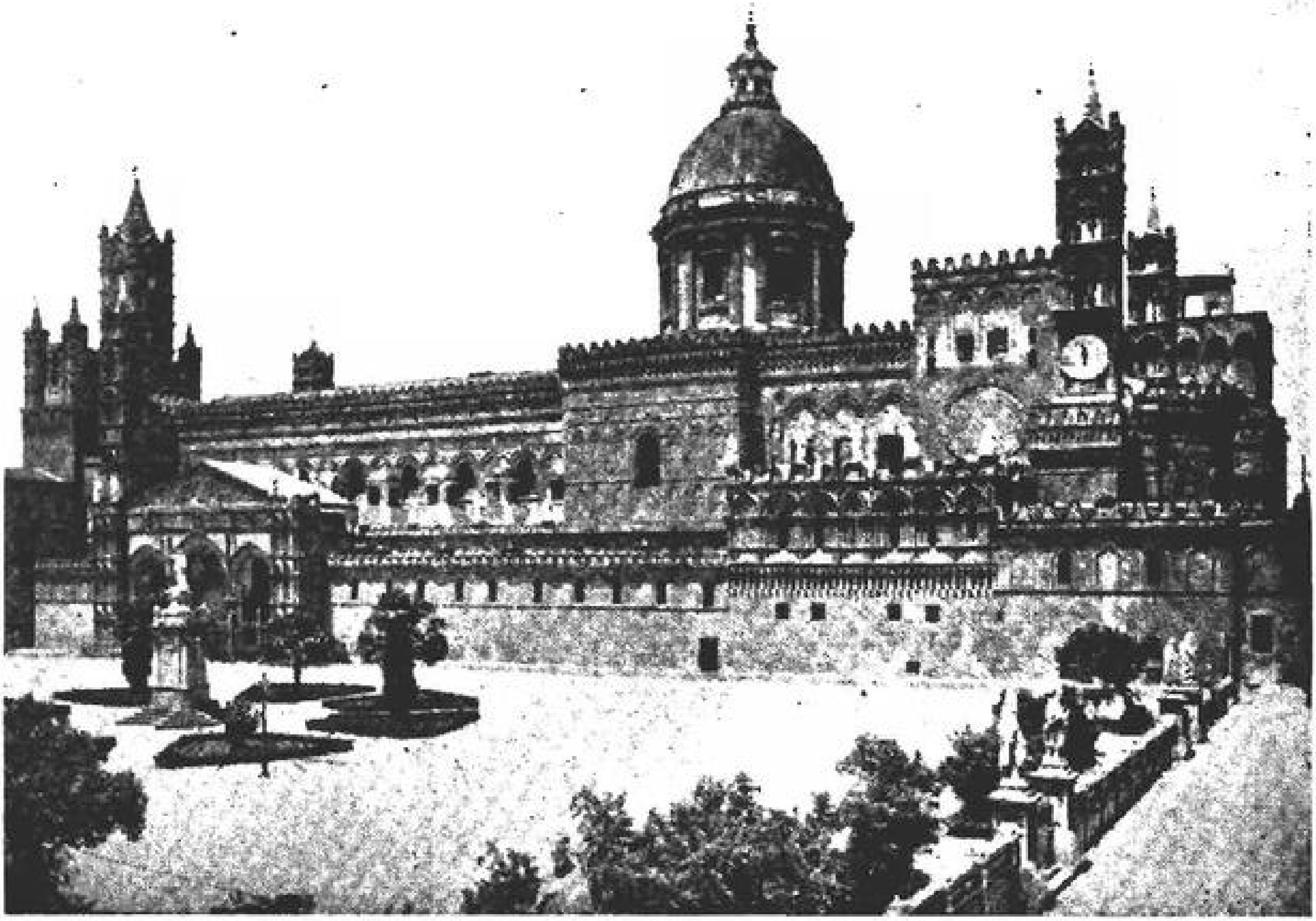
صقليون من سكان السهول والجبال



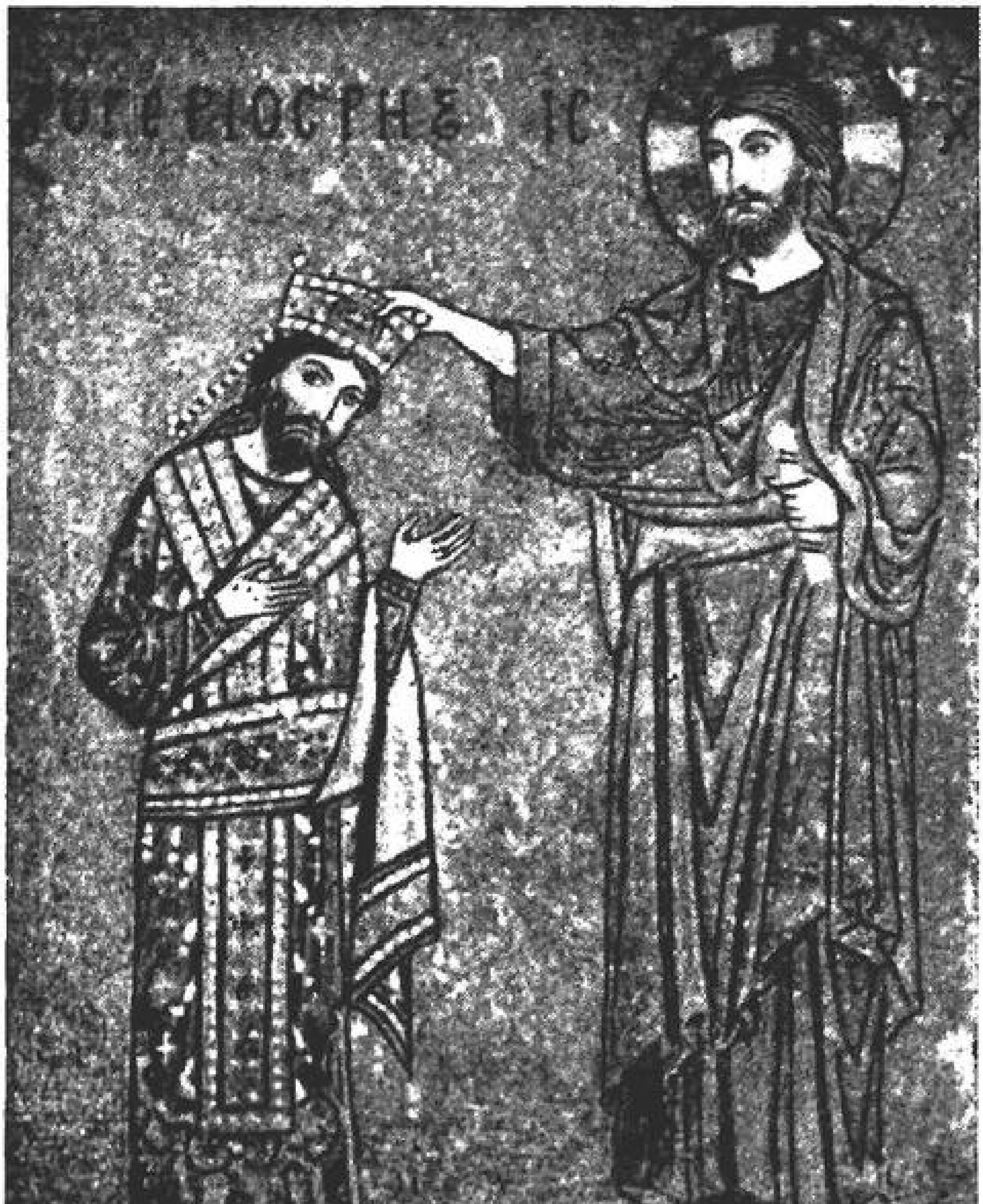
القصر الملكي بالرمة من الخارج



القصر الملكي بالرمة من الداخل

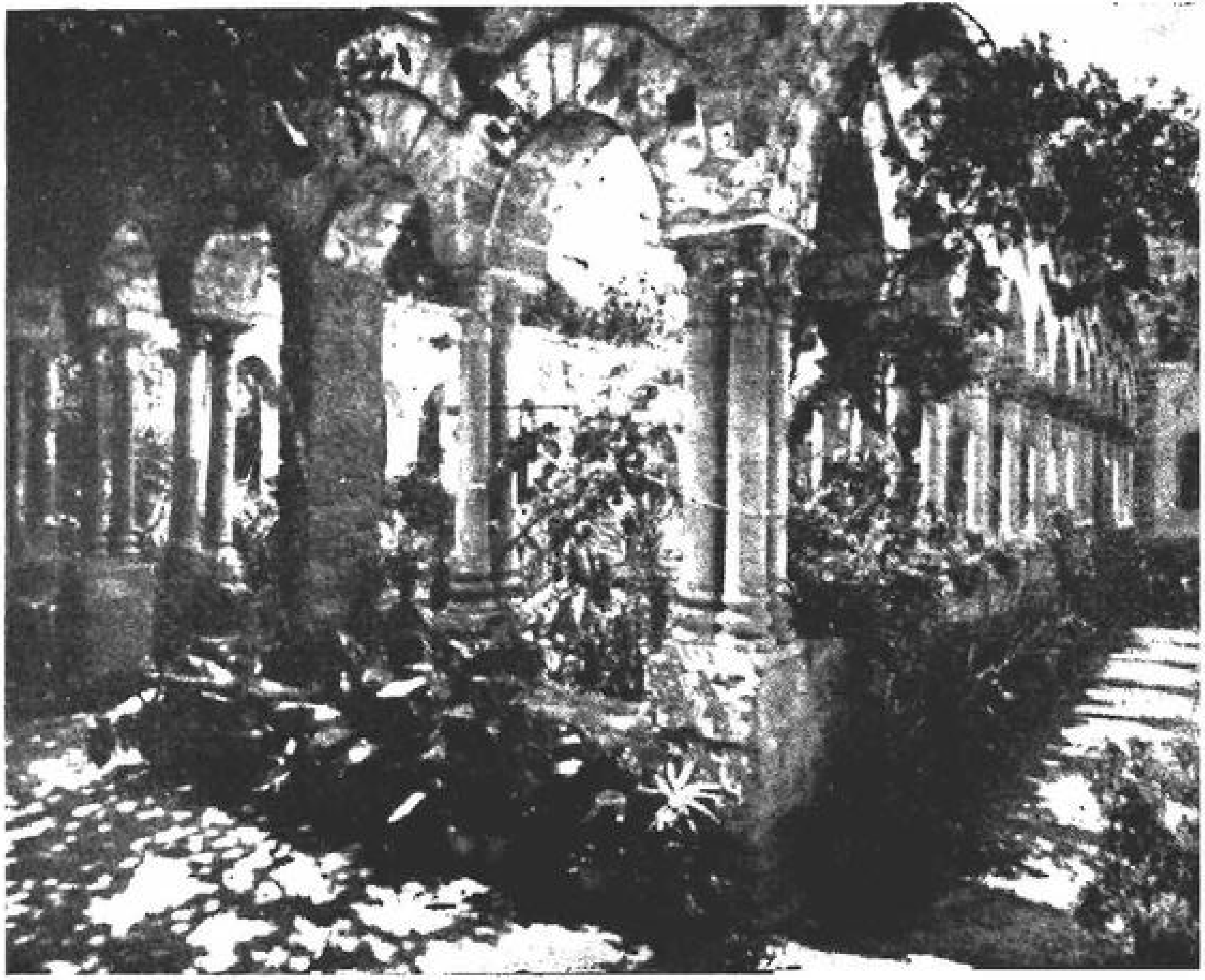


كاتدرائية بالرمة . بنى المسلمون قسمها الشرقي والاوسط

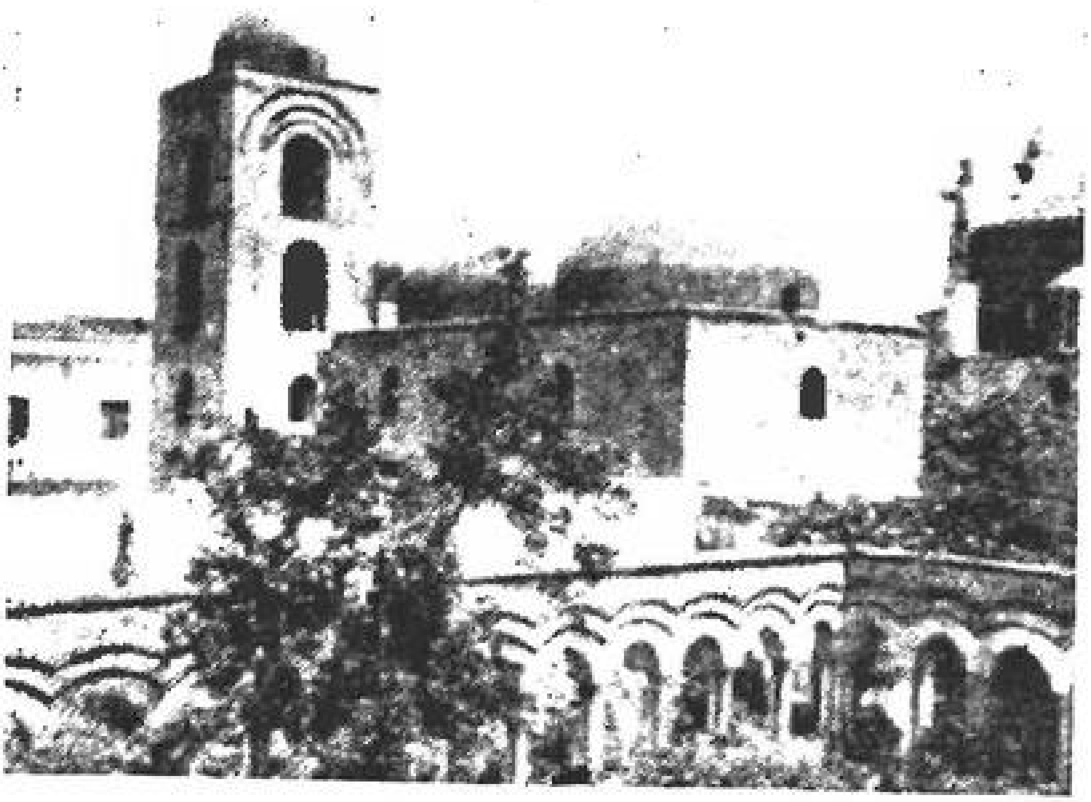


الملك رجار الثاني

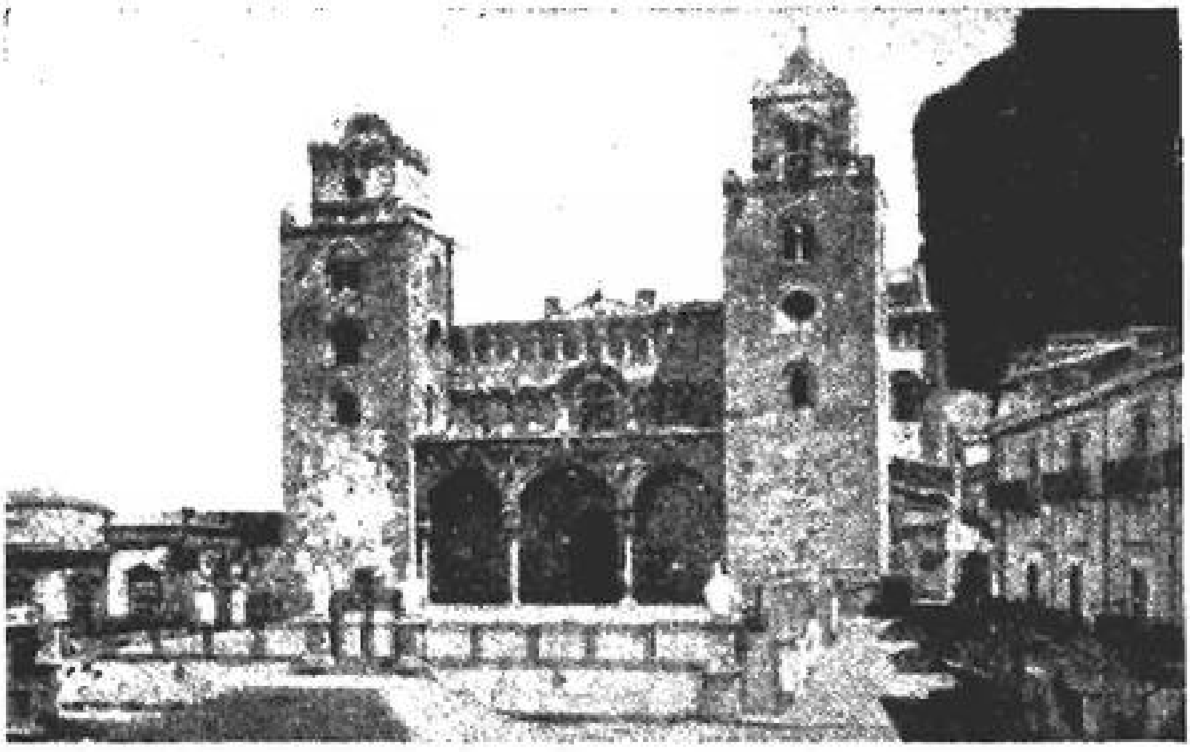
فسيفساء تمثله واحد القديسين يضع على رأسه تاج الملك



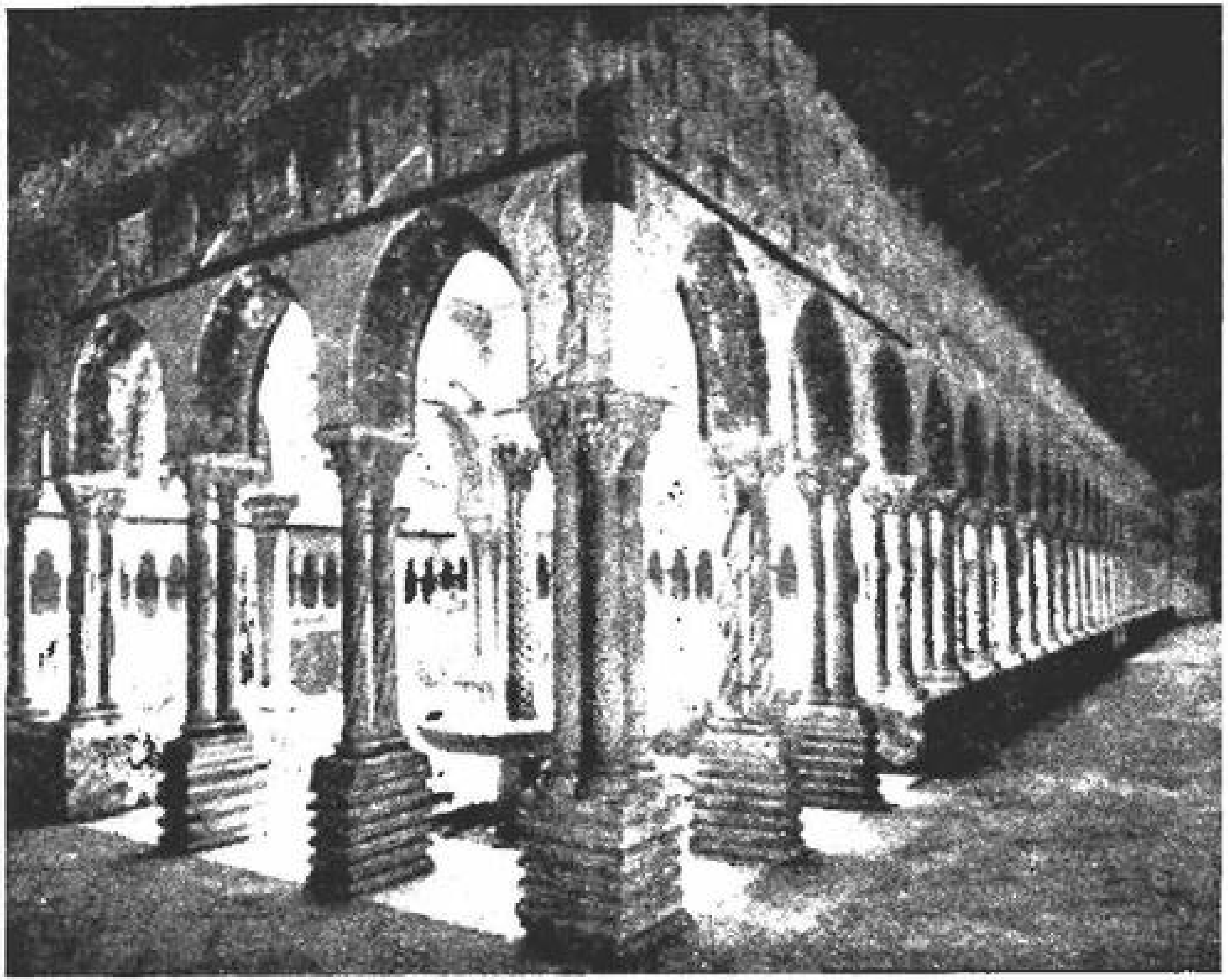
دير القديس يوحنا



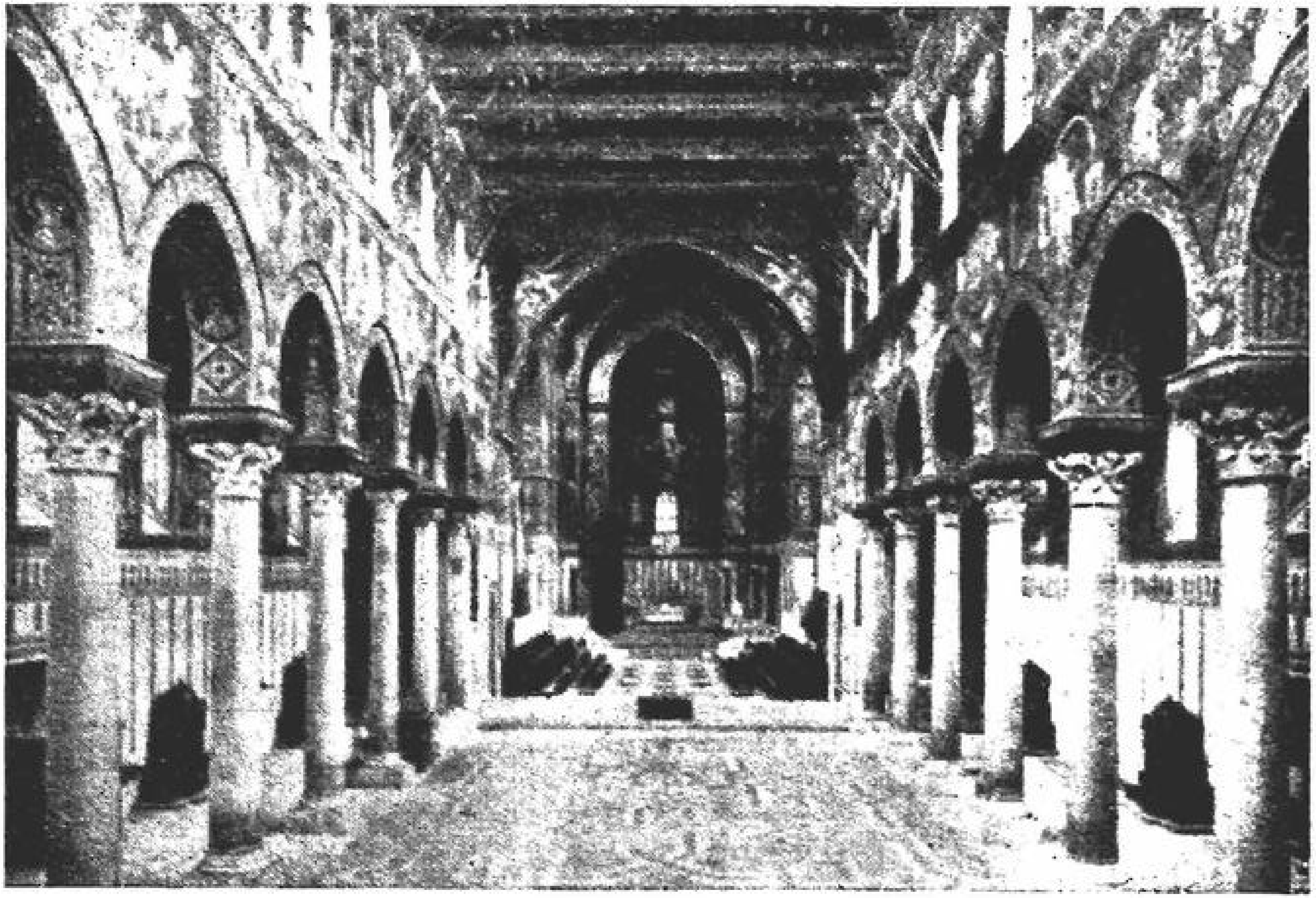
كنيسة القديس يوحنا



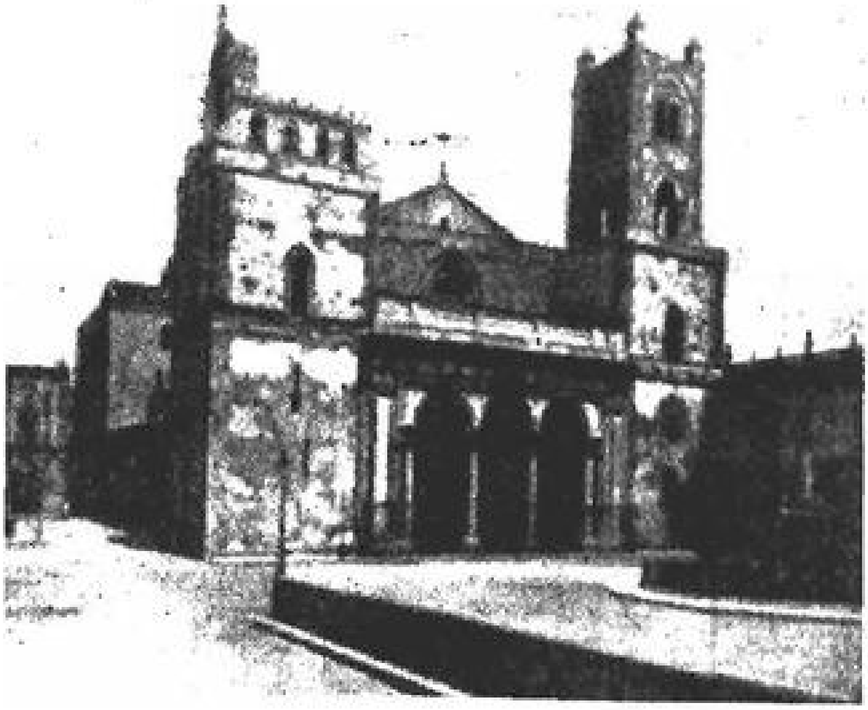
كاتدرائية سيفالو



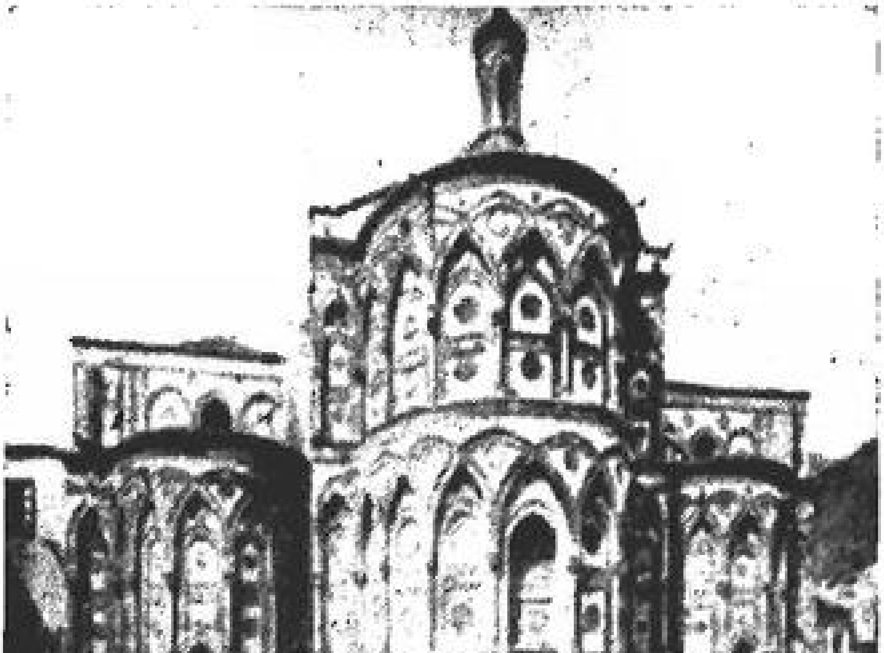
دير المونريال

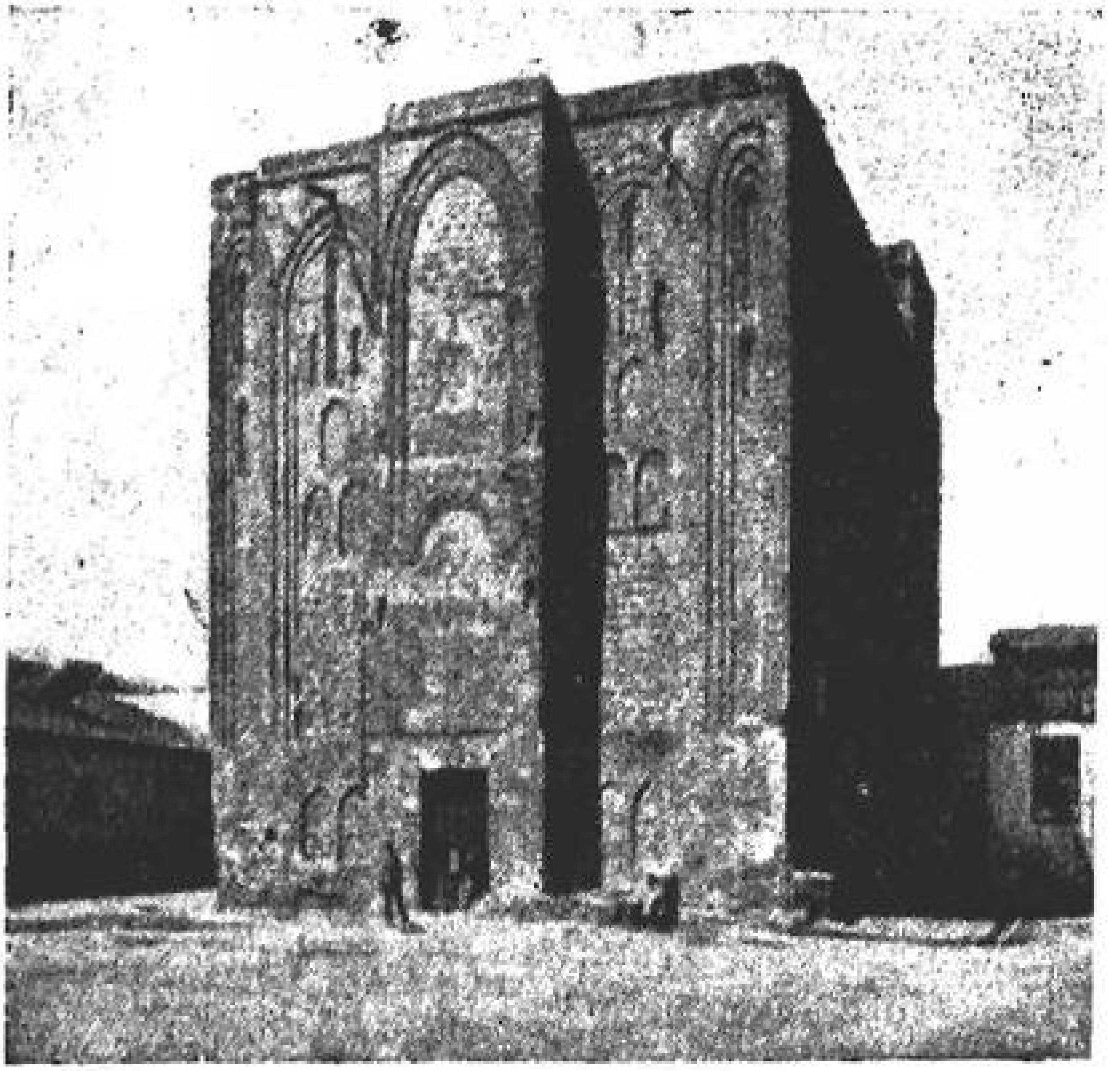


كاتدرائية المونريال



منظران خارجيان لكاتدرائية مونريال





قصر القبة

من آثار المسلمين بضواحي بالرمة



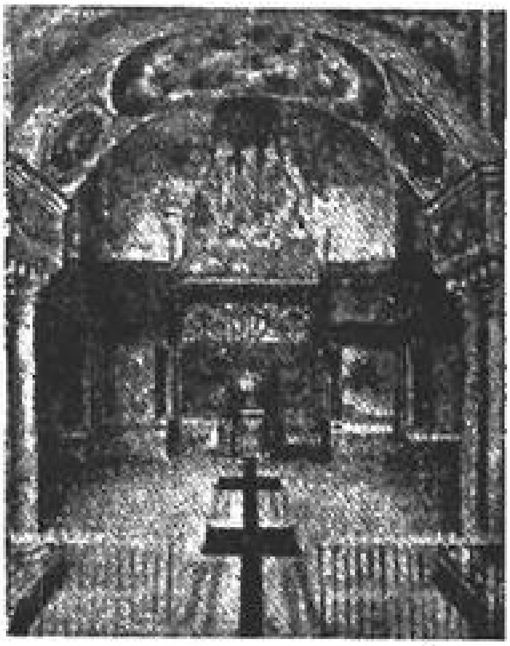
LA ZIZA

قصر العزيز

من آثار المسلمين بضواحي بالرمة



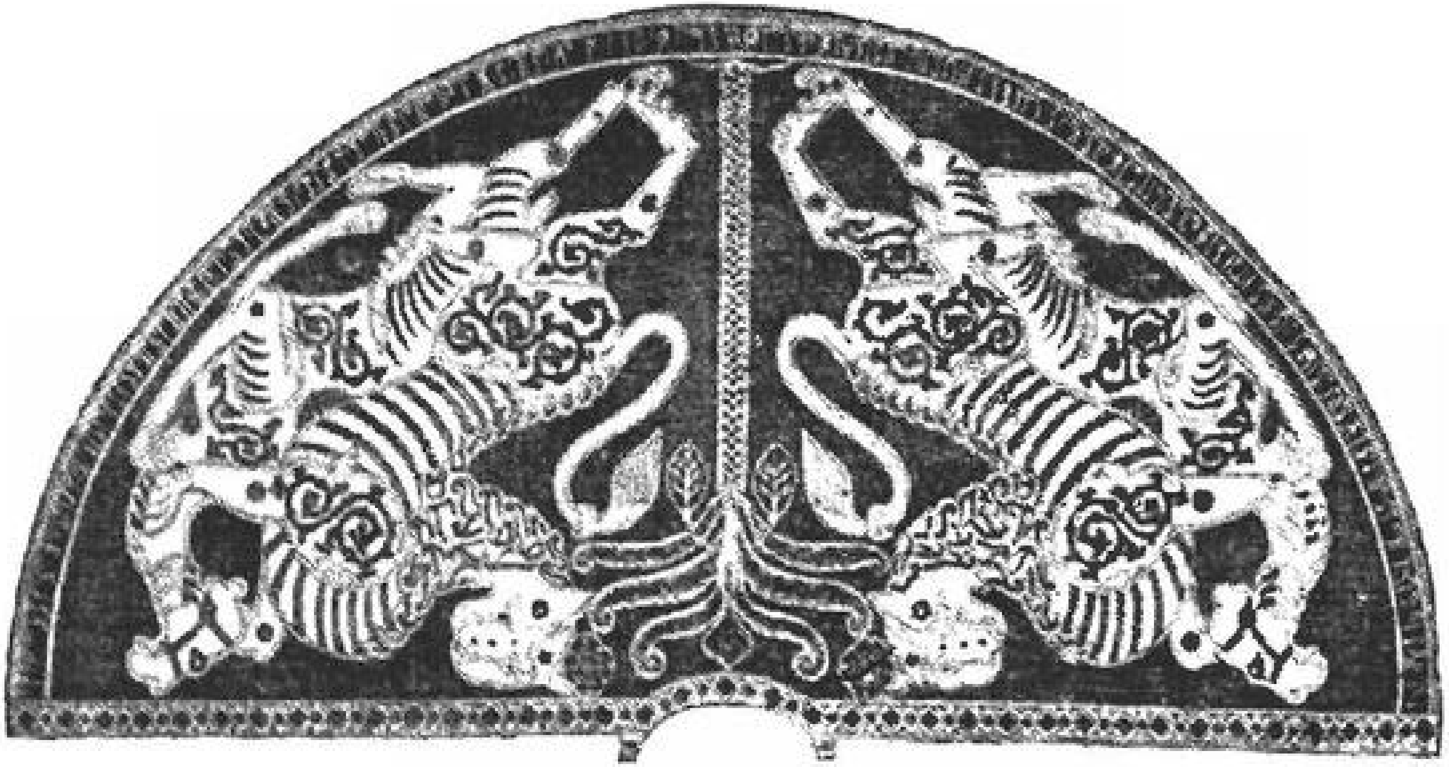
فسيفساء من صنع المسلمين بقصر العزيز



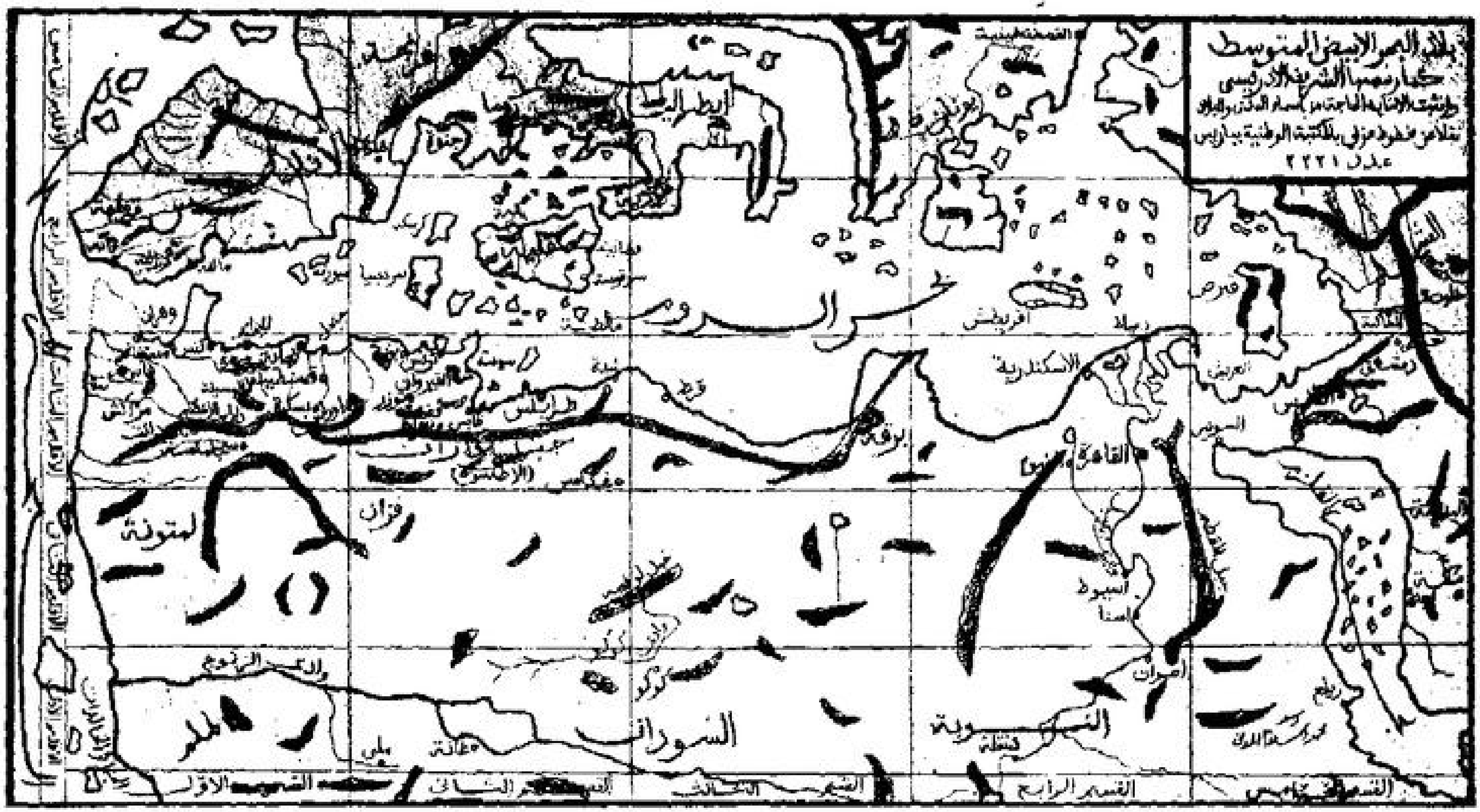
القاعة الكبرى
بقصر العزيز



العين الجارية بالقاعة
الكبرى بقصر العزيز



« رداء حريري » رسم فيه نمر يفترس جملا، وحوله كتابة كوفية ، تشير الى انه صنع سنة ٥٢٨ هجرية للملك رجار الثاني ، وكان ملوك النرمان و اباطرة الالمان بعدهم يرتدونه فى حفلة التتويج وهو محفوظ بمتحف مدينة نورنبرغ وصنعه على نمط صنع « العجار التونسي . »



بلاد البحر الأبيض المتوسط
كما رسمها الشريف الإدريسي
نقلاً عن مخطوط عربي بالمكتبة الوطنية بباريس
عدد ٢٢٢١
بحر الروم
الاسكندرية
القاهرة
برقة
طرابلس
فزان
لمتونة
السودان
النوبة
اسوان
القسم الأول
القسم الثاني
القسم الثالث
القسم الرابع
القسم الخامس

القسم الخامس
الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية
عصر الولاة والارهاب

الحسن بن احمد بن أبي خنزير

لا بدع ان احدث انهيار الدولة الاغلبية ، وقيام الدولة الفاطمية ، اثرا عظيما فى البلاد الصقلية؛ على ان اواخر ايام الاغالبة لم تكن فى صقلية ايام راحة وهدو واطمئنان ، فكانت حوادث افريقيا ضغثا على ابالة ، وكانت السنوات الاولى من انتصاب الحكم الفاطمى بالجزيرة ، ايام اضطراب سوداء ومذابح شنيعة ؛ان اسفرت عن شيء فمن خلاف جسيم وشقاق ذريع بين الجموع العربية التى كانت قوام دولة الاغالبة ، وبين الجموع البربرية التى ترى انها صاحبة الدولة ايام الفاطميين ، فقضت الجزيرة من جراء ذلك عصرا من اسوأ عصورها .

الا ان ذلك لم يدم طويلا ؛ وعاد الاستقرار بعد حين ، على يد بعض كرام الولاة فى اول الامر ؛ وعلى يد عائلة بني الحسن اخيرا .

عندما توطدت اقدام عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧ فى ملك افريقيا ، ارسل من قبله واليا على صقلية، الحسن بن احمد بن ابى خنزير ، من زعماء البربر الذين ايدوا الشيعة الفاطمية ونصروها فدخل بالرمة دخول الفاتح المنتصر ، ولم يسر هنالك سيرة امير مسلم ، بل سار هنالك سيرة امير بربري ؛ فكانت اعماله كلها متجهة نحو بربرة البلاد ، وتوطيد دعائم النعرة العنصرية البربرية ، فسكت العرب اول الامر عن مضض ؛ وقد شعروا انهم قد خسروا بانهيار الدولة الاغلبية تفوقهم ونفوذهم

وشعر المسلمون الصادقون ، و كثير عددهم ، بان هذه النعرة الجديدة سوف تكون نواة الخراب والدمار اذ تحل الدسائس العنصرية والخلافات المذهبية محل الاخوة الاسلامية السالفة .

ولم يكتف الحسن بن احمد بمحاولة تغليب العنصر البربري على العنصر العربي بل زاد الطين بلة بمحاولة حمل الناس عامة على اعتناق المذهب الشيعي بدل الاكتفاء منهم بالطاعة السياسية تاركا لهم حرية الدين .

وما كانت هذه الاعمال لتنتهي الا بالانتقاض واراقة الدماء .

ثار العرب وثار معهم اهل السنة عامة فخلعوا طاعة الحسن بن ابي خنزير ، لكنهم لم يستطيعوا اعلان ما تكنه نفوسهم اذ ذاك ، ولم يجدوا القوة الكافية والزعامة الحقيقية للتخلص من السلطة الفاطمية ؛ فراسلوا المهدي معتذرين عن ثورتهم بسوء سيرة الوالي وفساد اعماله ، وافن رايه ، وما تسبب فيه من فتن هوجاء بين المسلمين .

على بن عمر البلوى

تقبل المهدي على كره منه اعتذار مسلمي صقلية ، فاعلن عزل الحسن ، وولى مكانه علي بن اعمر ، سنة ٢٩٩ ، وكان شيخاً هرماً ، لين العريكة ، كريم الاخلاق أراد ان ياخذ الناس بالحسنى ، وان يقابل الفتن باسداء النصائح ، وكانت القبائل البربرية التي قدمت البلاد والتي استقرت فيها من قبل ، قد التفت حول الحسن وعلي ابني الوالي المعزول الحسن بن ابي خنزير ، فاصبح لهذين الولدين النفوذ المطلق والسلطة الحقيقية ، وسارا تحت سلطة الوالي الواهية ، على تنفيذ خطط ابيهما .

هنالك لم يجد العرب واهل السنة عامة مخرجا لهم من تلك المحنة الا اعلان الثورة ، بل اعلان الانقلاب والانتقاض على سلطة الفاطميين .

احمد ابن زيادة الله بن قرهب

جمعوا امرهم يومئذ وقاموا بحركة منظمة وعلموا انهم ما داموا على ولاء المهدى فالحالة لا يتطرق اليها ادنى تغير . ففى السنة الموالية لولاية على بن عمر سنة ٣٠٠ رفعوا لواء العصيان وقبضوا على الوالى على بن عمر وعلى ولدى بن ابي خنزير واركبوهما البحر الى افريقيا وبايعوا بالولاية احمد ابن زيادة الله بن قرهب وهو من قرابة الاغالبة .

الخلافة العباسية — كان احمد بن قرهب كارهاً للولاية حتى انه عندما رأى الناس اجمعوا على تقديمه فر من وجهم وآوى الى غار يحجبه عنهم فامعنوا فى طلبه واخرجوه من مخباه واقسموا له ليكونن فى طاعته وليموتن دونه فقبل الامر اذ لم ير محيصا عن ذلك ، انما اشترط عليهم ان لا يتولى الامر الا معتمداً على الخلافة العباسية نابذاً لدعوة الشيعة وما فيها من تعصب مذهبي وعنصري ؛ وهكذا كان فتولى الامارة معتزاً باهل السنة من عرب وبربر ، وراسل الخليفة المقتدر بالله في بغداد يعلن القيام بدعوته وضع امارته تحت نفوذه ؛ وجاءته رسل الخليفة تحمل الالوية السوداء والخلع السود شعار الخلافة العباسية . ثم وقف ابن قرهب وقفة الامير الحازم والزعيم القوي الشكيمة الجسور في الحق ؛ فضبط الامور واستقامت له الاعمال وسكنت الفتن الظاهرة الا ما كان كامنا منها تحت الرماد .

رجوع الفاطميين واندحارهم — ما كان عبيد الله المهدي وما كانت قبائل كتامة ومن لف لفها لترضى بخروج صقلية عن الامر ؛ واصباحها مركزاً للدعاية العباسية العربية السنية ؛ وادركوا ما فى ذلك من خطر جسيم على الدولة الناشئة فوقفوا للامر موقفا حازماً ورأوا اطفاء هذه الجذوة قبل ان يستفحل امرها .

جهز المهدى اسطوله وعمره برجاله الاشداء ووضع على رأسهم ابن ابي خنزير

بعد ان اعلن من جديد ولايته على صقلية ، وسار الاسطول فالقى مراسيه في مدينة رمطة ، انما رجال ابن قرهب لم يكونوا غافلين فتلقوا ذلك الاسطول بما جمعوه لمثل ذلك اليوم من قوة ، والتقى الجمعان سنة ٣٠١ ، وفاز اهل صقلية فوزاً مبينا فاحرقوا اسطول المهدى واسروا ستمائة من رجاله وقبضوا على الحسن بن ابي خنزير نفسه وكان قد آلم من قبل نفوسهم واحدث فى قلوبهم ضغينة لا تنسى ؛ فقتله ابن قرهب تشفياً وانتقاما .

نذالة وسقوط — جهز المهدي حملة جديدة سنة ٣٠٣ ؛ سيرها على صقلية محاولة استرجاعها فباءت بفشل ذريع .

لكن المهدى ان لم ينصره اسطوله على صقلية فقد نصره فيها دعاة الهزيمة او رجال الكتيبة الخامسة حسب التعبير الحديث .

فقد قاموا يومئذ بدعاية واسعة النطاق تمكنوا من اقناع خاصة الناس وعامتهم بها اذ قالوا : ان المهدى لن يصبر عن اندحاره المتوالي فى صقلية وانه لا ريب راجم علينا باسطوله وخيله ورجله مما لا قبل لنا به ؛ فالرأي الاسد هو اعلان التوبة والندم والرجوع لحكمه وخلع طاعة بنى العباس الذين لم تر منهم الا شمارم الاسود ؛ ولا يستطيعون امدادنا بشيء .

وصل الامر لعلم ابن قرهب فجمعهم وذكرهم بما قطعوه له من عهود ومواثيق فما اغنى ذلك عنه شيئا وتصلبوا فى مرادهم فاستسلم امام ارادتهم واخذ يجمع امواله ومتاعه وجهز مركبا يحمله مع ذويه الى بلاد الاندلس فراراً بنفسه .

قال رجال الكتيبة الخامسة : الاليق بكم هو ارسال ابن قرهب قربى للمهدي وتزلفا عله يراها لكم يداً ويعفو عما اسلفتموه من خلع طاعته ؛ فوجدوا من الدهماء اذنا صاغية ؛ وخالف بعض رجال الشهامة هذا الرأي الآفن ؛ فقامت من اجل ذلك فتنة بين الفريقين تغلبت فيها النذالة على الرجلة ؛ فالقي القبض على ابن

قرهب وارسل به هو وولده وقاضيه الى المهدى ؛ وطلبوا مقابل ذلك ان يرسل لهم المهدي واليا من قبله وقاضيا يحكم باسمه وهم يقومون فى بلادهم باعمال الضبط والجهاد ، اى انهم طلبوا نظام « الدومينيون » او الحكم الذاتي حسب الطريقة العصرية .

فى المحرم الحرام سنة ٣٠٤ (٩١٦) وصل ابن قرهب الى مدينة سوسة ووقف امام المهدى هو وولده وقاضيه ، وكان يعلم ما ينتظره فى مثل ذلك الموقف ، فاستجوبه المهدي ووبخه على مخالفة الدولة ونقض عهدها ، واقدامه على قتل الحسن ابن ابي خنزير فدافع ابن قرهب عن نفسه دفاع الضعيف وقال مما قاله : لقد اولاني الناس امرهم وانا كاره ثم عزلوني وانا كاره .

رأى المهدى يومئذ ان الحلم ربما اعتبر ضعفا ؛ وان زجر صقلية اصبح محتما بعدما ظهر منها ؛ فامر بابن قرهب وولده وقاضيه ان يضربوا ضربا مبرحا ؛ ثم قطعت ايديهم وارجلهم على قبر الحسن بن ابي خنزير ثم صلبوا ؛ وكانت هذه المعاملة الفظيعة التى فشا ذكرها فى طول البلاد وعرضها ، انذارا رهيباً لكل من تحدثه نفسه بالخروج عن الطاعة والانتقاض .

ابو سعيد الضيف موسى بن احمد

اما اهل صقلية فقد ارسل اليهم المهدى اجابة غريبة لمطالبهم : رجلا من زبانية البشر هو ابا الضيف موسى على راس اسطول قوي وجيش عتيد فنزل ارض صقلية فاتحا غازيا وراى اصحاب فتنة ابن قرهب ان النذالة لم تغن عنهم شيئا فجمعوا امرهم فى بلرمة وتحصنوا بها وامتنعوا عن ابي سعيد فجاءها ووقف على جدرانها وقفة الجبار العنيد ، وحاصرها اشهرا الى ان نفذ منها الزاد والصبر فافتتحها واطلق يد جنده من قبائل كتامة فانتهكت الحرمات واستباحت المحرمات وهدمت الديار وخربت المعالم واخذ ابو سعيد خيل القوم وسلاحهم والرفيع من متاعهم ، ثم ضرب عليهم

مغرما ثقيلا فادحا ، ولم يكفه كل ذلك من اعمال الزجر والتنكيل فاخذ وجوه القوم واعيان البلاد ، وبعث بهم اسرى الى افريقيا واراد الله بهم الهلاك فغرقت مراكبهم في البحر قبل وصولها .

وساد على الجزيرة يومئذ سكون هو سكون الموت ؛ وخضع الجميع للسلطة الفاطمية خضوع من لم يبق له فى فمه لسان ولا فى يمينه سنان ، وسكن رجال كتامة قرى وقصور المغلوبين واصبحوا اصحاب الحول والطول فى البلاد .

انتهت اعمال الزجر والتنكيل وعمرت المدائن والثغور برجال الدولة الجديدة فقفل الضيف (واي ضيف هو) راجعا الى القيروان بعد انجاز مهمته .

سالم بن راشد

ارسل به المهدي واليا سنة ٣٠٥ فكانت نيته متوجهة لاستئناف الجهاد وانجاز ما شرع به اسلافه من ولاة بني الاغلب من فتح جنوب ايطاليا .

الفتح فى جنوب ايطاليا — كان اسطول المسلمين قد اشتد باسه وقويت شوكته يومئذ ، وكان يقوده أمير البحر ابو جعفر احمد بن عبيد ؛ فافتتح في قلورية مدينة واري Orio بعد معركة هائلة اسفرت عن مصرع ستة آلاف من النصارى واخرج من المدينة عشرة آلاف سبية ؛ واسر فيها بطريقا ؛ صالحه عن نفسه وعن مدينته بخمسة آلاف مثقال من الذهب ؛ ثم جاء قائد الاسطول يسلم للمهدى تلك الغنائم الباهرة ؛ فقال بعض رجال الحاشية : تالله ان الذي يؤدى هذا لهو الامين ! فاجاب المهدي : والله ما اعطاني من الجمل الا اذنيه !

ومن هنا ندرك ان عبيد الله المهدي كان كثير الشكوك وكان لا يستثيق احداً

ثم فى سنة ٣١٣ ؛ وثب سالم بن راشد على مدينة طارنته الكبيرة الشهيرة فتلقاه اهلها بدفاع حار واستماتوا دون مدينتهم ، وكانت ملحمة هائلة اسفرت عن انكسارهم واحتل المسلمون المدينة وثبتوا فيها .

فى سنة ٣١٥ ، استولى الاسطول على قلعة الخشب واستحوذ على ما كان فيها من خيرات وارزاق ، وسار يؤم مدينة سالرنة الشهيرة Salerne التى اصبحت من بعد ، بفضل علماء المسلمين اكبر كليات العالم القديم ، وكان فريد امير سالرنة يعلم ضعفه امام المسلمين ، ويدرك انه لا قبل له بمقابلة اسطولهم الذى ملأ البحر رعبا فاستنجد للدفاع عن مدينته برجال النرمان الذين اخذ نجمهم يتألق في البحر يومئذ .

صفحة بيضاء ـ القاضي ميمـون — خلال هذه الايام السوداء الكدرة ، وفى وسط هذه الفتن الدهماء ؛ نرى لزاما ان نسجل صفحة طاهرة من اجل واروع صفحات القضاء الاسـلامي صفحـة القاضي ابى عمرو ميمـون ، لترى منهـا ان الاضطراب ان كان شاملا كل نواحي السياسة والادارة وان البلاء ان كان مخيما على الناس من كل جهاتهم فهنالك ناحية بقيت فى معزل عن الفتن وهنـالك ساحة لم تمتد لهـا يد الطغيان بسوء الا وهي ناحية القضاء الاسلامي الذي بقى نزيها طاهرا نقيا ، يلتجيء اليه الناس فيجدون فيه الملجأ النقي ويحتكمون اليه فلا يجدون فى انفسهم حرجاً ممـا قضى ويسلمون تسليما .

نروى عن رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقيا ؛ انه فى سنة ٣١٦ (١) ، ايام ولاية سالم بن راشد الشديدة القاسية ؛ توفي بمدينة سوسة القاضي ابو عمرو ميمون بن عمر ، وكان رجلا صالحا ذا دين وفضل سمع عن سحنون وكان معدوداً فى اصحابه ولي مظالم القيروان ثم ولي قضاء صقلية ؛ فلما ولي قضاءها اجتاز بسوسة ، فقال : يا اهل سوسة ، هذا كساني وهذه فروتي وهـذا خرج فيه كتبي وهذه السوداء تخدمني ومعها جبة و كساء فبهذا دخلت عليكم فانتظـروا باي شيء ارجع .

قال ابو الربيع : فاخبرني سعيد بن عثمان من اهل صقلية ، انه لما وصل اليهـا

(١) في كتاب العبر للذهبي انه مات سنة ٣٢٠ ، بعد ان عمر مائة عام .

قلنا له : هذه دار القضاء تنزل فيها ؟ فقال : هذه دار عظماء ، ايش اعمل فيها ؟ وتزل في دويرة لطيفة ، وكانت السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك ؛ فاذا ضرب احد الباب خرجت اليه ، وقالت الساعة يخرج عليكم القاضي الى ان اعتل ، فاقام ثلاثة ايام لم يخرج؛ فقرع الناس الباب فخرجت لهم السوداء وقالت ادخلوا فعودوا القاضي فانه مريض ، فدخلنا عليه فاصبنا وسادتين محشوتين تبناً عند راسه وحصيرة بردى تحته ؛ فلما رآنا بكى ، وقال والله انني اجتهدت ما استطعت ، ثم خرج من صقلية وهو مريض وقال لاهلها : خلف الله لكم بعدي بخير ، فقالوا صحبك الله بالعافية ؛ فوصل الى سوسة فقال يا اهل سوسة : كما دخلنا عليكم رجعنا اليكم ، هذه كسائي وجبتي وخرجي فيه كتبي وهذه السوداء تخدمني . » (١)

قال محمد بن الحارث بن اسد الخشني في طبقات علماء افريقيا : ادركته

---

(١) بمناسبة ذكرنا للقضاة والقضاء الاسلامي نذكر طريقة القضاء في ذلك العصر ببلاد المسيحية :

كانت العدالة تعتمد يومئذ على احدى طريقتين : الاولى هي المعروفة باسم « حكم الله » وذلك بان يحمل المتهم بين يديه قطعة من الحديد المحمر بالنار ويسير بها بعض خطوات ثم يلقي بها الى الارض ؛ فان خلفت النار آثارها بيديه بعد ثلاثة ايام كان مجرما واستوجب القصاص وصارم العقاب ؛ وان خلت يداه من آثار النار بعد ثلاثة ايام اعتبر بريئا واطلق سبيله .

اما الطريقة الثانية فهي المبارزة العدلية ؛ وذلك بان يلتقي المدعي والمدعى عليه ، وفي يد كل منهما سيف ويتبارزان ؛ فالغالب في المعركة هو صاحب الحق والمغلوب هو الظالم المعتدي ؛ وان كان المدعي او المدعى عليه او كلاهما غير قادر على استعمال السلاح فله ان يكلف وكيلا للدفاع عنه بواسطة السيف .

مقعداً شيخاً كبيراً ، وكان له دين ومكان على سنه ، عهدى به سنة ٣٠٣ ، وانا اقرأ عليه موطأ مالك فقرأت عليه فيه كلاما لعمر بن الخطاب فجعل يبكي خشية وتواضعا ، فانى لفي ذلك المجلس بين يديه حتى دخل عليه داخل ، فقال : فتحت صقلية . فجعل يتأسف . »

والمقصود هنا بفتح صقلية ؟ هو دخولها تحت طاعة الدولة الفاطمية .

مبدأ ظهور النرمان — رأينا فى مقدمة هذا الكتاب التاريخية من هم النرمان ، وكيف انتشروا فى شرق اروبا وفى غربها ، ونفتح هنا باب البحث عن تدخلهم في امر صقلية ، ذلك التدخل الذى ابتدأ امره عند انهيار الدولة الاغلبية وانتهى بزوال السلطة الاسلامية عن الجزيرة .

فى سنة ٣٠٠ ، وفى الايام الاولى من ولاية ابن قرهب كان جماعة من النرمان يرجعون لوطنهم نرمنديا من زيارة القدس الشريف واذ كانوا على مقربة من صقلية استنجد بهم البعض من النصارى هنالك ضد المسلمين ، وكانوا فى حرب فانجدوهم ونصروهم على عدوهم .

واذ راى نصارى صقلية ان امبراطور الروم قد تغافل عنهم ،وأن نجداته المتوالية لم تكن بذات اثر فعال ، طلبوا الى رجال النرمان البقاء عندهم ، والاتيان بقومهم اليهم حتى ينتصر المسيحيون هنالك نصرا نهائيا على المسلمين .

اعتذر يومئذ رجال النرمان عن البقاء ، انما وعدوا بارسال جماعة اخرى من قومهم ، اشد مراسا منهم واقدر على النضال والقتال ، ثم رجعوا الى بلادهم يحملون اليها ما انتجته المدنية الاسلامية فى صقلية ، من نفائس المنسوجات الحريرية ، ومن سكر وبرتقال وثمار شهية كانت مجهولة كلها يومئذ فى اروبا ورغبوا اشبانهم فى ارتياد تلك الناحية طلبا للثروة ، تحت ستار الدفاع عن حرية المسيحية ، والجهاد ضد المسلمين فكان برتقال صقلية مذكيا لفهم النرمان كما كان تين قرطاجنة مذكيا لنهم الرومان

عندما اخرج قاطون من كمه حبات من التين وخاطب المجلس قائلا : ان ارضا تنبت مثل هذه الثمرات يجب ان تكون لنا .

من ذلك الحين اخذ قرصان النرمان يجوبون تلك البحار ويترصدون الفرص التي تمكنهم من تقويض سلطان المسلمين .

استمرار الفتح فى جنوب ايطاليا — وفى سنة ٣١٧ كانت عمارة اسلامية مؤلفة من اربع سفن ترتاد البحر فلقيت اسطولا طليانيا مؤلفا من سبع سفن ؛ فـداهم الاسطول الاسلامى اسطول الطليان ودحره وكانت نتيجة هذا الانتصار البحرى ان استولى المسلمون على مدينة طرمولى Termoli ومن اغرب غزوات هـذا العهـد غزوة القائد يعقوب ابن اسحاق، فقد سار على راس اسطول ضخم مـن اساطيـل المسلمين، قاصداً شمال ايطاليا ، فاصطف امام مدينة جنوة Gêne درة ايطاليا اللامعة ومرساها الذى سارت بذكره الركبان ؛ ونازلها فآنس منها ضعفا ، فانزل جنده وبحارته وصادمها صدمة عنيفة مكنته من اكتافها ، فاحتلها ونصب فوق جدرانها راية المسلمين الظافرة الى حين .

الثورة — لم تكن هذه الحروب الخارجية ، وما كلل الظفر به هامتها مـن فخار ، لتشغل سالم بـن راشد عن الحذر والانتباه ، خشية انتقاض اهل صقلية الذين الفوا الثورة ، وسكنت قلوبهم الاحقاد والضغائن ، اثر اعمال الزجر والتنكيل التى قام بها سلفه ، تجعلهم يندفعون فى ذلك السبيل لادنى مناسبة .

ولو ان سالما والذين ارسلوا به واليا من قبلهم ، راوا ان يسلكوا يؤمئذ سياسة اللين والمجاملة ، وجبر القلوب المنكسرة ، واسدال ستار النسيان عن الماضى القريب لكان ذلك اوفق لهم واهدى سبيلا .

لكنهم رأوا عن قصر نظر ، وسيراً من اهواء النفس واندفاعا مع نعرة عنصرية ممقوتة زادها الانتصار بطراً ان يمعنوا في سياسة العنف والشدة وان

يرهقوا الناس الى اقصى درجة الارهاق قتلا لروح التمرد فيهم وقضاء على ما في نفوسهم من طموح .

وما رأينا في التاريخ ان سياسة مثل هذه السياسة انتجت غير الثورة والدماء والخراب والدمار ، وما انتج الضغط كما يقولون الا الانفجار .

ان كانت بالرمة وضاحيتها قد نالها من اعمال الزجر والتنكيل ما اخمد انفاسها الى حين ، فان جهات اخرى من البلاد كانت لا تزال محافظة على قوتها الروحية تابى الضيم ، وتستنكف عن الخضوع للطغاة الجبارين ، فانتفضت ناحية جرجنتى انتفاضاً جعل سالما بن راشد يعجز عن اخماده فارسل الى المهدية يستنجد الامير ابا القاسم بن عبيد الله المهدى ويهول له امر الثورة ، ويزين له طريقة اخمادها بين الحديد والنار واسقاط كل راس تحاول الارتفاع ، فاهتم الخليفة الفاطمى وارسل على صقلية جنداً جديداً ، سنة ٣٢٥ (١)

خليل ابن اسحاق

ولم يكن الجند الذى ارسله الخليفة على صقلية هو وسيلة الزجر والتنكيل ، بل كانت الوسيلة الحقيقية للبطش والارهاب ، متقمصة شخص الوالى الجديد الجبار المقيد خليل بن اسحاق الطاغية ؛ او حجاج المغرب وصقلية ، انما ليس له من الحجاج بن يوسف الاجرأته على سفك الدماء والبطش على السواء بالمجرمين

(١) في سنة ٣٢٣ ، تولى حكم مصر من قبل بنى العباس محمد بن طغج الفرغاني التركي الملقب بالاخشيد ؛ فاعلن استقلاله كما فعل من قبل ابن طولون وتولاها آله من بعده ، ثم تولاها عبدهم الاسود كافور الاخشيدى ؛ الذى خلد اسمه ابو الطيب المتنبي ؛ بما قاله فيه من مدائح رفعته الى السماك الاعزل ، ومن مهاجي نزلت به اسفل الحضيض ؛ وانتهى امر هذه الدويلة التي ملها الناس على يد جوهر الصقلي ؛ قائد الفاطميين الذى احتل مصر وضمها للقيروان .

والا برياء وليس له علمه وذكاؤه وفصاحته .

ان كان سالم بن راشد شديداً في سياسته ، فانه لم يكن يصل بتلك الشدة الى درجة الفظاعة ، ولم يكن يريد سفك الدماء الا دماء الذين يعتقد فيهم النزوع للفتنة او يرى في القضاء عليهم قضاء على الثورة والعصيان ؛ فما كادت تستقر اقدام النقمة التي تسمى بخليل بن اسحاق في ارض صقلية حتى ادرك سالم بن راشد فداحة الخطب وامتداد الكارثة التي كان بنفسه سببا لها ؛ فاعلن مع جماعة كبيرة من القوم انه لا يشارك الوالى الجديد في اعماله ، وانتحى جانبا معلنا بنفسه الثورة التي كان استمد الخليفة لاطفاء نيرانها .

ابتدأ خليل ابن اسحاق امره باختطاط قرية في ضواحي بالرمة ، حصنها وشاد فيها القصور وديار الجند واسماها « الخالصة » واتخذها مسكنا له ولخاصته ووجوه جنده تحميهم عند الحاجة من ثورة السكان ، واخذ لعنه الله وسود اسمه في التاريخ الى الابد يمعن في الظلم ، ويبلغ في الجور والاجحاش درجة لم يسمع مثلها من قبل ولا من بعد ، ولم تكن نتيجة لهذه الفظاعة ازهاق النفوس ولا موت الناس جوعا فحسب ، بل انها جعلت الناس وقد رأوا مدى الكارثة التي اصيبوا بها في اموالهم واعراضهم ونفوسهم يفرون من صقلية ومن جنوب ايطاليا ، ويدخلون ارض النصرانية ويعتنقون هنالك الديانة المسيحية ولو بصفة صورية .

ولقد قضى هذا الفاجر اربعة اعوام في صقلية يقتل وينهب وينتهك الحرمات ويجوع ويظلم ، وكان اثناء ذلك يوالى حصار جرجنتي التي استعصت عليه ، اذ علم اهلها ما لهم ان هم استسلموا ؛ ودام الحصار اربعة اعوام كاملة ؛ الى ان ضاق عليها الخناق فاحتلها ونكل بها تنكيلا لا يوصف ، ثم اراد العودة الى افريقيا وقد اعتقد انه انجز مهمته اللعينة فحمل معه جماعة كثيرة من وجوه الجزيرة وكبرائها وعلمائها زعم انه يريد ان يقدمهم للخليفة بالمهدية ، وامر في عرض البحر فثقبت المراكب

التى كانت تحملهم ، وهنالك بين امواج البحر المتوسط الذى جاهدوا وجاهد اجدادهم فى سبيل سيادته قضوا نحبهم شهداء الجور والفظاعة والنقمة العنصرية

ولقد حضر هذا اللعين خليل بن اسحاق مجلس الخليفة في المهدية فكان يفاخر الناس بشروره وآثامه وفظائعه ، ومما قاله تقربا الى الخليفة كانه فعل ذلك في سبيل دعوته وتوطيد سلطانه : « انى قتلت فى امارتى الف الف نسمة » . فاجابه احد علماء الدولة الشيعية ، ابو عبد الله المؤدب « لك يا ابا العباس فى قتل نفس واحدة ما يكفيك » .

الروم والنرمان — في هاتيك الاثناء ، والمسلمون يقاسون محنة لم يسبق لها مثيل ، وسيوف بعضهم تحز في رقاب البعض الآخر ، كان المسيحيون عامة ينظرون هذه الحوادث الرهيبة بعين الجذل والسرور والامل ، فكان الروم يعدون العدة لمهاجمة الجزيرة بقوة وارجاعها لسلطان القسطنطينية ؛ وكان المدد من ناحيتهم يترى للنصارى الذين بقيت لهم في صقلية بقية ، وكان رجال النرمان من جهة اخرى ، يعدون زرافات فى مراكبهم الخفيفة فينقضون على المسلمين فى جهة بعد جهة ويغنمون منهم السبايا والاسلاب ويعودون لبلادهم .

وأخيراً ما كادت تنتهي أيام خليل بن اسحاق اللعينة ، حتى تركت في صقليه جرثومة الداء الذى سيقضى عليها بعد حين : ذلك أن جماعة قوية من النرمان نزلوا سنة (٣٢٧) ناحية من صقلية ، وتحصنوا فيها ، وجعلوها مركزاً منيعاً لما يقومون به من قرصنة فى البحر ، ومن غزوات وانتهاب في البر ، وهكذا بينما كان المسلمون يقاتل بعضهم بعضا ، كان النصارى يقاتلونهم جميعا ومن كل جهة .

ولقد كان النرمان في اول عهدهم بالغزو فى صقلية كما قال عنهم العلامة غوستاف لوبون : يشتغلون بنهب الطليان واليونان والعرب على السواء بهمة ونشاط دونهما همتهم ونشاطهم في الدفاع عن الدين (المسيحي) .

عطاف الازدي

ارسل به المنصور واليا على صقلية ، لكي يستمر على سياسة اسلافه الذين سبقوه بشر فى تلك الولاية منذ تمهد الامر لدولة الفاطميين واستولى رجال كتامة بغلظتهم على زمام الملك .

وكانت صقلية يومئذ تسبح فى بحر من الدماء ؛ فان كان رجال الفاطميين رأوا ان لا سياسة لهم هنالك الا سفك الدماء والامعان في الظلم والزجر والارهاب اقتلاعا لجذور الثورة وخنقا لكل فتنة مقبلة في مهدها ؛ فان البقية الباقية من رجال صقلية الاولين رأوا ان الشدة لا تقابل الا بالشدة والشر لا يمنع الا بالشر والدم لا يغسل الا بالدم ، فكانت ثوراتهم تتوالى بعد سكون قليل اثر عمليات الارهاب السالفة ؛ وكان الروم كما رأينا قد استضعفوا المسلمين فى هذه الايام السوداء وتكالبوا عليهم وامتنعوا عن دفع مال الجزية الذى تجمع بذمتهم واخذوا يستعدون للملحمة الكبرى ، والنرمان من جهتهم كانوا يحصنون مركزهم الذى استولوا عليه بسبب الثورة والقلاقل بين المسلمين ، ويستعدون كذلك للملحمة الكبرى واستخلاص صقلية لحسابهم الخاص ، بينما كان الروم يريدون استرجاعها تحت سلطانهم .

لم تكن ايام عطاف الازدى طويلة بصقلية ولم يستطع ان يعمرها على قصرها بعمل يذكر ، وكان اهل بالرمة قد ارادوا التخلص نهائيا من هذه المظالم والشرور والآثام ، فتآلفوا وتحالفوا حول عصبة بني الطبرى وثاروا بعطاف يوم عيد الفطر سنة ٣٣٥ ، فالتجأ الى قلعة الخالصة وامتنع فيها ؛ ثم سار وفد منهم الى المهدية يفاوض المنصور فى شأن صقلية واقرار الحكم فيها على اسس متينة من العدل الاسلامي والتساوي بين الجميع ، وحرية المعتقد والمعاملات ؛ واوصى الوفد رجال بالرمة ان لا يقبلوا اي عامل يفد عليهم من المهدية الا بعد انتهاء المذاكرات وورود رسائل منه تشعرهم بذلك .

لكن ازمة صقلية كانت قد انتهت الى حين ؛ وادرك المنصور بالله اسماعيل ابن القاسم بن عبيد الله خليفة المهدية ان تلك السياسة التي سلكها اسلافه لم تات الا بعكس النتيجة المطلوبة ؛ وان قطراً اسلاميا هو طليعة المسلمين نحو الارض الاوربية يوشك ان يسقط برمته تحت قبضة النصارى بسبب تلك الشدة وذلك الارهاب ؛ فقبل ان يصل الى المنصور وفد صقلية ، وعندما بلغه نبأ ثورة بالرم على عطاف الازدي ، بادر بتعيين فاضل من فضلاء الامة ووجيها من وجوه الدولة ، هو الحسن بن علي بن ابي الحسين الكلبي واليا على صقلية وممثلا الدولة فيها ؛ على ان يسلك هنالك سياسة جمع الشمل واتفاق الكلمة والاستعداد لمقارعة النصارى الذين كانت دعوة الحرب الصليبية ضد الاسلام والمسلمين تلهب قلوبهم وتتقد في افئدتهم نارا .

وصل الحسن صقلية مفتتحا بها عصراً جديداً كان عصر ازدهار وجهاد وصراع سنة ٣٣٦ (٩٤٨) وانتهى بذلك عصر الشرور والآثام والمصائب والفتن والتنكيل والارهاب ؛ الذي دامت مدته نحواً من ٥٠ سنة ، تتخللها لا محالة فترات راحة نسبية ؛ وكانت هذه الفترة التعسة في تاريخ صقلية من اكبر اسباب انهيار ملك المسلمين فيها وتغلب النصارى فيما بعد عليها ؛ وذلك لان المسلمين قد استنزفوا كل قواهم فى تلك الثورات المتوالية ولان اعمال الزجر والتنكيل قد ذهبت باحسن القوم واردت اكثرهم قوة واشدهم نفوذاً ؛ ولان الخلاف اللعين بين المسلمين : بين سنة وشيعة وبين عرب وبربر قد توطن فى النفوس وتوطد بكيفية لم تستطع صقلية التخلص منها فيما بعد الا بصفة سطحية ؛ ولان المسلمين خلال تلك السنين النحسة قد تركوا امر النصارى وامر الجهاد فتمكن هؤلاء تمكنا جعلهم يعيدون الكرة على المسلمين ؛ فان باء الروم بالاندحار فقد نال النرمان آخر الامر كل الفوز والانتصار .

القسم السادس
الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية
٢
عصر الاستقلال الذاتى

الحسن بن علي بن ابى الحسين

جاء الحسن واليًا من قبل المنصور ، يختال بين بردتى فضل وشمم ، وكان معه اسطول يحمل جنداً ومتاعاً ، فنزل مدينة مازرة ، سنة ٣٣٥ فلم يلقه احد هنالك ، ولما جن الليل ، جاءته جماعة من كتامة ومن وجوه الجند الافريقى وأعلموه انهم لم يجسروا على لقائه نهاراً خوفاً من إبقاء الطبرى ، ورجال الثورة المتقدة ضد عطاف وضد الحكم الفاطمى ، وضد سياسة الشدة والارهاب ، وأوصوه بالحذر الشديد ايغاراً لصدره وحثاً له على الاستمرار في سياسة البطش .

لكن الحسن كان غير الرجال السابقين وقد جاء صقلية يحمل فكرة صالحة ويعتزم سلوك سياسة رشيدة ضاربًا صفحاً عن كل ما تقدم من أمر الفتن والاضطراب .

سار فى جنده وموكبه ودخل بالرمة العاصمة ولم يكن آل الطبرى قد اتصلوا برسائل من وفدهم بالمهدية لكنهم لم يجسروا على مقاومة الحسن وراوا التريث والتمهل إلى أن يظهر امره وتتجلى سياسته .

العدل أساس الملك — رآى آل الطبرى يومئذ الالتجاء إلى مكيدة تمكنهم من سبرغور الوالي وتجعل لهم الحجة فى اعلان الانتقاض عليه واثارة العامة والدهماء ضده فاتفق السيد اسماعيل زعيم آل الطبرى مع أحد غلمانه واستدرج الى داره

احد عبيد الحسن ومهد له سبيل الاختلاء بجويرية من جواريه ثم اخذت اصوات الصراخ والاستغاثة ترتفع من سائر اطراف قصر آل الطبري واسماعيل يز مجربان عبداً للوالى انتهك حرمة منزله واعتدى على حرمه فاجتمع الناس وقبضوا على العبد وساروا به الى قصر الولاية امام الحسن بن علي وكان اسماعيل يعتقد ان الامير لا يتنازل لسماع شكاته او الاقتصاص من عبده وبذلك يتمكن من اثارة العامة ضده لكن الامير الحسن اوقف عبده موقف الاتهام على مراى ومسمع من الناس واعترف العبد بما اتهموه به فاصدر الامير امره باعدامه ردعاً لامثاله ممن تسول لهم انفسهم الاعتداء على الحرمات ؟ فاكبر الناس منه ذلك الانصاف ومالت قلوبهم اليه وانقلبت مكيدة ابن الطبرى ضد مدبرها

ثم ان الخليفة المنصور قبض على من عنده من آل الطبرى بافريقيا واصدر امره للحسن بان يقبض على بقاياهم فى صقلية ويرسل بهم اليه ففعل بعد ان استدعاهم لوليمة يسدانه نازعا سلاحهم مفرقا عنهم انصارهم وارسل بهم الى افريقيا حيث اسكنهم المنصور بعض الجهات وابعدهم نهائياً من مركز الفتنة .

العودة للجهاد وفتح طبرمين — اطمأنت النفوس للحسن والتفت القلوب حوله اذ راوا فيه مثال العدل والنزاهة والخلق الكريم وراوا فيه طي صفحة الماضى المؤلم ماضى ولاة الجور والتنكيل والانتقام وفتح صفحة جديدة تربط حاضر صقلية ومستقبلها بماضيها الجليل .

ورأى الروم ذلك وايقنوا ان المسلمين ان جمعوا امرهم ووحدوا كلمتهم فلا نتيجة لذلك الا عودتهم الظافرة لميدان الجهاد ، فبادر المسيحيون بدفع اموال الجزية المتخلفة لديهم عن ثلاثة اعوام وقد تقاعسوا عن دفعها عندما رأوا ما حل بالمسلمين من خلاف وشقاق وفتنة دهماء .

فى سنة ٣٥١ هاجم المسلمون قلعة طبرمين التى كانت تحمل آمال الروم القسطنطينيين فى شرق الجزيرة ، وكانت ممتنعة على المسلمين بما امدها به الروم ؛ وكان المسلمون يومئذ تحت قيادة الامير احمد بن الامير الحسن وقد اشركه ابوه معه فى الحكم واعده ليخلفه من بعده ؛ ودام حصار طبرمين سبعة اشهر ثم اقتحمها المسلمون بين اصوات التهليل والتكبير ، بعد ان قطعوا عنها الماء وافتتحوها ؛ واطلق عليها القائد احمد اسم « المعزية » نسبة للخليفة المعز الفاطمى .

ثم توجه المسلمون تحت قيادة القائد الكبير الحسن بن عمار ، ينصبون الحصار على مدينة رمطة Rametta جنوب طبرمين محطمين بذلك آمال النصرانية في شرق الجزيرة ، وكان الروم قد حصنوا المدينة تحصينا منيعا فاشتد المسلمون فى حصارها ونصب الحسن بن عمار حولها المجانيق والعرادات فالحق بالمدافعين عنها اضرارا جسيمة الى ان اقتحمها عليهم عنوة وافتتحها يوم الخميس آخر رجب سنة ٣٥٢(٩٦٥)

مسجد ريو — كانت جزيرة ريو ، من جزر النصرانية يختلف اليها المسلمون ويستقرون فيها لامور تجارتهم الواسعة او يقيمون فيها اثناء اسفارهم ؛ فارسل الامير الحسن بن على بنائيه ورجال الفن واختط فى تلك الجزيرة مسجداً فخماً فى احد اركانه مأذنة عالية وتعاقد مع النصارى على احترام الحرية الدينية وتعهدوا له انهم لن يمنعوا المسلمين من غشيان المسجد وتوعدهم الامير بانهم ان حالوا دون المسلمين ومسجدهم فانه يقابل العمل بمثله ، ويحول بين المسيحيين و كنائسهم فى صقلية وافريقيا ؛ واشترط عليهم ان المسجد حرم يحمى من التجأ اليه مثل سائر معاهد الدين فى ذلك العصر ، واحترم النصارى العهد .

محاولات الروم فى جنوب ايطاليا — فى هاتيك الاثناء والمسلمون يستعدون للقضاء نهائيا على آخر آمال الروم بتلك الديار ، ويستعدون للقضاء على الخطر الرماني الناشيء ، كان بلاط الروم في القسطنطينية يشعر بمقدار الكارثة التى

اصابته ويستعد لاسترجاع مكانته الحربية وسمعته السياسية وقيمته الدينية المسيحية فجهز الامبراطور اسطولا عتيداً حمله جنداً غفيرا وسلاحا وفيراً وارسل به نحو الجنوب الطلياني يحاول استخلاصه من ايدى المسلمين .

علم الحسن بن علي بالامر ، فارسل الى المهدية يستنجدها فجاءه الاسطول الفاطمى يحمل سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل ، واستعد الفريقان للنزال والكفاح وكان ذلك سنة ٣٣٦ (٩٤٨) فالتقى الجمعان براً وبحراً ، واندحر الروم فرجعوا على اعقابهم خاسئين . وشيد الحسن بن على مسجداً بمدينة رجيو (Réggio) فى قلورية توطيداً لحكم المسلمين وتثبيتاً له ؛ واجبر الروم المقيمين بمدينة اوترنتة على دفع الجزية .

بعد سبعة اعوام من ذلك سنة ٣٤٣ ، اعاد الروم الكرة على المسلمين في الجنوب الطليانى ، وجاء بطريقهم اورجربوس على رأس عمارة بحرية قوية فنصب الحصار على مدينة نابولى ، وكانت عاصمة امارة مسيحية مستقلة ، وحليفة وفية لمسلمى صقلية ؛ وكان الروم حاولوا يومئذ الانتقام منها من أجل ذلك .

سار المسلمون تحت قيادة الامير عمار بن علي اخي الامير الحسن وقد كان يتولى امر المسلمين فى اروپا ، فجمعوا جهودهم الى جهود اهل نابولي ، وتمكنوا من دحر اسطول الروم ، وردوا الهاجمين على اعقابهم مرة اخرى .

لكن الروم نزلوا الارض فى بلاد قلورية ، محاولين قطع الصلة بين صقلية والبلاد الاروبية ؛ فتمكنوا من بعض الجهات ، واحتلوا مدينة رجيو وهدموا مسجد الحسن بها ايذانا بزوال سلطة المسلمين ؛ وغلواً فى التعصب المسيحى .

جمع الامير الحسن قوته ، وسار الى قلورية يضم جهوده لجهود اخيه عمار فالتقى المسلمون بالروم فى وقائع عديدة ، واعادوا احتلال رجيو والتقوا باسطول الروم امام مرسى اوترنتة فحطموه ودحروا بقاياه واضطر الروم للانسحاب وطلب المهادنة

وذلك سنة ٣٤٨ (٩٦٠)

الانتصار الاكبر فى معركة المجاز — كان الفريقان يعلمان ان القتال بينهما لم ينته بعد وكانا يستعدان للملحمة الكبرى الحاسمة ويعدان لها العدة ويعلمان ان نتيجتها ستكون اما خسارة صقلية وجنوب ايطاليا نهائيًا وانقطاع امل الروم بصفة باتة هنالك؛ او تقلص ظل المسلمين وانهيارسلطانهم نهائيا فى البلاد الاروبية وجزيرة صقلية .

ولم يضيع الروم وقتهم سدى فقد جهز الامبراطور اسطولا لم يجهز مثله من قبل قوة ومنعة وعدداً وشحنه باربعين الفاً من اشداء المقاتلين تحت امرة ابن اخيه مانويل وامير البحر نيستاس ؛ ونزل الروم ارض صقلية فى ناحية المضيق الذى يفصل بينها وبين ايطاليا ويسميه العرب المجاز وكان الجند الرومى مؤلفاً من جماعات الاغريق والمجوس و لارمن والروس في قوة لم تطأ ارض الجزيرة مثلها من قبل .

وضع المسلمون قوتهم وكانت قليلة العدد بالنسبة لقوة الروم تحت امرة القائد الحسن بن عمار وسار هذا على راس المجاهدين المسلمين يقف في طريق الجند الرومى ويحول بينه وبين الوصول الى رمطة .

استعد الحسن المعركة فوضع جنداً في مضيق بنقش وجنداً آخر فى مضيق دمنش ، وهما طريقان جبليان وعران ؛ وعلم قائد الروم مانويل بذلك ، فارسل فرقتين من الجند قويتين لتقتحم كل واحدة منهما مضيقا وتنتزع من ايدي المسلمين طريق ورود النجدة والمدد .

التقى الجمعان وزحف المسيحيون فى ستة مواكب فاحاطوا بالمسلمين من كل ناحية نظراً لكثرة عدد الروم وقلة عدد المسلمين فجاهد المسلمون جهاد المستميت وتغلب عليهم الروم فتقهقروا حتى وصلوا خيامهم وايقن الروم انهم فازوا وغلبوا واستولوا على معسكر المسلمين .

لكن هنالك قوة يصعب التغلب عليها ويستحيل قهرها الا وهي قوة الروح قوة الايمان ، قوة العزيمة ؛ تلك قوة تستطيع ان تغلب وان تتغلب ، وتستطيع ان تفرض ارادتها وتنتصر اذا ما خارت قوى المادة وضعفت .

رأى المسلمون انفسهم نقطة ضعيفة وسط لجة من قوى الروم وعلموا ان هم خسروا المعركة فصقلية كلها قد ضاعت ، ومسلموها اصبحوا عبيدا ومساجدها صارت محطمة وعمرانها امسى خرابا ؛ ثم علموا ان النصر لمن صبر الساعة الاخيرة فتشجعوا بعد وهن ؛ وتغلبوا على ما اصابهم من ضعف وروعة ؛ وجمع الحسن ابن عمار رضي الله عنه جماعة صادقة من المسلمين وقال : اللهم ان بني آدم قد اسلموني ، فلا تسلمني . وحمل معهم حملة الابطال على جماعة الروم وتبعه رجال المسلمين من كل صوب ورأى مانويل ان رجال الروم قد اصابتهم الدهشة من هذه الصدمة التي لم تكن منتظرة ، فصاح بهم : اين افتخاركم بين يدي الامبراطور واين ما ضمنتم له في هذه الشرذمة القليلة ؟ واشتدت المعركة وسالت الدماء ، وتناثرت الاشلاء وتساقطت الجثث ، وتغلب المسلمون القليلون على الروم الكثيرين واقتحم احد مجاهدي المسلمين صفوف الروم فوصل الى القائد مانويل وارداه قتيلا

واذ كان النصارى يقاسون كربا ثقيلا والمسلمون يمعنون فيهم قتلا واسراً ، ثارت زوبعة شديدة ورعد وبرق ، فاشتد بهم الرعب والفزع واصبحوا لا يفكرون الا في النجاة بالنفس ، وصدق الله تعالى قوله : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) .

انهزم الروم لا يلوون على شيء ، فمالوا في انهزامهم الى جهة ظنوها سهلة وطيئة توصلهم الى ساحل البحر فاذا هي جهة وعرة صعبة المسالك ادت بهم الى جرف خطير عظيم فسقط الكثير منهم فيه ؛ وامسوا هنالك يقتل بعضهم بعضا والمسلمون ينهالون عليهم ضربا بالسهام والسيوف ، فما انقضى اليوم حتى ترك الروم نحو العشرة

آلاف قتيل على اديم الارض ؛ وانهزمت بقاياهم شريدة حتى وصلت الاسطول فنجت بنفسها فيه ، وباء المسلمون بنصر عظيم فى معركة من اروع واشد واغرب معارك القرون الوسطى ، وكان ذلك يوم عرفة من سنة ٣٥٤ (٢٤ أكتوبر ٩٦٥) وجاء المسلمون بالبشرى الى بالرمة ، والامير احمد ابن الحسن يسوق الغنائم والاسلاب والاسرى ، وخرج الامير الحسن بن علي للقاء ابنه مهنئا المسلمين بانتصارهم وفوزهم ، واصابته حمى من شدة تأثره وسروره في ذلك اليوم العظيم ، فمات رحمه الله من اثر ذلك بعد ولاية دامت نحو العشرين عاما ، كانت غرة في جبين الدهر ، وآية من آيات المسلمين اظهروا فيها ما يستطيعون القيام به من جلائل الاعمال فى الحروب والسياسة والعمران ، ان هم وحدوا جهودهم وجمعوا كلمتهم ووجهوا هممهم للقيام بالرسالة الكبرى التي اختارهم الله لادائها في تلك العصور الوحشية لاخراج الناس من الظلمات الى النور .

احمد بن الحسن بن علي

اجمع الناس امرهم على توليته وحده بعد ابيه ، وقد كان كما علمنا مشاركا له فى الحكم والتدبير والحروب طيلة حياته .

الاجهاز على الروم — لم يضع الوقت سدى ، ولم يرد ترك الروم يجمعون من جديد فلولهم لاعادة الكرة بعد نكبتهم الكبرى ، فبادر بمهاجمتهم بخيله ورجله وفاجأهم في المعاقل التي التجأوا اليها ، فاسترجع رمطة واسر من كان بها من بقاياهم ثم اجتاز البحر مسرعا الى قلورية ، فاحرق فى رجيو اسطول الامبراطور واسر امير البحر نيساتاس ، وارسل به مع عدد جسيم من عظماء الروم المأسورين الى بلاط الخليفة فى المهدية ، ويقول بعض المؤرخين ان من جملة الغنائم التي وجه بها الى المهدية سيف هندي بديع الصنع منقوش عليه : « سيف هندى ، وزنه مائة وسبعون مثقالا طالما ضرب به بين يدى رسول الله »

الصلح — اذعن الروم للامر المقضي ، وعلموا انهم لن ينالوا من مسلمي صقلية منالا ، وان آمالهم خابت هنالك بصفة نهائية ، فعزموا منذ تلك الساعة على عدم التدخل مطلقا فى امور الجزيرة ، وارسلوا وفداً من القسطنطينية حل بمدينة المهدية وتقدم امام الخليفة المعز ، يطلب الصلح ويعلن جهاراً عزمهم على عدم العودة ، ويقدم للخليفة ولرجال بلاطه واعيان دولته هدايا نفيسة ، وتعاقد الجانبان على ان لا يعود الروم مطلقا لساحة صقلية ، ومقابل ذلك يخلى المسلمون طبرمين ورمطة لكي يسكنها المسيحيون من نصارى الجزيرة .

كانت هذه غلطة سياسية كبرى ارتكبها المعز ورجال شوراه ، لانها مكنت النصارى من شرق الجزيرة بعدما اخرجتهم منه شدة شكيمة المسلمين ، ولان تلك البقاع اصبحت فيما بعد ؛ كما سيمر بك ، مركزاً من مراكز جهاد المسيحية ضد الاسلام بهاتيك الديار على بد الترمان .

اصدر الخليفة امره المطاع للامير احمد بن الحسن ؛ باخلاء مدينتى رمطة وطبرمين تنفيذاً للمعاهدة ، فاغتم المسلمون من ذلك وتألموا ألماً عظيما واذعن الامير احمد للامر ، الا انه عمد قبل ذلك لتخفيف وقع تلك الغلطة فارسل أخاه ابا القاسم صحبة عمه جعفر على رأس جماعة من المسلمين ، فاخرجوا من المدينتين كل السكان واعملوا فيها المعاول والفؤوس فلم يتركوا فيها حجراً على حجر واحرقوا بالنار هاتيك الانقاض فلم يتركوا للمسيحيين تنفيذاً للمعاهدة الا ركاما من خراب ورماد .

ختان اطفال الجزيرة — ساد الجزيرة عهد فرح وسرور وامن اثر ذلك النصر العظيم واقبل الناس على اعمالهم العمرانية وانشأ انهم يصلحون ماافسدته ايدى الفتن السالفة وما اوقفهم سير الحروب والملاحم عن انجازه .

ومن اغرب ما حدث هاتيك الايام قبيل وقعة المجاز مما يدل على مبلغ ما

تمتعت به الجزيرة من سكون وامن وعافية اثر ولاية الحسن بن علي المباركة الطويلة وابنه وشريكه فى الحكم احمد بن الحسن وورد الامر من الخليفة المعز فى المهدية بالاحتفال فى جميع جهات الجزيرة بختان سائر اولاد المسلمين الذين هم فى سن الختان وذلك فى نفس اليوم الذي يحتفل فيه المعز فى المهدية بتطهير اولاده .

احصى الامير احمد الاطفال الذين يجب ختانهم تنفيذاً لرغبة الخليفة فكانوا خمسة عشر الفاوابتدأ الامير بتطهير اولاده واخوته في مستهل شهر المولد النبوي من سنة ٣٥١ ثم ختن اولاد الخاصة والعامة ووزعت الصلاة على سائر المختتين هدية من الخليفة الذى ارسل لصقلية بتلك المناسبة لتوزع على الاطفال مائة الف درهم وخمسين حملا من الهدايا .

أبو القاسم على

فى سنة ٣٥٨ استقدم الخليفة المعز للمهدية امير صقلية احمد بن الحسن واولاه قيادة اساطيل الدولة لما أظهره من معرفة بفنون قتالها ومهارة فى قيادتها فارتحل الامير احمد من صقلية آخذامعه عائلته وامواله ومتاعه وترك الامر فيها لاخيه ابي القاسم علي بن الحسن .

وكان هذا الامير رحمه الله من خيرة امراء الجزيرة من بنى الحسن عادلا رحيماً شديداً فى الحق مواسيا للفقراء والبائسين قال ابن خلدون وكان عادلا حسن السيرة وقال عنه ابن الاثير وكان عظيم الصدقة ولم يخلف دينارا ولا درهماً ولا عقارا فانه كان قد وقف جميع املاكه على الفقراء وارباب البر واستمرت ولايته السعيدة ١٣ سنة .

تدخل النرمان — فى هاتيك الاثناء والمسلمون في صقلية يجمعون شتاتهم ويرأبون صدعهم وقد امنوا رجوع الروم محاربين بعد ان دحروهم مرات عديدة خلال عشرات السنين كان رجال النرمان قد وطدوا عزمهم على الاستقرار بهاتيك النواحي

ووجدوا فيها المرتع الخصيب وعلموا انهم لامحالة يتمكنون منها بعد جهود ومضى وقت، ابتدأ النرمان اعمالهم بنواحي ايطاليا فاحتلوا مدن ابرنديزى وطارنطة التي كانت مركزاً لامارة اسلامية مستقلة ثم استولوا على جزيرة كرسكا واتخذوا منها مركزاً لاعمالهم ضد المسلمين ، وما كان النرمان يحاربون المسلمين وحدهم بل كانوا يحاربون الجميع على السواء ويريدون ان يبتنوا لانفسهم هنالك ملكا على حساب المسلمين والباباوية والامارات الطليانية ، وعلى حساب المسيحيين الذين جاءوا يزعمون انقاذهم من براثن المسلمين ، ثم هاجموا مدينة رومه نفسها .

رسالة البابا للامبراطور — ارسل البابا ليون التاسع رسالة صور فيها حقيقة الامة النرمانية الى امبراطور القسطنطينية يستنجده ضد هؤلاء الاقوام الوحوش ومما يقوله في رسالته تلك :

« لقد انفطر قلبي اسى مما قصه علي مندوبوا ولدي ارجيروس ؟ فيما يتعلق بفوضى الامة النرمانية وخبثها وسقوطها وازدرائها بالدين زراية بزت زراية الذين لا يؤمنون ، لذلك قد عقدت العزم على تخليص ايطاليا من جبروت هؤلاء الاجانب الذين اندفعوا على البلاد متكالبين لا يحترمون شيئا ويذبحون المسيحيين بعد اذاقتهم انواعا من العذاب الاليم ، ثم انهم ليست لهم اي عاطفة انسانية ، فهم لا يميزون بين كبير ولا صغير ولا بين رجل وامرأة ، وانهم لينتهبون الكنائس المقدسة ثم يحطمونها ويوقدون فيها النيران ولطالما لمت عليهم وشنعت باعمالهم وانذرتهم وحذرتهم عقاب الله ونقمته لكن صدق الحكيم الذى قال : ان من تخلى عنه الله بقي سرمداً فى الشقاء ؟ ولن يرجع الكلام العقل الى المجانين » .

ولم يتلق البابا جوابا من الامبراطور الذى ترك نهائيا امر صقلية وايطاليا ، فاستنجد بالالمانيين الا ان اسقفهم اشار عليه بعدم محاربة رجال ينتسبون الى المسيح فما وسع البابا الا جمع جند باسمه وتحت رايته وحارب النرمانيين فانخذلت جموعه ،

وانكسر ووقع بنفسه اسيراً بين ايديهم ، فتذلل لهم واستغفر ؛ ورفع عنهم حكمه الذى اصدره بكفرهم ؛ وبارکهم فى جهادهم ؛ لكنهم رغم كل ذلك ابقوه اسيراً عندهم عاما كاملا الى ان افتدى نفسه منهم بدفع جعل ذريع .

قال قوسطاف لوبون فى تاريخه الشهير «مدنيات العرب» عن هذه الفترة من فظائع النرمان ومقابلة رجال الكنيسة لهم بالمثل مانصه :

«واستمر النرمان على اعمالهم اذا ما تمكنوا من كنيسة انتهبوها ثم ذبحوا كل رهبانها ليامنوا عاقبة شكواهم وكان الرهبان يقابلون اعمال النرمان بمثلها اذا ما تمكنوا منهم واليك وثيقة عثر عليها مسيو ابريمودرى ، فى خزائن ديرجيل كاسان وهى تعطيك صورة صادقة لعادات ذلك الزمن :

«ذات يوم جاء الكونت رودولف ومعه خمسة عشر من رجال النرمان لكنيسة جبل كاسين فتركوا عند بابها اسلحتهم وخيولهم حسب العادة المألوفة ودخلوا لاداء الصلاة لكنهم لم يحسنوا اختيار الوقت اذ بينما كانوا جاثين على الركب امام مذبح القديس بونوا اوصد رهبان الكنيسة ابوابها واستحوذوا على اسلحة المصلين وخيولهم ، ثم دقوا اجراس الفزع والاستنجاد فاجتمع عليهم الناس من اجوار الكنيسة وهاجموا النرمانيين الذين لم يكن لهم بين ايديهم الا المسابح ، ثم انهم حاولوا عبثاً تذكير الهاجمين بحرمة الكنائس ، وحاولوا كذلك عبثا اقناعهم بالحرجات من الايمان انهم ما جاءوا الا قصد التبتل والعبادة ومصالحة رجال الكنيسة فان رجال الدين كانوا قد وجدوا الفرصة المناسبة فاغتنموها وقتلوا الخمسة عشر رجلا عن اخرهم ، ولم ينج الا الكونت ردولف وحده ، اذ قد حماه الدير وما اطلق سراحه الا بعد ما ارجع للرهبان كامل اموال وذخائر الدير التي كان قد انتهبها هو ورجاله من قبل »

نتيجة التدخل النرماني — من نكد الدنيا على مسلمي صقلية ، انهما كادوا يجمعون

امرهم حول استقلال داخلي واسع النطاق ، ويتولى امر الدولة فيهم رجال كرام من آل الحسن بن علي ، يتوارثون الامارة و يصونون مركزها ولو الى حين من مطامع الطامعين وعبث العابثين ، وما كاد ينتهي تهديد الروم وتخفق نهائيا حملاتهم القوية العنيفة المتوالية ، منذ قرن ونصف القرن ، ماكاديتم كل ذلك بعد طول الجهاد وشديد البلاء حتى كان المسلمون يواجهون خطراً اكبر من هاتيك الاخطار السالفة ويقابلون عدواً اشد عنفاً واقوى ساعداً وافظع اعمالا من اعداء الخارج والداخل مجتمعين ، ذلك هو الخطر النرماني الذي ما زال بتلك الجزيرة حتى انهك قواها واسقطها مجندلة تحت مخالبه المفترسة .

فكانت سائر ايام الدولة الحسنية بصقلية ، انقضت الى جانب اعمال باهرة في ميدان العمران بالداخل ، في حرب مستمرة عنيفة متوالية مع رجال النرمان المغيرين وقبل ان ندرس تفاصيل هذه الحروب والمعامع في الصفحات التالية نرى ان نسجل حكما اصدره على هذه الفترة المؤلمة وعلى اعمال النرمان فيها المؤرخ الاكبر الدكتور قوسطاف لوبون حيث قال :

« أخذ هؤلاء المدافعون عن الدين المسيحي ، يتفانون في اعمال السلب والنهب سعياً وراء الثروة ، اكثر من تفانيهم في الدفاع عن الدين و كانوا ينتهبون ارزاق اليونانيين و الطليانيين والمسلمين بقسوة وشراسة متساوية فبقيت صقلية و بلاد ايطاليا المجاورة لها مدة خمسين عاماً اي مدة الفتح ، تعتبر في نظر هؤلاء المدافعين عن الدين المسيحي ، بلادا وهبها الله لهم كي يكتسبوا فيها الثروة والغنى بكامل السهولة والبساطة .

« وما كان لاعمال هؤلاء المدافعين عن المسيحية من نتيجة ، الا خراب الجزيرة بصفة سريعة ، حتى ادرك اهلها (المسيحيون) ان صداقة فرسان النرمان لهم كانت اثقل وطأة عليهم من عداوة المسلمين »

الفاطميون بمصر — لم تكن الدولة الفاطمية التي درجت بين احضان كتامة بارض المغرب لتكتفي بما نالته من عزة وسلطان في بلاد الشمال الافريقي، حتى حدود برقة ، بل كانت ترمي بانظارها الطامعة صوب بلاد الشرق ، تريد ان تقيم على انقاض الخلافة العباسية الواهية ، وعلى انقاض الدويلات الاسلامية التي صيرت الشرق الاسلامي رقعة شطرنج بائسة دولة شيعية علوية تضم تحت لوائها ما فرق امره بنو العباس بضعفهم وتخاذلهم وتغلب الموالي والدخلاء على دولتهم .

كيف كان العالم الاسلامي والعربي يومئذ ، والحرب الصليبية الاولى تتقد في صقلية وايطاليا نيرانها ، والحرب الصليبية الثانية التي يدعوها المؤرخون غلطا الاولى تختمر في افكار رجال التعصب المسيحي ؟

كانت بغداد واكثر بلاد العراق وفارس تحت حكم دولة بني بويه التركمانيين الذين لم يتركوا للخلافة الا الاسم وجلال اللقب ؛ وكانت مصر واكثر بلاد الشام في يد بني الاخشيد ، والموصل وديار بكر ، في يد بني حمدان ؛ وخراسان وبلاد التركمان وراء النهر في يد بني سامان ، وطبرستان وجرجان في يد ملوك الترك الديلم ، والبحرين واليمامة والكثير من جزيرة العرب في يد القرامطة .

اما المغرب الاسلامي فقد كان زاهراً يانعا في الاندلس ، تحت سلطان الامويين ؛ يواجه الحملات المسيحية في ذلك العهد بجهوده الخاصة (١)

---

(١) كان يتولى الخلافة يومئذ بالاندلس الحاكم بن عبد الرحمان الناصر ؛ وبلغت الحضارة في عصره شأوا بعيدا ، وقد كان مغرما بجمع الكتب فارسل الناسخين لكل بلاد كي ينقلوا له كل المؤلفات الحديثة فتوفر له عدد في مكتبته لم يتوفر مثله لملك من قبل وجعلها مكتبة عامة في قصر مروان ، ولها خدمة وقيمون وام قرطبة جمع غفير من الادباء والعلماء ورجال الفن من سائر الاصقاع ، وبلغت عندئذ مدنية الاندلس الاسلامية اوج عزها ومنتهى ازدهارها .

رأى المعز لدين الله الفاطمى ان ساعة الضربة الحازمة قد آنت ، فارسل قائده جوهر الصقلي او الصقلبي على رأس جند عتيد من المغاربة ، وقد كان اهل مصر راسلوا المعز ورغبوه فى فتحها ونصب سلطانه عليها تخلصا من مظالم بني الاخشيد والاضطرابات المتوالية فحط جوهر اثقاله تجاه مدينة الفسطاط ففتح له اهلها الابواب ودخل مصر دون قتال ولاعناء ، وذلك فى رمضان سنة ٣٥٨ ، فخطب في مسجد عمر بن العاص للخليفة المعز ؛ ودانت له سائر الناس ، ثم سير القائد البربري جعفر ابن فلاح الكتامى ، فاجتاز الى ارض الشام ومعه جند عتيد فافتتحها وخطب فيها للمعز واصبحت الدولة الفاطمية تمتد من ساحل المحيط الاطلسي الى ضفاف الفرات .

ثم اختط جوهر الصقلي مدينة القاهرة المعزية ، (وانما دعاها القاهرة لانه وضع اسسها عند توسط كوكب المريخ المعروف عند العرب بالكوكب القاهر) فابتنى فيها الدور والقصور ، واسس الجامع الازهر الشريف سنة ٣٥٩ ، واتمه سنة ٣٦١ ثم سار المعز ومعه حاشيته ورجال دولته والقناطير المقنطرة من امواله فدخل مدينة القاهرة فى رمضان سنة ٣٦٦ ؛ واتخذها مقراً لخلافة الفاطميين العبيديين ؛ حيث مكثت هنالك الى ان انقضت ايامها سنة ٥٦٧ ، بموت العاضد لدين الله وقيام الدولة الايوبية على يد بطل الاسلام الخالد الذكر صلاح الدين الايوبي الكردى .

كان انتقال مركز الدولة من المهدية الى القاهرة ، حدثاً من اكبر الاحداث فى تاريخ صقلية الاسلامية حيث ان الخليفة قد عين لولاية المغرب احد رجاله المعدودين هو الامير يوسف بولقين بن زيري بن مناد ؛ رأس قبائل صنهاجة البربرية العتيدة ؛ ولم يجعل له سلطة فعلية على صقلية ، فبقيت الجزيرة تابعة رسميا لمركز الخلافة بالقاهرة البعيدة الناظرة لآفاق اخرى ؛ انما كانت مستقلة بصفة فعلية تحت امرة الملوك من بنى الحسن ابن علي ؛ وكان ذلك من جملة اسباب

تدهور الحكم الاسلامي ، اذ كانت دولة صنهاجة مستقلة بتوطيد ملكها وتوسيع عمرانها وتدعيم مدنيتها التى بلغت أوج منعتها وعلاها ايام المعز ابن باديس وكانت دولة الفاطميين فى القاهرة تنظر الى الشرق ولا تكاد تنظر الى الغرب ؛ وبذلك خلا الجو لوحوش النرمان يفترسون كما شاءوا مسلمي الجزيرة حتى اذا ارادت دولة صنهاجة امدادهم وانقاذهم كان الخطب قد اتسع على الراقع ، وتدهورت الدولتان معا ؛ دولة صقلية على يد النرمان ودولة صنهاجة على يد الاعراب من بنى هلال وسليم .

ولنرجع الآن — بعد هذين التمهيدين — لدولة ابى القاسم علي ، المعروف بالشهيد ، ولنسجل في هذه الصفحات اعمالها :

استمرار الفتح — فى سنة ٣٦٥ (٩٦٨) سار الامير ومعه جماعة من العلماء وكبار القوم على رأس قوة عتيدة لمنازلة مدينة مسينا التي كان العدو قد اتخذها مركزا لاعماله ضد المسلمين ، فنصب الحصار على تلك المدينة الى ان ضاق اهلها ذرعا فخرجوا يسألونه الامان ويعلنون الطاعة فاجابهم للصلح رحمة بهم وتقاضى منهم مال الجزية .

ثم سار يوالي فتح ما استولى عليه الفرنج من ارض الجزيرة وقلورية فافتتح مدينة أغاثة Santa Agata وغنم جميع ما اعده المسيحيون فيها .

ثم امر سنة ٣٦٦ بتجديد بناء مدينة رمطة ، وقد كان حطمها الامير احمد بن الحسين ، كيلا تكون مركزاً للمسيحية ، وفى تلك السنة سار على راس المسلمين الى مدينة طارنطة فى جنوب ايطاليا ، وقد اتخذها النرمان مركزاً لاعمالهم وقرصنتهم فتحصن المسيحيون بها ، واستعدوا للنزال ، وهاجمهم المسلمون بقوة وعنف فاقتحموا الاسوار وكسروا الابواب ، وافتتحوها عنوة واقتداراً واصدر الامير امره بدك جدرانها ، واعفاء مراسمها ، كيلا تكون داعيا لرجوع العدو مرة اخرى ومركزاً

لاعماله ضد المسلمين .

انتصار قلورية واستشهاد الامير — بينما كان زعيم النرمان برودويل يستعد لمقارعة المسلمين ويحتل بعض المواقع على السواحل الصقلية ؛ نزل الامبراطور الالماني اوطون الثاني يوطد ملكه بالبلاد الطليانية ، فيحتل روما ويصمد لمقارعة المسلمين ولقد خشي الروم زوال سلطانهم وانتهاء نفوذهم على يد الالمان فاستصرخوا المسلمين بصقلية فهب الامير ابو القاسم للقاء جموع الالمان والنرمان واراد المبادرة باحتلال كسنته مركز المسيحيين المنيع، وكان هؤلاء قد استعدوا للقائه فى بلاد قلورية فدارت المعركة العنيفة الهائلة فى موقع غير ملائم للمسلمين بمضيق بين جبلين يمكن للنصارى ان يحدقوا فيه بالمسلمين من كل ناحية فرأى ابو القاسم وجوب الانسحاب فوراً ليتلقى صدمة النصارى في منبسط من الارض يمكنه فيه ان يدبر حركاته بكل حرية

لكن النصارى لم يتركوا المسلمين فسحة من الوقت لانجاز تلك العملية وتتبعوهم بشدة وعنف فكاد الانسحاب الجزئي ينقلب انهزاما كليًا واستمر ذلك التتبع مدى خمسة عشر يوما حتى وصل المسلمون الى مكان فسيح عند ساحل البحر وتكاثر عليهم جند الفرنج ، واحاطوا بهم من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة منهم قلب المعسكر الاسلامي حتى بلغت مكانا اتخذه الامير ابو القاسم مقراً لقيادته وقد كان راكبا جواده وحوله خاصة رجاله ؛ فاقتتل الجميع هنالك ، وضرب احد جنود الالمان الامير ابا القاسم ضربة هائلة من سيفه شقت هامته وخر رحمه الله صريعا شهيداً على شاطيء البحر واستمرت المعركة عنيفة هوجاء ولم يعلم المسلمون ولم يعلم النصارى ما حل بالملك المسلم الشهيد .

ثم اجتمعت ميمنة المسلمين وميسرتهم حول القلب فسدوا الثلمة التي احدثها النصارى هنالك ، وقاموا فى الحين بهجوم مضاد ادهشت شدته جموع النصارى فانقلبوا على اعقابهم وتتبعهم المسلمون يثخنون فيهم قتلا ، واستولوا على سائر

محلات المنهزمين وعددهم وسلاحهم ، واسفرت المعركة عن قتل اربعة آلاف من الفرنج وجرح الامبراطور اوطون جرحا ادى الى موته فى دسامبر ٩٨٣ بعد ان التجأ متهزما خائبا الى رومة (١) .

ثم حمل المسلمون جدث اميرهم الكريم فنقلوه الى صقلية حيث ووري التراب ، رحمه الله رحمة واسعة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٧٢ (٩٨٤) .

جابر بن ابي القاسم علي

اجمع الناس يومئذ على نصب ابنه جابر ؛ اميرا مكانه ، علّه يقتفي خطى والده الموفقة ؛ لكن الولد لم يكن هذه المرة نسخة من ابيه ؛ وهل تلد النار الا الرماد ؟ فان جابرا ترك امر الجهاد وتدبير الملك واشتغل بالملاذ حسب عبارة ابن خلدون واضطربت احواله .

ولم يكن الخليفة الفاطمي فى مصر قد اعترف بهذه الولاية ولم يقرها بعد فاجتمع جند صقلية واهل العقد والحل فيها ؛ واعلنوا خلع جابر وترقبوا قدوم ابن عمه الوالي الجديد الذى عينه الخليفة الفاطمي :

جعفر بن محمد بن الحسن بن علي

كان من نخبة الامة ، وعلية القوم وكان من أصحاب الرأي والتدبير والمكانة السامية فى بلاط الخليفة العزيز بالله ابن المعز لدين الله ، وقد كان الوزير ابن كلس يغار من جعفر ويحسده على مكانته ، فعندما جاء الخبر باستشهاد الامير ابي القاسم علي اشار ابن كلس على الخليفة بتولية جعفر بن محمد مكانه ؛ يريد بذلك ابعاده عن البلاط والتخلص من نفوذه .

---

(١) يقول بعض مؤرخي الفرنج ان المسلمين اسروه ولم يعلموا انه الامبراطور ثم اطلقوا سراحه مقابل مال جزيل افتدى به نفسه ؛ بينما يقول آخرون انه نجا من الاسر بفضل سفينة رومية امكنه الالتجاء اليها .

قبل جعفر الولاية وهو كاره لها ، وسار الى صقلية أخذاً معه اليها القائد التركي سبستكين الذى كان حسب عبارة ابن الخطيب فى اعمال الاعلام من جملة الترك الموصوفين بالشجاعة .

وصل جعفر صقلية يوم الاربعاء ٢٥ صفر سنة ٣٧٣ ، فسلم له جابر الامر عن طيب خاطر بعد ان حكم حكماً جائراً مدة سنة ؛ واستبشر الناس خيراً بولاية جعفر الذى سبقت شهرته طلعته ومهدت سمعته له الامر ؛ حسنت الاحوال ، واستقامت الامور وانزوى رجال الرمان اثر هزيمتهم الشنعاء السالفة ؛ فاخذ جعفر يصلح ما فسد ويرمم ما تهدم ويعمر البلاد وقد جمع حوله ثلة صالحة من رجال العلم والادب وكون في قصره بالرمة بلاطاً ملوكيا فاخرا ؛ وكان رحمه الله من فرسان الميدان فى الشعر والادب والعلوم .

من اجل جارية يخرب ملك — كانت للخليفة بالقاهرة جارية صقلية عزيزة عليه محببة اليه ، وكان اخوها راهبا في البلاد الصقلية ذا مكانة وملك فبلغت الجارية من قلب الخليفة الضعيف مبلغا جعلته يقبل مطالبها ، ويذعن لمنيتها ، فيرسل الى جعفر امير صقلية ، يامره بان يرجع للراهب اخي جاريته ، قلاع : بنقش ، وطبرمين ورمطة ؛ وان يرجع اليه مع ذلك كل سبي عنده قديم وحديث من تلك البلاد وبعد شهر من ورود امر الخليفة ، جاء الراهب صقلية ، يستنجز الامير تنفيذ ما امره به خليفة القاهرة .

علم جعفر انه ان نفذ ذلك الامر فكانه قد نفذ حكم الاعدام على الجزيرة لأنه سيمكن النصارى من قاعدة ما استطاع المسلمون تحطيمها الا بعد جهاد مأية عام وعظم عليه كذلك ان يعلن عصيان الخليفة ، ويرفض تنفيذ امره ، انما عظم عليه اكثر من ذلك ان يخرب ملكا من اجل جارية فعمد الى حيلة الاريب وسياسة

الداهية فانقذ صقلية من الخطر واحرز على رضى الخليفة فى آن واحد واليك البيان :

انزل جعفر الراهب الملك فى قصر واحاطه بالعيون ، ومنع عنه الاجتماع بمن يريد من الناس وابقاه كذلك نحوا من اربعة اشهر ثم تظاهر انه يريد تنفيذ الامر المطاع فجمع للراهب ، بصفة سبي يجب ارجاعه ، جماعة من الشيوخ والعجائز والمرضى ، واصحاب العاهات ، فدفعهم اليه وامره بالرحيل بهم حالا فضاق الراهب بذلك ذرعا ؛ وما وسعه الا الفرار سراً من صقلية والذهاب الى القسطنطينية ومن هنالك راسل الخليفة العزيز واعلمه بان عامل صقلية لم ينفذ الامر .

كان جعفر يعلم ان الراهب سوف يوالى دسائسه وان الآمرة الناهية في قلب العزيز ستستعمل اقصى جهود المرأة المدالة ، للوصول الى غايتها ، فبادر ، انجازاً للحيلة ، باقتناء مركب اندلسي شحنه من ماله بسائر تحف الاندلس وطرائفها وكتب للخليفة يقول : ان ابن ابي عامر المعروف في التاريخ باسم الحاجب المنصور صاحب الامر ببلاد الاندلس ، قد راسله يرغب اليه امر الدعوة الاموية ، ويدعوه للانضواء تحت لوائها وانه يرسل له من خيرات الاندلس ويقطعه من اعمالها ماشاء وانه هاداه بالمركب المشحون بالنفائس الثمينة ترغيباً له لكنه امتنع من قبول تلك الدعوة وأصر على ولاء الفواطم بالقاهرة .

انطلت الحيلة على العزيز ، فبادر بمراسلة العامل الصقلى يشكره على امتناعه مما دعاه اليه زعماً صاحب الاندلس ويحضه على التمسك بما كان عليه محمد ابوه وحسين جده وبقية آل الحسن من الطاعة والولاء .

وأعرض الخليفة بعد ذلك عن اجابة مطلب الراهب ، والانقياد لرغبة المحبوبة فذهبت جهود الاخت واخيها سدى وكفى الله المؤمنين القتال ، بواسطة السياسة والدهاء .

واستمر الامير جعفر يحكم صقلية حكماً عادلا نزيها ، والامة مقبلة على اعمالها

واعداء الخارج راكدون ، واعداء الداخل نائمون ، الى ان توفاه الله ، بعد سنتين من ولايته ، سنة ٣٧٥ .

عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي

بايع الناس بالامارة بعد جعفر ، شقيقه عبد الله فحقق الامير الجديد آمال الامة فيه وسار سيرة شقيقه الصالحة ناصحاً اميناً ، مقيماً للعدل ، رحيماً بالرعية ، ولم تطل ايامه في الملك اذ وافاه الاجل يوم ٢٣ رمضان سنه ٣٧٧ .

أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد

ولي الامر ، بارادة الامة ، بعد ابيه ، وكان غلاماً انما توهم الناس فيه خيراً فوجدوا فيه خيراً ، وكان حسب كلمة ابن خلدون « قد انسى بجلائله وفضائله من كان قبله منهم . »

وقد وصله سجل الولاية من الخليفة بالقاهرة ومنحه لقب ثقة الدولة وكانت ايام الناس في مدته ، كما يقول ابن الخطيب في اعمال الاعلام ، على افضل ما يشتهون وقد ضبط البلد ضبطاً محكماً ، وظهر من كرمه وجوده وسماحته ، مالا يفي به وصف ، وعم العدل والرخاء والامن والاطمئنان سائر جهات الجزيرة ، ولم يتحرك في وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها .

قال الشاعر الكبير ابو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة يمدحه من قصيد طويل :

اغر ، قضاعي يكاد نواله ... لكثرة ما يدعو الى الشكر يجحف
اذا نحن اخلفنا مخائل ديمة ... وجدنا حيا معروفه ليس يخلف
ويقظان شاب البطش باللين فالتقى ... بكفيه ما يرجى وما يتخوف
حسام على من ناصب الدين مصلت ... وستر على من راقب الله مغدف
يسايره جيشان : رأى وفيلق ... ويصحبه سيفان : عزم ومرهف

مطل على من شاءه فكانما ... على حكمه صرف الردى يتصرف
يرى رأيه ما لا ترى عين غيره ... ويفرى به ما ليس يفرى المثقف
رعى الله من ترعى حمى الدين عينه ... ويحمى ربى الاسلام والقبل اغضف
ومن وعده فى مسرح الحمد مطلق ... وايعاده فى ذمة الحكم موقف
ومن يضرب الاعداء هبراً فتنثنى ... صناديدهم و البيض بالهام تقذف
رماهم بمجر ضعضع الارض وزه ... كأن الروابى منه بالنبل تـدلف
كأن الردينيات فى رونق الضحى ... اراقم فى طام من الآل ترجف
يعود الدجى من ليله وهو ابيض ... ويبدو الضحى من نقعه وهو اكلف
ويحجب نور الشمس بالنقع عنهم ... فتعل الظبا فى هامهم لا يكيف
لهم كل عام منك جاوز فيلق ... يسائل عنهم بالعوالي فتلحف
اذا ماطووا كشحا على فرح عامهم ... وبلوا من الآلام انشات تقرف
فكم من اغم الوجه عار تركته ... وهاديه عثنون ولحيه اكثف
لعمري لقد عاديت في الله طالبا ... رضاه وقد ابليت ما الله يعرف
فطالبتهم في الاهل حتى تركتهم ... فرادى وفي الاديان حتى تجففوا
فيا ثقة الملك الذى الملك سهمه ... يراش لاكباد الاعادي ويرصف
... وقائلة بالسعد نجلك جعفر ... فيا لك من عبد بملكين يتحف
فازلت تستجدى فتولى وترتجى ... فتكفى وتستدعى لخطب فتكشف

اقناه ولايته ، مات في بلبيس بمصر سنة ٣٨٦ ؛ الخليفة العزيز بالله ، وتولى الخلافة بعده اشقى عباد الله وشيطان الخلفاء الرجيم الحاكم بامر الله ؛ فاستوزر الحسن بن عمار بن علي ، وهو ابن عم امير صقلية المصلح العظيم .

صفحة سوداء فى تاريخ الفاطميين — ارى أن اذكر هنا استطراداً ، وقد جرنا الحديث لذكر الطاغية الحاكم بامر الله ، شيئا من سيرة هذا الجبار العنيد

انرى الى حد انحطت اخلاق المسلمين فى الشرق وماتت قوتهم المعنوية وبلغت بهم الذلة والمهانة ، حتى صيروا الحكم كافر جبار ، فاسق فاجر ؟ فكأنهم هم الذين خاطبهم معروف الرصافى رحمه الله بقوله :

عجبت لقوم يخضعون لدولة   يسوسهم بالموبقات عميدها
واعجب من ذا انهم يرهبونها   واموالها منهم ومنهم جنودها

فكان يامر ببناء الكنائس والمساجد والبيع ، ثم اذا ما تم بناؤها امر بهدمها على رؤوس من فيها ؟ ثم ادعى انه صورة الله ، وان روح الله حلت فيه ، فامر بان يقف الناس اجلالا لاسمه عندما ينطق به الخطيب في صلاة الجمعة ، فاطاع الناس من نذالتهم امره حتى فى الحرمين الشريفين ، وامر بهدم كنيسة القيامة فى القدس الشريف سنة ٣٩٧ (١٠٠٩) فاحدث بذلك رجة هائلة فى العالم المسيحي كله ، مع ما يصحب ذلك من المبالغات الشعبية ، واذكى بذلك ناراً كانت تتقد استعدادا للحروب الصليبية ، وادعى ذلك الفاسق الشرير الظالم السفاك للدماء انه يعلم الغيب مع الله ؟ فوضع له رجل على المنبر هذين البيتين :

بالجور والظلم قد رضينا   وليس بالكفر والحماقة
ان كنت اوتيت علم غيب   بين لنا كاتب البطاقة

وما انجى المسلمين من شروره وآثامه الا اخته ، وويل لامة تعمل امرأة واحدة فيها مالا يعمله سائر الرجال مجتمعين ؟ ويقال انه اراد منها منكراً فدست له فى جهة حلوان من قتله عندما كان يترصد النجوم وذهبت روحه الشريرة الى نقمة الله وعذابه السرمدى .

فليقابل الناظر بين هذا الملك الطاغية ، وما عاناه مسلمو المشرق في نذالة وضعة واستكانة فى ايامه وبين ما كان مسلموا صقلية يتمتعون به من امن ورفاهية واطمئنان .

وان اردت ان تعرف مدى ما اصق بالدين في هذا العهد المظلم من خرافات واباطيل وبدع منكرة صيرت الاسلام نوعاً من الوثنية او شراً من الوثنية ، فاسمع لابن ابى دينار يقول في كتاب « المؤنس » :

« وكان بعض شيعته من المغاربة يزعم انه يعود فكانوا اذا راوا سحابة في الجو سجدوا لما زعما منهم انه في السحاب » .

تاج الدولة جعفر بن يوسف بن عبد الله

استمر الامير يوسف ، يدير امور صقلية ادارة عادلة رحيمة ، الى ان قضى الله عليه بداء الفالج ، اصابه سنة ٣٨٨ (١٠٠٠) فعطل جانبه الايسر ، واتفق الناس معه على تسليم امر الدولة ، لابنه جعفر ، ففعلوا ووضعوه على كرسي الامارة وراسلوا بذلك طاغية الفاطميين بالقاهرة الحاكم بامر الله فصادق على ذلك وارسل لجعفر سجل الامارة واعطاه لقب « تاج الدولة سيف الملة »

ثورة علي — في ايامه انتهى عهد النظام والامن والرفاهية وابتدأ عهد التدلى والسقوط الذي انتهى بزوال سلطان المسلمين من الجزيرة ووقوعهم تحت سلطان النرمان .

رأى علي بن يوسف انه احق بالامارة من اخيه فاستمال اليه جماعة من البربر الذين يتبعون كل ناعق ابتغاء الفتنة وجماعة من العبيد وتصدى لمحاربة اخيه .

جمع جعفر جموعه وخرج للقاء الأخ الخائن فاشتعلت الحرب بين الاخوين وتمكن جعفر من اخيه الغادر فقتله وقتل من نصره من البربر والعبيد ثم امر بنفي جند البربر اجمعين من صقلية فنفوا منها وامر بقتل سائر العبيد وجعل جنده من اهل صقلية المسلمين خاصة فقل بذلك حسبما يرويه البكري جنده وسبب له انهيار ملكه .

ثورة الامة — كانت سيرة جعفر اول امره حسنة مقبولة الى ان استوزر كاتبه

حسن بن محمد الباغائي وكان فظاً غليظ القلب وسلم له السلطة واطلق يده في الاعمال فاستخف هذا الوزير الوصولي باعيان الامة وشيوخ البلاد وقوادها وامعن في اهانتهم وسلك سياسة اقتصادية تخالف ما الفته البلاد ففرض الجباية والاعشار على طعام الناس وثمارهم وكانت عادتهم من قبل ان يدفعوا عن كل زوج بقر شيئاً معلوما قلت محصولاتهم او كثرت ؛ ولو انه احسن المعاملة واخذ الناس بالحسنى وخاطبهم باسم الدين لكانت سياسته انجح وخطته اوفق لأنها اقرب للزكاة الشرعية مما سار عليه اهل صقلية . لكن الغلظة وسوء الطباع لاتثمران الا الفتن والقلاقل ولقد خاطبه القوم في الامر فاستغلظ عليهم فثارت البلاد ثورة عامة سنة ٤١٠ وحاصر الناس قصر الوالي واشرفوا على اخذه .

عندئذ امر الشيخ العجوز المصاب بالفالج الامير يوسف والد الامير جعفر ان يحمل على محفة وان يخرج للقاء الثائرين فلما رآه هؤلاء وكانت له مكانة عظمى في القلوب اشفقوا عليه ورثوا لحاله فخاطبهم في شأن ابنه جعفر فاشتكوا من شدته وسوء تدبيره وتدبير وزيره ، وطلبوا منه ان يعزله وان يولي عليهم ابنه الآخر احمد الاكحل فاجابهم الى ما طلبوا واعلن عزل جعفر وتولية احمد ففرح الناس بذلك واستبشروا به خيراً ، وانتهى امر الثورة بسلام .

ثم ان يوسف خاف ان يصاب ابنه جعفر بمكروه ، او ان تسول له نفسه القيام على اخيه فجهز له مركبا حمله مع آله وامواله الى مصر ؛ وبعد قليل التحق به ومعه من الاموال ٦٧٠ الف دينار ، وقد كان ليوسف من الدواب ثلاثة عشر الف حجرة دون البغال ؛ ومات رحمه الله بمصر وليست له دابة واحدة . ومن هذا العدد الجسيم ، ومن مقدار ما حمله معه من المال الى مصر تدرك مدى الثروة الجسيمة التي بلغها اهل صقلية في منتهى ذلك العصر الزاهر .

خسارة جنوب ايطاليا — كان جعفر قد اخذ يوالي الفتح في جنوب إيطاليا

عند ولايته ؛ فاحتل كالياري وبيزه سنة ٣٩٠ (١٠٠٢) ثم انه في سنة ٣٩٢ (١) هاجم مراكز المسلمين دوج البندقية « ارسولو » وافتك منهم مدينة باري ، عاصمة الامارة فخسروها نهائيا ، وحلت بالمسلمين نكبة في مدينة رجيو حيث خسروا اسطولهم .

ولقد اعادوا الكرة واحتلوا سنة ٣٩٧ (١٠٠٩) مدينة كوسنزا Cosenza لكنهم لم يستطيعوا هنالك ثباتا ؛ وكانت حوادث الثورة ضد جعفر ، وارجاعه البربر لافريقيا قد اضعفت الجند وقللت من عدده ، فاضطر المسلمون لاخلاء قلورية مرغمين تحت ضغط القاندارسيت ؛ وذلك سنة ٤١٤ (١٠٢٦) ايام احمد الاكحل السوداء .

الهجرة الى صقلية — اثناء تلك الحوادث ، وفي سنة ٣٩٥ ، وقعت بالبلاد الافريقية مجاعة هائلة وقحط شديد فمات الناس موتا ذريعا من جراء ذلك حتى خلت البوادي واكثر الحواضر ، وخلت الاسواق والمساجد وعدمت البهائم وضاقت الارض بما رحبت فيمم الناس شطر صقلية ؛ وسارت اليها المراكب يتلو بعضها بعضا حاملة جموع اللاجئين من عامة القوم وخاصتهم ، ومن سكان الحواضر والبوادى ، فتقبل امراء صقلية هذه الجموع اللاجئة على الرحب والسعة وافسحوا لهم مكان العيش ويسروا لهم اسباب الارتزاق .

استطراد عن اعمال المسلمين بجنوب ايطاليا

ارى من المفيد تعريب الفصل الثاني من كتاب « غارات الهمج » تاليف المؤرخ

(١) في هذه السنة توفي ببلاد الاندلس بطلها العصامي الكبير محمد بن ابي عامر ، الملقب بالحاجب المنصور ؛ الذي نالت بلاد الاندلس في ايامه عزة وسلطانا فلما بلغتهما دولة ؛ ودامت ايامه في حكم مستبد عادل ٢٦ عاما غزا خلالها اثنتين وخمسين غزوة ، كان النصر فيها حليفه .

الكبير فردينان لوط وقد حوى خلاصة وافية عن تدخل المسلمين فى البلاد الطليانية :

كانت مدينة نابولى قد اضطرت تحت ضغط الدوق سيكار امير بينيفانت ان تدفع جزية له وما قبل اهل نابولى امضاء المعاهدة التي عرضت عليهم سنة ٨٣٦ الا مكرهين وجلين ولقد استغاثوا امبراطور الفرنج لويس التاسك فلم تجد استغاثتهم اذنا صاغية عندئذ اتجه الامير اندرى دوق مدينة نابولى نحو مسلمى صقلية يستنجدهم فلبوا دعوته وانجدوه واضطروا خصمه اللومباردى للانسحاب سنة ٨٣٧ ثم اعاد المسلمون الكرة بحراً واحتلوا مدينة ابرنديزى وما انسحبوا منها الا بعد ان تركوها طعمة للنيران .

اخذ المسلمون يوالون التقدم لحسابهم الخاص فاحتلوا مدينة « طارنطة » رغم محاولة أهل البندقية الدفاع عنها ثم تمكنوا من مدينة « انقونة » ورات البندقية يومئذ انها مهددة فعلا فاخذت تتسلح وتتجهز لكن اسطولها غلب وانهزم تجاه اسطول المسلمين سنة ٨٤٢ .

ولقد كان موت سيكار الآنف الذكر سنة ٨٣٩ مساعداً للمسلمين على انتصاراتهم الباهرة ؛ اذ ان المملكة اللومباردية الكبرى قد انقسمت على نفسها اثر موت عاهلها وتألفت على انقاضها مملكتا بينيفانت وسالرنة ، وكانتا مرتعا للفتن التي يثيرها الطامعون فى الملك .

وما كان لهؤلاء الطامعين من معين يعتمدون عليه الا جند المسلمين يستنجده مرة بعد اخرى احد الطامعين ضد خصمه ؛ ومن هذا القبيل ان الامير راد لشيس البينيفانى قد استعان بالمسلمين ضد خصمه الامير سيكونولف السالرنى ؛ كذلك كان كونت مدينة (باري) الامير باندو قد فتح لهم ابواب مدينته ، ولم يكن النجاح حليف المسلمين فى نصرة هذا الامير ، فقد انهزموا ورجعوا لمدينة باري فتمكنوا من اكنافها واصبحت لهم طيلة ثلاثين سنة مركزا هائلا يباشرون منه

اعمالهم وغاراتهم ؛ ولقد اضطر راد لشيس ان يفتح ابواب عاصمته بنيفانت فى وجه حلفائه الاشاوس ؛ وكان المسيطر الحقيقي على تلك الامارة فى تلك الاوقات هو زعيم المسلمين « مصعر » وذلك ابتداء من سنة ٨٤٢ .

ارتأى يومئذ الامير سيكونواف ان يقاوم مسلمي صقلية بجموع من مسلمي اسبانيا وجنوب فرنسا وحتى المسلمين الذين افتتحوا جزيرة اقريطاش عام ٨٢٦ ؛ وهكذا تمكن من افتكاك مقاطعة بيفنتان من بين يدي خصمه لكنه لم يستطع الاستيلاء على العاصمة (باري) .

في اليوم الخامس عشر من شهر جوان سنة ٨٤٤ وقع تتويج الامير لويس ، ابن الامبراطور لوتير ملكا على ايطاليا وكبرت الآمال فى رؤية هذه البلاد موحدة القوى بصفة كانت فى اشد الحاجة اليها ؛ لكن الملك الشاب واجه الفوضى العميقة التي كانت قد ضربت اطنابها في البلاد ؛ ثم ان المملكة قد ذاقت الامرين من جراء تهاونها بامر الاسطول الحربى .

ذلك ان البحر الابيض المتوسط كان يومئذ بحيرة اسلامية خاصة ولم يكن أي اسطول من اساطيل المسيحية يستطيع ان يعترض لاعمال السفن الاسلامية فى غاراتها وفى انزال الجند بصفة متوالية فى مختلف السواحل .

اتسعت اعمال الاسطول الاسلامي وعمت السواحل الطليانية ، فعمد دوق مدينة نابولي الامير سيرج لجمع قوى امارات نابولي وقايت واماليفي وسورنته ليتمكن من مقاومة تلك الغارات ؛ لكنه لم يستطع منع المسلمين من احتلال جزيرة ايتسيا وراس سورنته والتمكن منهما .

فى سنة ٨٤٦ وقع الخطب الجسيم الذى تزلزل له العالم المسيحى لوعة واسى وذلك ان اسطولا اسلاميا يشمل ٧٣ سفينة ، كان قد اقلع من افريقيا واستولى على مدينة اوستى عند مصب نهر التيبر ، ثم اجتاز ذلك النهر حتى ارسى تحت جدران

مدينة رومة يوم ٢٩ اوت من تلك السنة .

لم تكن لدى المسلمين يومئذ قوة كافية تمكنهم من مناجزة رومة القتال ومحاولة احتلالها ، فانتهبوا كنيستي القديس بطرس والقديس بولس ، وهما خارج الاسوار وانتهكوا حرمة قبور القديسين ؛ وما تركوا تلك الاصقاع مثقلين بالغنائم والاسلاب الا عندما اصبحت خالية من الزاد اللازم لهم .

ذهبوا على الاثر يحاصرون مدينة قايط ، ولم يستطع الفرنج ولا اللومبارد صدهم عن ذلك فكانت خيبة المسيحيين متوالية ، لكن مدينة قايط قد تصلبت فى الدفاع وما انقذتها الا عاصفة هوجاء اتلفت اغلب سفن الاسطول الاسلامي .

مهما كانت امبراطورية الكارولين (خلفاء شارلمان) قد سقطت فى مهاوى الانحطاط فانها لم تكن قادرة على عدم التدخل ومحاولة وضع حد لهذه الحالة اذاك اتفق الامبراطور لوثير وابنه لويس ملك ايطاليا وباشرا تحصين الجهة التى يلتقي فيها نهر التيبر بالبحر وذلك دفاعا عن كنيسة القديسين ضد غارة اسلامية اخرى كما وطدا عزمهما على مهاجمة المسلمين الذين استقرت اقدامهم في مملكة البيفنتان واستصرخا رجا المسيحية لاعانتهما على ذلك واستقر القرار اخيراً على ان الجند الاصلي المؤلف من الفرنج وجهات بورغونيا وبروفنسا (بالبلاد الفرنسية) يجتمع عند مدينة بافيا يوم ٢٥ يناير ثم يقصد مدينة لاريتو حيث يجد العمارة البحرية البندقيـة وجند دولة البابا وفى تلك الاثناء يجب على اسقف مدينـة اريزو ومركيز مدينـة اسبوليت ودوق مدينة نابولى ان يحاولوا جميعا اصلاح ذات البين بين امراء بلاد بينيفانت المتخاصمين .

نجحت هذه المحاولة وكللت بالفوز وتمكن الحلفاء المسيحيون من استخلاص مدينة بينيفانت وهنالك وقع القضاء على كامل الحامية الاسلامية وزعيمها الامير مصمر (١)

(١) يقول مؤرخو الطليان ان مصمر هاجم مرة مدينة ايزرينا وقبل ان يصلها

ثم اقتسم الاميران راشلديس وسيكوفولف كامل بلاد ايطاليا الجنوبيـة وتعاهدا على ان لا يركن احدهما لجانب المسلمين ضد خصمه مرة اخرى وتم كل ذلك سنـة ٨٤٧ .

بقيت يومئذ بين ايدى المسلمين مدينة « باري » يبعثون منها غزاتهم وسرايام فتولى رهبان « ديركاسان » نشر الدعوة لمحاربتهم واقنعوا الملك الويز الثاني بوجوب ذلك فهاجم المسلمين وغلبهم سنة ٨٥٢ الا انه لم يستطع او لم يرد احتلال مركزهم مدينة « باري » .

على ان قرصان المسلمين كانوا هاتيك الاوقات يقضون مضاجع السواحل الشرقيه فاحتلوا مدينة لوني وتركوها من بعد طعمة للنيران ثم صعدوا مع مجرى نهر الرون وتمكنوا من مدينة «ارل» بفرنسا سنة ٨٤٩ .
فى نفس هذه السنة ارادوا تجديد المحاولة التي لاقت من قبل ايما نجاح فجمعوا على السواحل السردينية اسطولهم ومخروا عباب البحر ثم ارسوا تجاه مدينة اوستى لكن مصب النهر كان هذه المرة محصنا فلم يستطع المسلمون اقتحامه ثم جاء اسطول مدينة نابولي فنازل الاسطول الاسلامي الى ان ثارت زوبعة شتت شمل هذه العمارة كان يومئذ الامير مفرج يثبت مركزه بمدينة باري ويدعم هنالك سلطانه وقد اختط في المدينة مسجداً للمسلمين واعلن انفصاله عن امير صقلية ثم اتخذ لنفسه لقبا كان قليل الاستعمال يومئذ بين المسلمين الا وهو لقب «السلطان» .

اعلمه الشوافون الذين ارسلهم يرتادون الطرق ويمهدون السبل امام الجيش ان زلزالا حطم اسوار المدينة وان المسلمين يستطيعون دخولها دون قتال فقال مصعر ان الله قد اظهر سخطه على هذه المدينة وانتقم منها فلا ازيد اهلها هما على هم ولوى عنانه وتركها وشأنها ترمم خرائبها كذلك يؤكدون انه كان يمر حوالى ديركاسان ولم يهاجمه ولم يرد احتلاله .

ولقد كانت الخلافات المستحكمة الحلقات بين امراء ايطاليا وزعماء مدنها تمنعهم من جمع الشمل والتكاتف لمحاربة هذه الدولة الناشئة فاغتنمت هي تلك الفرصة ونكلت بالبلاد تنكيلا ذريعاً وكانت ترسل سفنها مثقلة بالرقيق يباعون في الاسواق الافريقية .

ويؤكد الرهبان المؤرخون بدير كاسان ان هذا السلطان كان يلتذ كل يوم بقتل خمسمائة نفس (١) واخيراً تمكن السلطان من احتلال دير كاسان نفسه(٢) وهنالك اخذ يلهو بالشراب في اباريق الرهبان ويتطيب ببخورهم .

اخيراً ، فيما بين سنتي ٨٦٦ و٨٦٧ ، اعتزم الامبراطور نجدة المسيحيين بايطاليا ، فنازل المسلمين ودحرهم حتى اووا الى مدينتي باري وطارنطة ؛ لكن الامبراطور لم يستطع نصب الحصار على تينك المدينتين نظراً لفقد عمارة بحرية .

ولقد كان اسطول رومي جاء تلك الربوع ، لكنه اضطر للرجوع من حيث اتى ؛ وهكذا قويت آمال المسلمين وامتطوا صهوة الخيل العتاق التي غنموها من الافرنج فاندفعوا يجوسون خلال الديار ويمعنون في غزوها .

لكن الامبراطور لويز لم يغير عزمه رغم مرضه فخاطب جماعات المسيحيين الذين امدوه بقوة من رجال صقالبة دلماسيا (بلاد يوغوسلافيا اليوم) وسربيا ؛ وجاء اسطول القسطنطينية يعزز بحريا تلك الحملة وحمي الوطيس براً وبحرا واندحر جند اسلامي جاء مدداً لمدينة باري فبعد حرب عوان دامت اربعة اعوام وبعد حصار ضيق النطاق سقطت مدينة باري يوم ٢ فبفري سنة ٨٧١ (٣)

---

(١) الغرابة ظاهرة ، ولا ينتظر من راهب بدير كاسان في حالة حرب مع المسلمين وفي القرون الوسطى ان يكتب غير هذا .

(٢) المسافة بين باري ودير كاسان ٢٥٠ كيلو متراً .

(٣) يقول مؤرخو الطليان ان الامبراطور كان قد اقسم ليقتلن كل مسلم في

لكن هذا النصر قد اقلق امراء ايطاليا وبلبل افكارهم ، خوفا من اغتنام الامبراطور تلك الفرصة لنصب سلطانه عليهم واخضاعهم ، فدبروا مكيدة واوقعوا الامبراطور اسيراً بين ايديهم يوم ١٣ اوت من تلك السنة ، وما اطلقوا سراحه وارجعوه لبلاده يوم ١٧ سبطامبر الا بعد أن تعهد بأن يترك لهم سائر الغنائم والاسلاب التى استولى عليها بعد انهيار دولة المسلمين في باري كما تعهد لهم بانه لا ينتقم منهم جزاء خيانتهم .

فى هذه الاثناء كان الجيش الاسلامي الصقلي تحت قيادة امير صقلية العباس بن الفضل يكتسح جهات نابولي وقابو وبلاد البينيفنتان ، لكن امراء نابولي وقابو وبنفانتى تألبوا واوقفوا تيار المسلمين ؛ ولقد هاجم هذا الجيش الاسلامي مدينة « كاسينو » بشدة وكاد يتمكن منها لولا ان الامبراطور رغماً عما جرى قد هب لنجدتها ، ولقد اصابه مرض اثناء ذلك ، لكن قواده نالوا نصراً مبينا وفكوا الحصار عن المدينة في صائفة سنة ٨٧٢ ، لكن موت الامبراطور سنة ٨٧٥ قد جعل هاتيك الجهود الكبيرة تذهب سدى ؛ ذلك ان خليفة الامبراطور شارل الاصلع ، وقد ارسل البابا يستغيث به ضد المسلمين ، قد جند جنداً واجتاز جبال الالب ثم عاد ادراجه بسرعة نحو بلاده وقضى نحبه دون ان يقوم بادنى عمل ، ولم يجد البابا يومئذ من ملجأ يلجأ اليه الا مصانعة المسلمين ، فتعهد لهم بدفع جزية مكنته من راحة نسبية .

المدينة ، وكان الجوع قد حطم قوى المسلمين فبعد مقاومة يائسة استسلموا واحتل الامبراطور المدينة فذبح بسيوف جنده سائر « الكفار » ولم ينج منهم الا السلطان مفرج واثنان من خاصته هما حنون وعبد الباقي ؛ اذ اختفوا بعد انهيار الدفاع في برج من الابراج ، ثم ساروا ملتجئين لأمير بنيفانت « أدلغيز » فاكرم وفادتهم معترفا بجميل السلطان الذى كان قد انقذ شرف ابنته في سالف الايام .

لقد كان بحر الادرياتيك يومئذ مرتعاً لاعمال القرصنة الاسلامية وكانت مدينة البندقية وحدها تقاوم هنالك هاتيك الاعمال اما ايطاليا الجنوبية فقد كان امير بينيفانت غير مستطيع وحده الذود عنها .

كانت مدينة بيزنطة «القسطنطينية» قد ملكت عائلة امبراطورية جديدة هي عائلة مقدونيا وتولى كبرها يومئذ بازيل الاول واسترجعت بيزنطة ما كانت فقدته من صفة الحامية فجهز الامبراطور اسطولا حربيا عتيداً يشمل اربعين سفينة ارسل به نحو السواحل الصقلية الاسلامية فنال ذلك الاسطول فوزاً مبيناً . ثم انه في سنة ٨٨٠ تمكن الروم البيزنطيون من استخلاص قلورية من بين ايدي المسلمين ولقد كانت مدينة باري قد تقبلت قبل ذلك والياً رومياً اغريقيا من قبل الامبراطور .

لكن تلك الراحة لم تدم حيث اننا رأينا سنة ٩٠٢ الامير ابراهيم بن الاغلب الثاني يكتسح بجنده ارض قلورية ويلاقي حتفه تجاه مدينة كوسترا .

ورغما عما اصاب المسلمين في الجنوب الايطالي فقد بقيت بايديهم مراكز منيعة مثل ساينو شمال بينيفانت وجنوب بسطوم وميدان كاريليانو الحصن وخرائب ديرفارفا ومن سائر هذه الجهات كانوا يستطيعون باستمرار تهديد مدينة روما .

يومئذ اعتزم البابا يوحنا العاشر التخلص نهائيا من هذه المعاقل الاسلامية المهددة ، فمنح تاج الامبراطورية لبير انجي الفريولي في دسامبر ٩١٥ ، لكن هذا الامبراطور الدعي لم يعمل عملا ، وانسحب للشمال الطلياني ، فاعتمد اهل روما على انفسهم واستعانوا بمركيز اسبوليت الامير البريك ؛ فاستولوا على معقل « فارفا » الاسلامي ، ثم تألب سائر امراء ايطاليا الوسطى والجنوبية وبذلوا اقصى جهودهم فتخلصوا من المعقل الاسلامي المنيع (كاريليانو) واعانهم الاسطول الرومي على ذلك ، واستولوا على المعقل وقتلوا سائر من كان به من المسلمين ؛ ولقد

كان ذلك النصر الحاسم فى شهر اوت سنة ٩١٦ من اكبر وقائع ايطاليا الحربية ، وقد شارك فيه البابا بنفسه وعرض ذاته للخطر وكان فخوراً بذلك .

كان ذلك النصر قد درأ عن مدينة روما الخطر الاسلامى ، لكنه لم يدرأ عن السواحل خطر القرصنة ، ولم يدرأ عن الجنوب الطلياني خطر الغارات والغزوات .

في سنتى ٩٣٤ و٩٣٥ ، استولت جنود الخليفة ابي القاسم الفاطمي على مدينة جنوة حينا ما وانتهبتها .

وفى سنة ٩٦٥ اندحر اسطول الروم تجاه مسلمي صقلية عند مدينة مسينا سنة ٩٦٥ (وقعة المجاز) (١)

وقد كانت يومئذ تكونت الامبراطورية المسيحية فى المانيا ، واراد الاباطرة ان يتولوا كبر الحملة على المسلمين .

ففى سنه ٩٨٢ سار الامبراطور اوطون الثاني نحوهم فاحتل مدينة طارنطة ثم واجه جند امير صقلية ابي القاسم عند السواحل تجاه مدينة ستيلو او كوتروني ؛ ولقد تولى الفرسان الالمان مهاجمة القلب الاسلامى فضعضعوا قواه ودحروه ، لكن الجناحان الاسلاميان تمكنا فورا من تلافى الفادحة ؛ فانطبقا بسرعة على فرسان الالمان ، وباء الالمانيون يومئذ بانهزام شنيع ؛ وانسحب الامبراطور مغلوبا مقهورا وما استطاع الفوز بنفسه الا بفضل سفينة رومية انقذته من الاسر ؛ اما امير صقلية فقد لقي حتفه شهيداً اثناء تلك المعركة (٢) .

ولقد مات الامبراطور قبل ان يتمكن من الاخذ بالثار وحدث اضطراب فى الامبراطورية فاصبح كل امير طلياني يتولى بجهوده الخاصة مقاومة المسلمين .

ففى سنة ١٠٠٢ حاصر مدينة بارى القائد الصقلى «الصافي» فدافع عنها القائد الرومي والعمارة البندقية معاً وابعد عنها المسلمين ثم ان مدينة بيزا تمكنت سنة ١٠٠٦ بواسطة

---

(١) انظر تفصيلها صفحة ١٤٨ (٢) انظر التفصيل صفحة ١٥٩

جهودها الخاصة من دحر اسطول المسلمين عند مدينة رجيو ثم تدخل النرمان وانتهى امر المسلمين .»

أسد الدولة احمد الاكحل

اولاه ابوه وارتضاه الناس فى السادس من شهر المحرم سنة ٤١٠ وابتدأ اعماله بحزم شديد فضبط الامور ومهد الراحة ودانت له سائر البلاد .

ولقد راى النرمان اثر حوادث الثورة السالفة ان الشقاق اخذ يدب من جديد بين مسلمى صقليه فراوا ان يهتبلوا الفرصة واخذوا يناوشون جند المسلمين لكنهم لم ينالوا فى اول الامر منالا واوقفتهم جنود احمد عند حدهم .

سياسة فرق تسد — كان اسد الدولة احمد الاكحل يعتمد على ولده جعفر كما كان اخوه جعفر يعتمد على وزيره الباغاني فكانت النتيجة خسرانا مبينا لهذا كما كانت النتيجة خسرانا مبينا لذلك .

راى جعفر بن احمد انه لا يمكن حكم صقلية والثبات بها الا بالاعتماد على فريق فيها دون فريق وتكوين عصبية متينة حول قصر الامارة تحميه من عاديات الزمن واضطرابات الشعب. ولو انه اعتمد على العدل والانصاف واحقاق الحق وازهاق الباطل كما اعتمد اجداده واعمامه من قبل لكان مآله احسن وعاقبته اضمن .

كان سكان صقلية ينقسمون الى فريقين فريق الصقليين المتاصلين الذين استوطنوا البلاد منذ اوائل عهد الفتح وفريق الافارقة الذين جاءوا البلاد حديثا مع ولاة الفاطميين واستقروا بها واغلبهم من البربر من كتامة وغيرها .

اراد جعفر ان يعتمد اول الامر على فريق الصقليين فخاطبهم فى الامر وقال لهم انى أريد ان اخرج عنكم هؤلاء الافارقة الذين سكنوا بلادكم وشاركوكم فى دياركم واعتمد عليكم وحدكم فى حكم البلاد فقال له وجوه القوم حذار ان تفعل

ذلك ايها الامير فاننا قد صاهر نائم واصبحنا واياهم شيئا واحدا فلما اخفق معهذا الفريق خاطب زعماء الافارقة فى الموضوع فقبلوا الاقتراح بسرور وابتهاج واصبحوا منذ تلك الساعة فريقا ممتازا فى الامة ، واعفوا من دفع الضرائب ، فاصبحت الاتاوات لا تمس الا الصقليين الاصليين خاصة ؛ فوقع من جراء ذلك اضطراب عظيم ، وانفصم حبل الامة وسادت الضغينة والاحقاد بين قسميها ، واستعدالنرمان الذين كانوا يرقبون ذلك عن كثب لانزال الضربة النهائية على رأس ذلك الهيكل الذى تداعى للسقوط .

تدخل المعز بن باديس — اصبح الصقليون فى كرب عظيم فارسلوا خفية وفداً من وجوههم امّ بلاط المعز بن باديس مستصرخا مستنجدا ، وقالوا له : لئن لم ترسل من قبلك من يحكمنا حكما عادلا نزيها فاننا سنسلم انفسنا للروم تخلصا من الظلم الفادح

كان المعز بن باديس قد استقل فعلا بامور افريقيا وصفا له الجو موقتا فاقبل على الانشاء والتعمير، وكانت له مدنية من اجل واروع ما رأته البلاد الافريقية .

وكانت الخلافة الفاطميه يومئذ تتخبط في مصر فى دياجير من الكفر والالحاد ، ومن الفسوق والفجور ومن المظالم والارتباك بين عصر الحاكم بامر الله وعصر ابنه الظاهر لاعزاز دين الله ، بين ادمان الخمور والاعتكاف على الملذات ؛ فكان المعز ابن باديس يبغض الفواطم بغضا يكنه في فؤاده ، وكان يرى وجوب استخلاص اكثر ما يمكن من بلاد الاسلام وانتشالها من بين براثنهم .

وكذلك كان اهل صقلية قد راوا ان لا امل لهم في الاعتماد على الفاطميين ولا نجدة ترجى لهم من قبلهم فولوا وجههم كما رايت شطر القيروان يستصرخون ابن باديس ويستنجدونه .

اغتنم ابن باديس تلك الفرصة انجادا لاهل صقلية وادخالا لتلك البلاد تحت سلطة القيروان كما كانت اول مرة ، فارسل ولديه عبد الله وايوب وارسل معهما

جنداً قوياً يشمل ثلاثة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل فدخلوا ارض صقلية وهاجموا قصر الامارة مع من انضم اليهم من الصقليين فاستولوا عليه وقبضوا على الاخرق احمد الاكحل فى الخالصة وازهقوا روحه سنة ٤١٧ ؛ واخذ ابناء المعز يدبران الامر بحكمة ورأي سديد .

نكبة هائلة — كان النرمان ، كما قلنا يرقبون عن كثب سير الامور بصقلية ، ويستعدون لانزال الضربة الحاسمة بها ، وما كان الصقليون عن ذلك من الغافلين ، فقد ارسلوا الى المعز يستنجدونه ويستصرخونه ، ويطلبون اليه ان يمدهم بقوة عتيدة تمنع عنهم خطر النرمان وتحمى ارض الجزيرة من كل طامع ؛ ولقد كان النرمان وجماعة النصارى كما اسلفنا ، قد استخلصوا كامل ارض قلورية واحاطوا بصقلية متكالبين .

لبى المعز بن باديس رحمه الله الطلب ؛ فانتدب الناس واستنفرهم للجهاد ، وتطوع خلق كثير باعوا انفسهم لله وفى سبيل دينه ، وتم تجهيز اسطول يجمع ٤٠٠ سفينة مثقلة رجالا وخيلا وسلاحاً .

انما قضى الله يومئذ بهلاك الجزيرة ولا مرد لقضائه ، فذلك الاسطول العتيد الذى كان يستطيع بقوته وبمن فيه ان يقلب صفحة التاريخ فى صقلية، بله اوربا نفسها ، قد سار حتى وصل جزيرة قوصرة وهنالك اصابته زوبعة هائلة اتلفته كله ولم ينج من اهله الا القليل ؛ فكانت هذه النكبة المؤلمة والكارثة الجلى اكبر اسباب ضياع صقلية ، ومن اعظم اسباب ضياع ملك ابن باديس نفسه الذى اندك فيما بعد تحت ضربات الاعراب الهلاليين .

فى هاتيك الاثناء ، اجتمع اهل صقلية يتلاومون ، وقالوا لقد ادخلتم على حكمكم غيركم ، وفقدتم استقلالكم ، واستنصرتم من لا يستطيع نصركم فاتفقوا على نصب امير من عائلة بنى الحسن وارجاع الملك لهم ؛ فثاروا بولد المعز وقتلوا

من جندهما زهاء الثمانمائة رجل ، وما وسع عبد الله وأيوب إلا الرجوع بفلولهما لافريقيا ونصب الصقليون فى بالرمة صمصام الدولة حسن شقيق أحمد الاكحل القتيل

صمصام الدولة حسن بن يوسف

تناثر العقد من وسطه ومن أطرافه، وأخذ النرمان يتقدمون فى البلاد وكان الصمصام مفلولا فلم يستطع ان يوطد ملكه او يثبت سلطانه ولم يجد المسلمون يومئذ وسيلة تنجيهم من ذلك الخطر الداهم خطر النرمان المميت إلا الانقسام على أنفسهم واستقلال كل أمير بناحية.

ففى بالرمة العاصمة كان الصمصام حسن يحكم الناحية الشمالية وفى مازرة وما حولها استقل بالامر عبد الله بن منكوث وفى جرجنتي وما إليها استبد بالامارة علي ابن نعمة بن الحراس وفى سرقوسة وقطانية استقر ابن الثمنة واستقل فى جهة مسينا أمير آخر وأصبح أمر البلاد فوضى وتغلب سفلة القوم على اصحاب الرأي والاصالة فيهم.

القادر بالله بن الثمنة

اجتمع أهل بالرمة وأعلنوا خلع طاعة حسن لما راوا من ضعفه وما كان ضعيفاً إلا بهم وأمروا عليهم القادر بالله ابن الثمنة ضامين بذلك إمارتي سرقوسة وقطانية وإمارة بالرمة وكان ابن الثمنة متزوجا ميمونة أخت علي ابن الحواس أمير جرجنتي فكان ذلك بادرة من بوادر جمع الكلمة ومحاولة يائسة لتوحيد صفوف تلاشى نظامها أبديا (١)

الحرب الاخوية والخيانة — سكر الامير يوما فخاطاظ فانهم زوجه أخت ابن

---

(١) اثناء هذه الحوادث سنة ٤٣٠ وما حواليها توطد قدم الاتراك السلجوقيين ببلاد الشام وفلسطين وانتزعوها من أيدى ملوك الطوائف وأمراء الفاطميين .

الحواس تهمة هي منها بريئة فقطع لها عرق الزند لتموت من نزيف الدم لكن ولدها ادركها في اللحظة الاخيرة وجاءها بالاطباء فانعشوها ومن الغد ادرك الامير سوء فعله فاعتذر لزوجه وتظاهرت بقبول الاعتذار ثم طلبت اليه ان تذهب لزيارة اخيها فاذن لها وهنالك قصت على ابن الحواس ما فعل بها زوجها فاقسم لينتقمن لها منه وجمع جموعه لا لرد غائلة النرمان بل لمحاربة امير بالرمة ابن الثمنة والتقى الجمعان ودارت الدائرة على ابن الثمنة ومن معه وانتصب ابن الحواس اميراً في بالرمة

اما ابن الثمنة فقد ادت به النذالة والصغار الى جزيرة مالطة حيث كان ملك النرمان وطلب اليه ان يمده بجنده ووعده بملك الجزيرة وما كان روجي الاول ملك النرمان ينتظر الا مثل ذلك الحادث فجمع اسطوله وجموعه الوحشية وسار مع الخائن ابن الثمنة كما سافر منذ مائتي عام اسد ابن الفرات مع الخائن اوفيماس لفتح صقلية .

<u>خراب دولة المعز على يد بني هلال</u> — في سنة ٤٣٥ (١٠٤٧) حيث كانت تجرى هذه الحوادث وحيث كان من المستطاع التفات المعز من جديد بعد نكبة الاسطول السالفة الذكر وبعد اخراج وأديه من صقلية لتلك الناحية البائسة وقعت في مدينة القيروان الفتنة الشهيرة ضد الشيعة او الرافضة كما كانوا يدعون في ذلك الوقت وانقض اهل السنة على رجال الشيعة فقتلوهم في الحواضر والبوادي اشنع قتلة واعلن المعز يومئذ خلع طاعة الفاطميين وخطب للخلافة البغدادية العباسية وحمل الناس عامة على مذهب مالك ابن انس رضي الله عنه ثم جاءه من بغداد سنة ٤٣٩ الوزير ابو الفضل بن عبد الواحد الدرمي يحمل له من الخليفة العباسي القائم بامر الله تقليداً يعترف له فيه بالاستقلال .

بلغت تلك الانباء مدينة القاهرة ، فعظم الامر على بلاط الفاطميين فيها ، واقد اشار على الخليفة المنتصر بالله ، وزيره احمد بن علي الجرجاني ، ان يرسل

اعراب بني هلال على بلاد المغرب، انتقاما للشيعة ، وتحطيما لسلطان صنهاجة وملك بني باديس ؟ وتخلصا في آن واحد من اولئك الاعراب الذين كثرت فلافلهم في شرق الصعيد المصري ٠

قبل الراى كما هو معلوم فى كتب التاريخ ، وانصب على ارض افريقيا من تلك الجموع نحو النصف مليون نسمة ، صادموا جند المعز سنة ٤٤٠ فدحروه وتحصن في القيروان فنازلوه بها واحتلوها والحقوا بها نكبة كانت من اكبر نكبات التاريخ في العالم الاسلامي ، فاندكت بذلك معالم مدنية من ازهى وازهر مدنيات هذه البلاد :

يقول شاعر بلاط المعز الحسن ابن رشيق ، واصفا مصيبة القيروان من قصيد طويل :

حسنت فلما اذ تكامل حسنها ... وسما اليها كل طرف وان
وتجمعت فيها الفضائل كلها ... وغدت محل الامن والايمان
نظرت لها الايام نظرة كاشح ... ترنو بنظرة كاشح معيان
حتى اذا الاقدار حم وقوعها ... ودنا القضاء لمدة واوان
اهدت لها فتنا كليل مظلم ... واراذها كالقاطح العيدان
بمصائب من فادح واشالب ... ممن تجمع من بني دهمان
فتكوا بامة احمد اتراهموا ... امنوا عقاب الله فى رمضان
نقضوا العهود المبرمات واخفروا ... ذمم الاله ولم يفوا بضمان
فاستحسنوا غدر الجوار واثروا ... سبي الحريم و كشفة النسوان
ساموهم سوء العذاب واظهروا ... متعسفين كوامن الاضغان
والمسلمون مقسمون تنالهم ... ايدى العصاة بذلة وهوان
يستصرخون فلا يغاث صريخهم ... حتى اذا سئموا من الازمان

بادوا نفوسهم فلما انقذوا ... ما جمعوا من صامت وصوان
خرجوا حفاة عائذين بربهم ... من خوفهم ومصائب الالوان
هربوا بكل وليدة وفطيمة ... وبكل ارملة وكل حصان
فتفرقوا ايدي سبا وتشتتوا ... بعد اجتماعهم على الاوطان

اما المعز فقد ترك اواسط البلاد للاعراب والتجأ الى الساحل ، فاستقر فى المهدية . ثم هدأت نوعا ما عاصفة الاعراب الذين اخذوا يتوغلون فى بلاد الشمال الافريقى من مشرقه الى اقصى مغربه ، واخذت الدولة الصنهاجية تنتعش شيئا فشيئا ، وكانت فيها باقية صالحة للحياة .

ملوك الطوائف وتميم بن المعز — انقسمت البلاد التونسية يومئذ ، وكانت مهد وموطن الدولة الصنهاجية الى عدة امارات صغيرة واهية البنيان ضعيفة الشأن .

فمنها امارة بني خراسان بمدينة تونس وما حواليها ، استقلوا بشؤون تلك الناحية من حوالي سنة ٤٥٨ الى سنة ٥٥٣ (١) .

ومنها امارة بني جبارة بن مكي استقلت بناحية سوسة الى سنة ٥٥٤ .

وامارة بنى مدافع بن جامع الهلالي ، استبدت بناحية قابس وما اليها من بلاد

---

(١) اثر نكبة الدولة الصنهاجية الشرقية على يد الهلاليين وخراب القيروان ، اعلنت مدينة تونس التى كانت يومئذ من ازهى وازهر المدن في الشمال الافريقي انضمامها للمملكة الصنهاجية الغربية « مملكة بني حماد » وكانت قد استقرت فى بجاية وانتظم شملها وذاع صيتها واصبحت كعبة القصاد ومحط رحال رجال العلم والادب وكبار الشعراء » فعين ملك بجاية الناصر ، الامير عبد الحق ابن خراسان والياً على مدينة تونس وما حواليها ، فلما استقر به المقام وتم له الاتفاق مع اهل البلاد » اعلن استقلاله « وحافظ هو وبنوه على ذلك الاستقلال فى تلك الامارة الصغيرة الرقعة الكبيرة الاهمية مدى مائة عام .

الجنوب الى سنة ٥٥٥ .

اما ناحية الجريد ، فقد استقرت بها عائلة بني الرند ، ودام استقلالها اكثر من الامارات السابقة اي الى سنة ٥٧٥ .

واخيراً بمدينة المهدية وحواليها من ناحية الغرب والجنوب ؛ ثبتت امارة بنى المعز بن باديس الصنهاجية ، الى سنة ٥٥٥ ، حيث جاءت دعوة مهدية اخرى من ناحية المغرب كانت هذه المرة سنية موحدة قضت على ملوك الطوائف ووحدت بلاد الشمال الافريقي فى امور الدين والدنيا ؛ على يد بطل من ابطال الاسلام الخالدين عبد المؤمن بن على .

وقد ازدان ملك صنهاجة بالمهدية ، كما ازدان ملكها من قبل بالقيروان ببلاط فاخر التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم واعلام الادب وكبار الفلاسفة والشعراء ؛ فكانت ايام المهدية على صغر حجم المملكة وتعاقب الحروب بينها وبين الهلاليين اياما مشهودة فى تاريخ الفن والعلم والادب ، وقصدها من كل ناحية امثال فيلسوف الاندلس الشهير امية ابن ابي الصلت والمجتهد الاكبر الامام المازرى والتجأ اليها بعد خراب صقلية شاعرها الاعظم عبد الجبار بن حمديس ؛ وكان امير المهدية تميم بن المعز من خير الرجال عقلا وادبا وحسن ادارة ومعرفة باصول الادب والشعر ، وانه ليصور لك حال مملكته وحال رجاله وحال العالم الاسلامي كله فى ذلك العصر اذ يقول :

يادهر ما اقساك من متلون ... فى حالتيك وما اقلك منصفا
اتروح للنكس الجهول ممهداً ... وعلى اللبيب الحر سيفا مرهفا
واذا صفوت كدرت شيمة باخل ... واذا وفيت نقضت اسباب الوفا
لا ارتضيك وان كرمت لانني ... ادرى بانك لا تدوم على الصفا
زمن اذا اعطى استرد عطاءه ... واذا استقام بدا له فتحرفا

ما قام خيرك يازمان بشره　　اولى بنا ماقل منك وما كفى

ثم هو يخاطب البقية من قومه ، يحرضهم ويستفزمنهم الحمية ، كأنه يلهب فيهم نار الايمان ليرسل بهم نجدة لمسلمي صقلية :

متى كانت دماؤكم تطل　　اما فيكم بثار مستقل
اغانم ثم سالم ، ان فشلتم　　فما كانت اوائلكم تذل
ونمتم عن طلاب المجد حتى　　كأن العزم فيكم مضمحل
وما كسرتم فيه العوالي　　ولا بيض تفل ولا تسل

وتسمو به احيانا نفسه الابية حتى تبلغ ذروة الطموح للعلى واسترجاع المجد الآفل :

بكر الخيل دامية النحور　　وقرع الهام بالقضب الذكور
لاقتحمنها حربا عوانا　　يشيب لهولها راس الصغير
فاما الملك في شرف وعز　　علي التأج في أعلى السرير
واما الموت بين ضبا العوالي　　فلست بخالد ابد الدهور

محاولة انقاذ صقلية — اخذ فى صقليه اميرها المتغلب علي بن الحواس يجمع الجموع ويحاول توحيد الكلمة ، ليؤلب الناس ضد الزمان والدفاع النهائي عن حكم المسلمين بتلك الجزيرة .

فى هاتيك الاثناء قصد وفد من رجال الجزيرة مدينة المهدية ، وقد علم كما علمت فضل اميرها ونخوته وهمته العالية ، فاستنجده واستمد منه الاعانة على الفرنج المتكالبين فما كان من الامير تميم بن المعز الا تلبية الدعوة ، واستنفار الناس للجهاد ، فجهز بعض قطع الاسطول الذى كان بالمهدية ، وحمله ثلة صالحة من بقايا جنده ، وارسل بكل ذلك تحت قيادة ولديه علي وايوب .

نزل علي بن تميم بقسم من الجند في مدينة بالرمة ، ونزل ايوب بالقسم الاخر

في مدينة جرجنتي فاكرم ابن الحواس وفادتهما، وتفاءل الناس خيرا بهذا المدد الكريم ، واحسن ايوب وعلي السيرة ، فمال اليهما الناس واحبوهما حبا عظيما واستعد الجميع للجهاد ضد النرمان .

لكن ابن الحواس خشي منهما على ملكه المتضعضع ، وخاف زوال سلطانه الآفل ، ففرق الكلمة بعد اجتماعها ، وشتت الشمل بعد التئامه ، وجمع جماعة من جنوده صادم بهم نذالة وخيانة وصغاراً جند المتقدين علي وايوب ومات اللعين في معركة بضربة سهم .

اجتمع اكثر الناس يومئذ على ولاية ايوب، ورروا فيه الرجل الصالح والقائد الذي يمكنه انقاذ الجزيرة من رجال النرمان الذين كانوا يتقدمون دائما، فيأكلون اطرافها، وقد التهموا منها الشيء الكثير بل اصبح اكثرها بين ايديهم واخذت نيران الحماس تتقد في النفوس يذكيها شعراء الجهاد امثال عبد الجبار بن حمديس الذي انشد قصيدا خالدا انتشر يومئذ بين الناس فاستنهض هممهم ودفع بهم الى مقاومة عنيفة هي مقاومة اليائس المستميت ،فلما رأيت لها مثيلا في استفزاز الهمم الفاترة للدفاع عن الوطن المشرف على الهلاك وانني لا ارى غنى عن تسجيل هذا القصيد برمته لانه يمثل بنفسه صفحة من اغرب واروع صفحات الجهاد الاسلامي بصقلية . يقول ابن حمديس :

بني الثغر لستم في الوغى من بني امي ... اذا لم اصل بالعرب منكم على العجم
دعوا الخوف اني خائف ان تدوسكم ... دواه وانتم في الاماني مع الحلم
وكاس بام الموت يسعى مديرها ... الى اهل كاس حذها بابنة الكرم
فردوا وجوه الخيل نحو كريهة ... مصرحة في الروم بالثكل واليتم
تهيل مع النقع المحلق بالضحى ... على الشمس ماهالته ليلا على النجم
وصولوا ببيض في العجاج كانها ... فروق بضرب الهام محمرة السجم

فلا عدمت من سلها من غمودها ظهوراً فقد تخفى الجداول بالرجم
وقرع الحسام الرأس من كل كافر احب الى سمعى من النقر فى اليم
ووالله منكم كل ماض كعضبة يسير الى الميجاء متقد العزم
يحدث بالاقدام نفسا كانها تطير الى الحرب اشتياقا عن السلم
ويسطو بمحجوب الظباء اذا بدا جلا ما جلا بالصبح من ظلمة الظلم
له دخلة فى الجسم تخرج نفسه قبيل خروج الحد منه على الجسم
وما يغتدى منه بلحم ولا دم ولكن بما فى العظم بالبري للعظم
ليوث اذا ما اقبل الموت فاغراً يردد فى الاسماع جرجرة القرم
له عين ضرغام هصور فقلبه بتصريف فعل الجهل منه على علم
ولله ارض ان عدمتم هواءها فاهواؤكم فى الارض منثورة النظم
وعزكم يفضى الى الذل والنوى من البين ترمى الشمل منكم بما ترمي
وان بلاد الناس ليست بلادكم ولا جارها والحكم كالجار والحكم
أعن ارضكم تغنيكم ارض غيركم وكم خالة جداء لم تغن عن أم
تقيد من القطر العزيز بموطن ومت عند ربع من ربوعك او رسم
واياك عنه ان تجرب غربة فلن يستخير العقل تجربة السم

الانجلاء النهائي — استمر الجهاد عنيفا قاسيا ، انما كان النرمان يتقدمون فى البلاد باستمرار ؛ واخذ الخناق يضيق على المسلمين هنالك ؛ ولقد صدق من قال :

يعمى على المرء فى ايام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ففي هاتيك الايام ، والنرمان يتقدمون والمسلمون يتوالى خسرانهم ويستمر انهيارهم تألب جماعة من المسلمين هنالك ضد ايوب بن تميم ؛ وذووه وقاتلوه على مرأى ومسمع من النرمان فعلم هذا انه خسر الصفقة وعلم كبار القوم هنالك ان صقلية قد ضاعت على يد سفهائها واندالها فقرر ايوب وقرر وجوه القوم معه الانسحاب

الى المهدية ، فركبوا الاسطول ، حاملين معهم جميع من راى الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم واعيانهم وعامتهم وكان ذلك سنة ٤٦١ (١٠٧٣) وعندئذ انتهى امر المقاومة المنظمة او الشبيهة بالمنظمة وخلا الجو لرجال النرمان فاندفعوا يحتلون بقايا الجزيرة .

آخر مقاومة — لم يبق يومئذ بارض الجزيرة بيد المسلمين الا قلعة قصر يانة ومدينة جرجنتي فقصدهما رجار الاول ملك النرمان ، ونصب عليهما الحصار وضيقه وتفانى اهل المدينتين في الدفاع ، واستبسلوا استبسالا لو وقع من قبل مثله لبقيت صقلية احقابا عديدة اخرى بيد المسلمين ، ودام الحصار ثلاثة اعوام ، حتى اكل المحصورون الجيف ، فاستسلمت جرجنتي ونصب النرمان عليها لواء الصليب وبقيت قصر يانة ثابتة منيعة رغم الجوع والخصاصة والالآم ؛ فسجلت فى تاريخ المقاومة الاسلامية ضد النرمان ؛ ما سجلته من قبل فى تاريخ المقاومة المسيحية ضد المسلمين وهكذا ابى الله الا ان يختم صفحة المسلمين بصقلية ، ختاما كله عزة وشرف وفخار وما استسلمت قصر يانة تحت ضربات رجار المقيتة الا سنة ٤٨٤(١٠٩٦)اي ٢٣عاما بعد انسحاب المسلمين مع ايوب ابن تميم ابن المعز وتملك يومئذ النرمان كامل جزيرة صقلية (١)

(١) لم يكتف النرمان باحتلال صقلية والثبات بها ، بل تتبعوا المسلمين الى البلاد الافريقية ، واثخنوا فيهم واصبحت اساطيل الملك رجار تلقي الرعب فى قلوب سكان السواحل الاسلامية بافريقيا الشمالية ؛ فكانت نتيجة سقوط صقلية ان استولى النرمان على مدينة طرابلس الغرب سنة ٥٤٠ ؛ فافنى رجالها وسبى حرمها ، لان اهلها ثاروا بالنرمان واطردوهم ، اذا كانوا قد احتلوها قبل ذلك سنة ٥٢٠ .

ثم احتل النرمان مدينة صفاقس سنة ٥٤٣ ، واحتلوا مدينة المهدية ، واطردوا منها سلطانها الحسن بن على بن يحي سنة ٥٤٣ .

سيرة النرمان الاولى — كان النرمان لم يختلطوا بعد بالمسلمين في غير ميادين القتال فكانوا لم يزالوا على فطرتهم الوحشية الاوروبية الاولى ، ولم يعترفوا بعد من المدنية الاسلامية التي كانت وضاءة لامعة رغم الحروب ورغم الفتن والقلاقل والخلافات السياسية والحزبية والعنصرية .

فان رجار الاول ملك النرمان لما تم له الامر كاملا بارض الجزيرة اسكن الروم والنرمان مع المسلمين فى سائر جهاتها ، فتم الاختلاط بينهم ؛ ولم يترك لاهالها من المسلمين حسبما يرويه ابن الاثير : حماماً ولا دكانا ولا طاحونا ولا فرنا .

فكانت ايام رجار الاول — نحو الثلاثين سنة — ايام تنكيل وزجر ، ايام اقتلاع كل جذور الحكم الاسلامي بالجزيرة وتمكين سلطان المسيحية فيها ، كانت دوراً من ادوار الفتح الحربى ، دام طيلة ايام رجار الاول ؛ الا انه يسجل لهذا الملك انه لم يعمد الى قتل المسلمين ولم يشردهم عن البلاد ، فكان ذلك سببا فى بقاء المدنية الاسلامية وازدهارها فيما بعد بصفة لامعة وضاءة ، وكان النرمان انفسهم اول مستفيد منها .

وفى سنة ٥٤٨ احتلوا مدينة عنابة وجزيرة قرقنة .

واحتلوا سنة ٥٤٨ كذلك جزيرة جربة وفتكوا باهلها فتكا ذريعا .

القسم السابع
صقلية الاسلامية
تحت الحكم المسيحي النرماني

رجار الثاني — كان من اغرب نتائج استيلاء النرمان على صقلية ان الغالبين النرمان تاثروا ايما تاثر بمدنية المسلمين المغلوبين ؛ و كان اختلاط العنصرين في المدن والقرى والبوادى سببا لتعارفهم السريع ، وافول لنا لفهم البديع .

لقد نشأت في هاتيك الاصقاع ، منذ انتهاء عصر الفتح ، وموت الملك الفاتح رجار الاول مدنية جديدة زاهية زاهرة ، ظاهرة لامعة ، يمكننا ان ندعوها المدنية النرمانية الاسلامية .

كأن المسلمين حين فقدوا سلطانهم السياسي بهاتيك الديار وضعفت عصبيتهم عن مزاولة الحكم وممارسة رئاسة الدولة ، فقدوا جميع الاسباب التى كانت تحول بينهم في منازعاتهم الداخلية آخر ايام ملكهم وبين الاستمرار على نشر رسالتهم العلمية الفنية المدنية الرائعة ، فاقبلوا يومئذ تحت حماية النرمان على العلوم والفنون والآداب ، وانشاء المباني الجليلة الضخمة والقصور البديعة ، وحتى الكنائس والكاتدرات مما لا تزال آثاره الجليلة قائمة الى يومنا هذا ، ولقد دام هذا الدور البديع دور المدنية الاسلامية النرمانية طيلة عهد النرمان في صقلية .

يقول ابن الاثير عن رجار الثانى :

«سلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك ؛ وخالف عادة الفرنج فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك وجعل له ديوان المظالم يرفع اليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده واكرم المسلمين

وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه » .

قال غوسطاف لوبون فى تاريخه الشهير عن هذا العهد من تاريخ المدنية الاسلامية النرمانية : (ص ٣١٦)

« كانت مدنية العرب لا تزال زاهية زاهرة بصقلية عندما اتم النرمان فتحها ولقد اظهر رجار وخلفاؤه من بعده عقلا راجحا ، عندما ادركوا سمو منزلة اتباع الرسول ، فاقتبسوا عنهم النظم والتراتيب الادارية وبذلوا لهم حمايتهم ؛ وبذلك اتاحوا للبلاد عصر رفاهيه دام الى عصر ملوك السواب الالمان (١١٩٤) الذين ابعدوا العرب خارج صقلية .

ثم يقول فى موضع آخر من كتابه المذكور ، عن هذه الفترة التاريخية ايضا (ص ٤١٦) :

« لقد ادرك الملك رجار كما ادرك رجال المسلمين ان التسامح وحده هوالذي يكفل الحكم الصالح للجميع وكانت الارستقراطية ، اعيان الامة وعلية القوم من رجال العلم والفكر والصناعة مؤلفة خاصة من المسلمين فبذل لهم حمايته بصفة فعالة .

ولقد سلك خليفته غليوم (١) خطته فتعلم العربية وحذقها ، وكان لا يعتمد فى المهمات الدقيقة الا على العرب خاصة ؛ واعترف له هؤلاء بالجميل ، فكانوا ينضوون تحت لوائه لمقاومة الخصوم واخماد نيران الفتن وكانت لهم في بالرمة حارات فسيحة ومساجد ضخمة وائمة وقاض يفصل ما شجر بينهم وبفضلهم كان بلاط ملوك النرمان زاهراً كثير التألق حتى امكن للمؤرخ ابي الفداء ان يقول عنه ، بانه كان يضاهي بلاط الخلفاء في بغداد والقاهرة . »

يقول الشريف الادريسي الصقلي في كتابه الشهير « نزهة المشتاق في اختراق

---

(١) يدعوه مؤرخو القرون الوسطى الافرنج « غليوم الخبيث » وذلك لميله للمسلمين واخذه بايديهم واعتماده فى المهمات عليهم .

الآفاق » عن الملك رجار :

« فان افضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الافكار والخواطر ، ماسبق الملك المعظم رجار المعتز بالله ، المقتدر بقدرته ، ملك صقلية وانكبردة وايطاليـا وقلورية امام رومية الناصر للملة النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا وقبضا وصرف الامور على ارادته صرفا وقبضا ، ودان في ملته بدين العدل ؛ واشتمـل عليهم بكنف التطول والفضل ؛ وقام باسباب مملكته احسن قيام ، واجرى سنن دولته على افضل نظام واجمل قيام . الخ

ملوك النرمان الذين تولوا امر صقلية

الملك	الولادة	الولاية	الوفاة
رجار الاول	١٠٤٠	١٠٧٠	١١٠١
ابنه رجار الثانى	١٠٩٣	١١٠١	١١٥٤
ابنه غليوم الخبيث (١)	١١٢٠	١١٥٤	١١٦٦
ابنه غليـوم الحسن	١١٥٤	١١٦٦	١١٨٩
طانكريت (٢)		١١٩٠	١١٩٤
غليوم الثالث		١١٩٤	

وهو آخر ملوك النرمان ، تولى صبيا تحت رعاية امه (سبيلا) لكن الامبراطور الالمانى هنرى استولى فعلا على امر البلاد وضمها للامبراطورية وساق غليوم وامه واخوته للاسر فسمل اعينهم وحبسهم فى قلعة حتى لاقوا حتفهم .

(١) اطلق النصارى عليه هذا الاسم لحسن سيرته مـع المسلـين ولانه عندما تولى الملك اعتمد في المهمات عليهم .

(٢) هو ابن غير شرعي لرجار الثانى ؛ وفى ايامه تدخـل الامـبراطور هنري الرابع الالماني فى امر صقلية وضرب على ايدي النرمان والمسلمين معا .

النفوذ الاسلامى بصقلية

تحت امرة ملوك النرمان

يقول مسيو لوط السالف ذكره، فى كتابه «غارات الهمج» عن هذه الحقبة من تاريخ المسلمين في صقلية :

«انتهى امر الاستيلاء العربى بجزيرة صقلية ؛ لكن الحياة العربية قد استمرت بعد ذلك ، فالملك رجار الاول ؛ والملك رجار الثاني الذى استبدل لقبه واصبح يدعى الملك بدل الكونت و كذلك غليوم الاول وغليوم الثانى قد نفذوا جميعاً ما تعهدوا به لجماعة المسلمين هنالك من احترام عوائدهم وقوانينهم ولغتهم ودياناتهم .

ثم ان ملوك النرمان قد استخدموا المسلمين ضمن جنودهم ؛ وتركوا للمدن الصقلية وكانت كلها يومئذ مدناً اسلامية (١) سائر نظمها البلدية والعرفية والصناعية وفتحوا في وجه المسلمين ابواب ارفع مناصب الدولة يتولونها ، اما علماء المسلمين ورجال الادب والفكر منهم فقد كانوا خلاصة الخاصة في بلاط الملوك .

اما بالنسبة لسائر الرعايا المسلمين فقد كان ملوك النرمان امراء معتنقين الدين المسيحي ؛ ويقول عمارى ان الامبراطور فريدريك الثانى كان كما كان رجار الثاني قبله سلطانا من سلاطين الشرق لا يميزه عنهم الا تدينه بالمسيحية .

. . . . ولقد دام الرقي المادي العربي والحضارة الادبية العربية امداً طويلا وورثها عن ملوك النرمان ملوك الالمان من عائلة هوهانستوفن كهنري الرابع وافريدريك الثانى .

«ولعلنا لا نجد مندوحة عن المقارنة بين سياسة ملوك النرمان الحرة الماهرة مع مسلمي صقلية وبين سياسة ملوك قشتالة الاسبان مع مسلمى الاندلس لكننا نقول ان

---

(١) انظر فيما بعد قسم : كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

فارقا جسيماً يمنعنا من هذا التنظير حيث ان المسيحيين في اسبانيا كانوا يتواون بانفسهم اخراج المسلمين الغاصبين من بلادهم اما في صقلية فان النرمان انفسهم كانوا اجانب غاصبين بل كانوا في اول امرهم مغامرين مكروهين واضطروا الاصطناع الناس بحسن السلوك فقربوا منهم المسلمين واجلوا معاملة النصارى سواء كانوا من الصقليين اللاتينيين او من الصقليين الاغريق .

كانت حياة المسيحيين بصقلية اثناء حكم المسلمين من الاغالبة او الفاطميين حياة مظلمة النواحي لا نستطيع ان نستجلي غوامضها ، لان الكتابات المسيحية واغلبها كان مكتوبا باللغة اليونانية قد اتلفت خلال القرن العاشر ؛ انما كان مقامهم هنالك كمقام سائر المسيحيين الذين عاشوا تحت حكم المسلمين ، اي انهم كانوا يدفعون للدولة اتاوات ثقيلة وكانوا في اكثر الاوقات بعيدين عن المناصب الادارية ، ولقد كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية انما على شرط ان يكون ذلك بصفة هادئة خافتة

وان عدم وجود شهداء المسيحية بهذه الاقطار خلال هذا العصر يدل دلالة صريحة على تسامح المسلمين نسبيا ؛ ويقول ميكال عماري ان استشهاد وتعذيب القديس بورروكوب اسقف طبرمين عند سقوط هذه المدينة سنة ٩٠٧ بين ايدى المسلمين لم يكن نتيجة تعصب ديني اسلامي بل كان نتيجة جنون ابراهيم الاغلبي الثاني الذى قاسى اهله وذوو قرابته الاهوال من جنونه .

.... لقد ازدهر التفوق الاسلامي بصقلية ازدهاراً لامعاً من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر حتى يكاد يخيل لك ان صقلية قد اصبحت جزيرة عربية بحتة وكنت تنتظر بعد ذلك ان ترى فوق اديم صقلية معالم وآثاراً تباهي بجمالها وجلالها معالم وآثار اسبانيا والمغرب وتونس لكن يالها من خيبة امل ، انه لم يبق لنا من ذلك اي شيء سواء معالم الدين او الحياة المدنية انما يتجلى لك نفوذ الهندسة العربية في قصور وكنائس النرمانيين امثال قصور القبة والعزيز والقبولاء

او كاتدرائيات بالرمة وشفالو .

... نظراً لذلك الدور العظيم الذي لعبه بارض الجزيرة علماء الرياضة والمنجمون والاطباء والمهندسون المسلمون ؛ ونظراً لكون البلاط الملوكي النورماني كان بلاطاً شرقيا فى نظر امراء المسيحية؛ كان ينتظر ان تحيا العربية فى هاتيك الديار حياة طويلة لكن شيئاً من ذلك لم يكن واخذت العربية تتراجع وتتقهقر خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الى ان تضاءلت حتى فى المدن وذلك يرجع لسببين اثنين اولهما ان الطبقات الراقية والعليا من المسلمين قد هجرت الجزيرة الى افريقيا ومصر وثانيهما وهو الاهم ان الرهبان اللاتينيين قد امعنوا فى تنصير الناس طوعاً او كرهاً بحيث ان الاسلام اضمحل تماما من ارض الجزيرة حسبما يلاحظه عماري خلال القرن الثالث عشر »

بعد مائة عام ــ حكاية ابن جبير ـــ فى سنة ٥٦٠ هجرية (١١٧٢ م) اي بعد مائة عام من انهيار حكم المسلمين بصقلية ودخولها تحت طاعة النرمان وبعد ان تدخل فملا الالمان فضربوا على ايدى آخر ملوك النرمان دخل صقلية قافلا من حجه الرحالة الشهير ابو الحسين بن جبير الكناني الاندلسي فترك لنا وثيقة من اغرب وثائق التاريخ هي رحلته البديعة التى صور فيها تصويراً دقيقاً حالة المسلمين فى الجزيرة مع ملوك النصارى فى احرج ساعة وادق موقف اي في الساعة التى سبقت انتهاء عصر التسامح الديني واخراج المسلمين كافة من صقلية .

فهذا القسم من الرحلة يعتبر اصدق تاريخ لتلك الحقبة من التاريخ الصقلي وهل نتف منه بنصها نعتبره تقمة لبحثنا هذا ؟ يقول ابن جبير وهو فى مسينا :

« وكفى بانها ابنة الاندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة مشحونة بالارزاق على اختلافها مملوءة بانواع الفواكه واصنافها لكنها معمورة بعبدة الصلبان يمشون فى مناكبها ويرتعون في اكنافها والمسلمون معهم على املاكهم وضياعهم قد

أحسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم : وضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة فى الارض كانوا يجدونها .

... وليس في مسينا هذه من المسلمين الا نفر يسير من ذوى المهن ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب . »

ثم حل بالرمة فكتب لنا عنها هذه القطعة الطريفة : « في مسكن ملكهم غليام Gillaume (١) وشان ملكهم عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم فى احواله والمهم من اشغاله حتى ان الناظر فى مطبخه رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كثيرة هم اهل دولته والمرتسمون بخاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ومامنهم الا من له الحاشية والخول والاتباع وليس في ملوك النصارى اترف في الملك ولا انعم ولا ارفه منه وهو يتشبه في الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له ان طبيباً او منجماً اجتاز ببلده امر بامساكه وادر له ارزاق معيشته ، حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة ... ومن عجيب شأنه انه يقرأ ويكتب العربية ، وعلامته على ما اعلمنا به احد خدمته المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابيه : « الحمد لله شكراً لانعمه » .

« واما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ، ومن اعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك

---

(١) هو غليوم الحسن ورحلة ابن جبير وقعت فى آخر سنة من ملكه .

ان النصرانية من الفرنجيات تقع في قصره فتعود مسلمة، يعيدها الجواري المذكورات مسلمة، وهن على تكاتم من ملكهن فى ذلك كله، ولهن فى فعل الخير امور عجيبة.

« واعلمنا انه كان بهذه الجزيرة زلازل مرجفة، ذعر لها هذا المشرك، فكان يتطلع فى قصره، فلا يسمع الا ذاكرا لله ورسوله من نسائه وفتيانه، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم: ليذكر كل احد منكم معبوده ومن يدين به تسكينا لهم.

« واما فتيانه الذين هم عيون دولته واهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون، ما منهم الا من يصوم الا شهر تطوعا وتؤجرا، ويتصدق تقربا الى الله وتزلفا ويفتك الاسارى ويربي الاصاغر منهم ويزوجهم، ويحسن اليهم، ... الفينا منهم بمسينة فتى اسمه « عبد المسيح » من وجوههم وكبرائهم، بعد تقدمة رغبة منا اليه فى ذلك، فاحتفل في كرامتنا وبرنا، واخرج لنا من سره المكنون بعد مراقبة منه فى مجلسه، ازال لها من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسالنا عن مكة قدسها الله، وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فاخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا، ... وقال لنا انتم مدلون باظهار الاسلام؛ فائزون بما قصدتم له رابحون ان شاء الله، ونحن كاتمون ايماننا خائفون على انفسنا متمسكون بعبادة الله واداء فرائضه سرا متعلقون في ملكة كافر بالله قد وضع في اعناقنا ربقة الرق ...

« ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان انهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون افذاذاً من مجلسه فيقضون صلاتهم ... فلا يزالون باعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين فى جهاد دائم »

ويقول عن مدينة ثرمة:

« وسرنا في طريق كأنها السوق عمارة، وكثرة صادر ووارد وطوائف

النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا ، فراينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين مايوقع الفتنة في نفوس اهل الجهل . . . فانتهينا الى « قصر سعد » وهو على فرسخ من المدينة وقد اخذ منا الاعياء فبتنا فيه ، وهذا القصر على ساحل البحر ، مشيد البناء عتيقه ، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة ، لم يزل ولا يزال بفضل الله مسكنا للعباد منهم ، وحوله قبور كثيرة للمسلمين ، اهل الزهادة والورع وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان ، وبازائه عين تعرف بعين المجنونة ؛ وله باب وثيق من الحديد وداخله مساكن وعلالي مشرفة وبيوت منتظمة ، وهو كامل مرافق السكنى ؛ وفي اعلاه مسجد من احسن مساجد الدنيا بهاء ، مستطيل ذو حنايا مستطيلة مفروش بحصر نظيفة لم ير احسن منها صنعة ، وقد علق فيه نحو الاربعين قنديلا من انواع الصفر (النحاس) والزجاج ، وامامه شارع واسع ، يستدير باعلى القصر وفى اسفل القصر بئر عذبة ، فبتنا في هذا المسجد احسن مبيت واطيبه ؛ وسمعنا الاذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه ، واكرمنا القوم الساكنون فيه ، ولهم امام يصلي بهم الفريضة والتراويح فى هذا الشهر المبارك

ووصف حال مسلمي بالرمة فقال :

والمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان ، يعمرون اكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة باذان مسموع ؛ ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والاسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ،ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الاعياد بخطبة ، ودعاؤهم فيها للعباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون اليه فى احكامهم ، وجامع يجتمعون فيه للصلاة ، ويحتفلون فى وقيده فى هذا الشهر المبارك ، واما المساجد فكثيرة لا تحصى ، واكثرها محاضر لمعلمي القرآن . . .

وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين ؛ فصيحات الالسن ، ملتحفات ، متنقبات ، خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب

والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن او كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قول الشاعر :

ان من يدخل الكنيسة يوما يلق فيها جاذراً وظباء

« . . . وبتنا في الطريق ليلة واحدة في بلدة تعرف بعلقمة ، وهي كبيرة متسعة فيها الاسواق والمساجد وسكانها وسكان الضياع التي في هذا الطريق كلهم مسلمون »

ثم حل بمدينة اطرابنش فقال :

« وكان مصلانا في هذا العيد المبارك (عيد الفطر) باحد مساجد اطرابنش المذكورة ، مع قوم من اهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر لهم ؟ . . . وخرج اهل البلد الى مصلاهم ، مع صاحب احكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات فعجبنا من ذلك ومن اغضاء النصارى لهم عليه .

ابتداء امر الفتنة في الدين — مما يرويه ابن جبير ، بعد ان اقام مدة الشتاء في مدينة اطرابنش :

« تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال اهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها — دمرهم الله — وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك الى دواعي طواري الفتنة في الدين على من كتب الله عليه الشقاء من ابنائهم ونسائهم ؟ وربما تسبب الى بعض اشياخهم اسباب نكالية تدعوهم الى فراق دينهم .

« فمنها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التي في حضرة ملكهم الطاغية ؟ ويعرف (الفقيه) بابن زرعة ، ضغطته بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس في دين النصرانية ، ومهر في حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في

الاحكام النصرانية ، وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتي ايضا فيه لما سبق من معرفته بالاحكام الشرعية ؛ ويقع الوقوف عند فتياه في كلا الحكمين ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ومع ذلك فاعلمنا انه يكتم ايمانه .

«ومن اعظم ما مني به اهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه او على زوجه او تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه انفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة فيتنصر ويتعمد فلا يجد الاب للابن ولا الام للبنت سبيلا؛ فتخيل حال من مني بهذا في اهله وولده ويقطع عمره متوقعاً لوقوع هذه الفتنة فيهم ، فهم الدهر كله في مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال ، واهل النظر في العواقب منهم يخافون ان يتفق على جميعهم ما اتفق على اهل جزيرة اقريطش من المسلمين في المدة السالفة فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حالا بعد حال ؛ حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته .

زعيم المسلمين ابن حمود — قال ابن جبير :«وصل هذه الايام الى هذه المدينة زعيم اهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم: القائد ابو القاسم ابن حمود المعروف بابن حجر ، وهذا الرجل من اهل بيت بهذه الجزيرة ، توارثوا السيادة كابراً عن كابر ، وقرر لدينا مع ذلك انه من اهل العمل الصالح مريد للخير محب لأهله كثير الصنائع الاخراوية ، من افتكاك الاسارى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج ، الى مآثر جمة ومناقب كريمة فارتجت هذه المدينة لوصوله .

وكان في هذه المدة تحت هجران من الطاغية الزمه داره بمطالبة توجهت عليه من اعدائه ، افتروا عليه فيها احاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين ايدهم الله كادت تقضي عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرمته نيفاً على الثلاثين الف دينار مؤمنية ولم يزل يتخلى عن جميع دياره واملاكه الموروثة عن سلفه

حتى هي بدون مال .

«فاتفق فى هذه الايام رضى الطاغية عنه وامره بالنفوذلهم من اشغاله السلطانية فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عنه عند وصوله الى هذه البلدة رغبة فى الاجتماع بنا فاجتمعنا به ، فاظهر لنا من باطن حاله وبواطن احوال هذه الجزيرة مع اعدائهم ما يبكى العيون دماً ويذيب الما ، فمن ذلك انه قال: كنت اود لو ابيع انا واهل بيتى فلعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ، ويؤدى بنا الى الحصول فى بلاد المسلمين ومن عظم هذا الرجل المحمود المذكور فى نفوس النصارى انهم يزعمون انه لو تنصر لما بقي فى الجزيرة مسلم الا وفعل فعله ، اقتداء به » .

حادث له مغزاه الاليم — وآخر ما نرويه عن ابن جبير ، هذه الحادثة الغريبه التى تملؤ النفوس لوعة واسى وتدل دلالة قوية على ان مقام المسلمين بصقلية رغم مظاهر التسامح الدينى ، كان مقاما قد قصر امده وانتهت مدته :

«ومن اعجب ما شاهدناه من احوالهم التى تقطع النفوس اشفاقا وتذيب القلوب رافة وحنانا ، ان احد اعيان هذه البلدة وجه ابنه الى احد اصحابنا الحجاج راغبا فى ان يقبل منه بنتا بكراً صغيرة السن قد راهقت الادراك ، فان رضيها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن رضي لها من اهل بلده ويخرجها مع نفسه راضية بفراق ابيها واخوتها ، طمعا فى التخلص من هذه الفتنة ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين فطاب الابن والاخوة نفسا بذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلص الى بلاد المسلمين بانفسهم اذا زالت هذه العلقة المقيدة عنهم .

« فتأجر هذا الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك واعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية الى خير الدنيا والآخرة ؛ وطال عجبنا من حال تؤدى بانسان الى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب ، واسلامها الى يد من يغربها ، واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها ، كما استغربنا حال الصبية صانها الله ورضاها بفراق اهلها رغبة في الاسلام ؛ واستمساكا بعروته الوثقى » .

فريدريك الثانى

امبراطور المانيا وملك صقلية

كان الامر قد استتب للالمانيين بصقلية وربوع ايطاليا؛ واحتضنت البابوية تلك الامبراطورية الجرمانية وشملتها بالرعاية مستفيدة من قوتها المادية لبسط سلطانها الروحي؛ كما استفاد الالمانيون من ذلك النفوذ الروحي لتقوية سلطانهم المادي ولقد ظهرت آثار ذلك التعاون جلية اثناء الحروب الصليبية التي كانت متقدة الاوار بالبلاد الشامية، وكانت البابوية تذكى الحمية فى نفوس الملوك والاباطرة والامراء باروبا وتبعث منهم الفوج اثر الفوج للجهاد فى سبيل الصليب .

في تلك الاثناء فى مفتتح القرن الثالث عشر المسيحي، تألق فى السماء الاروبي نجم جديد هو نجم الامبراطور الشاب فريدريك الثانى، الذى ترعرع تحت رعاية البابا انوسانت الثالث، الذي كان يطمع فى ادارة الدنيا واخضاعها لسلطانه، فلما مات ذلك البابا سنة ١٢١٦، عندما كان يتفقد التجهيزات النهائية للحملة الصليبية استقل فريدريك بامور نفسه متخلصا من كل نفوذ .

نشأ فريدريك نشأة صقلية عربية، اذ كانت امه كنستنسا صقلية النشأة والمسكن، فتربى هنالك فى وسط راق رقيق الحاشية جمع الى مدنية المسلمين وحضارتهم رقة الآداب الاغريقية وعلومهم؛ فلما استقل بامور الملك حين ترشد اتخذ من بالرمة مقراً لسلطانه، وسار على غرار ملوك النرمان السالفين ومن سبقهم من ملوك وامراء المسلمين .

اقرار المسلمين بالجنوب الايطالي — انتهى عهد ملوك النرمان بصقلية بعد سلطان دام مائة عام، وانتهى معه كما اسلفنا عهد راحة المسلمين وحريتهم وابتدأت اعمال الاضطهاد والتنكيل تحت تأثير الكنيسة، وتحت مفعول الحرب الصليبية تظهر نتائجها فجمع المسلمون امرهم عند ما تولى البابا انوسانت الثالث الوصاية على

فريدريك الصبي وخلعوا طاعة الجرمانيين واعلنوا الثورة لكن الجنود المسيحية غلبتهم على امرهم سنة ١٢٠٠ فسكنوا حيناً ثم عادوا للعصيان والثورة فرارا من الفتنة في الدين فكان على الامبراطور فريدريك اخضاعهم فيما بين سنتين ١٢٢١ و ١٢٢٥

لكنه فكر في وسيلة تمكنه في آن واحد من التخلص من اولئك الرجال الاشداء من صقلية واستعمال قوة سواعدهم وصلابة سيوفهم لتمكين سلطانه وقهر اعدائه بالبلاد الطليانية، لانهم يحاربون غير متأثرين بالفكرة المسيحية وهكذا اخذ ينقل للبلاد الطليانية جموعا كثيرة من المسلمين اسكنهم اول الامر مدينة لصيرة، ثم نصيرة (انظر الخريطة) وقد بلغ عدد المسلمين والمسلمات هنالك (٦٠) الف نسمة منهم الثلث من رجال السيف والطعان ولقد احدث هذا العمل رجة في العالم المسيحي وكان من جملة الاسباب التي حملت البابا على اعلان (كفر) فريدريك لانه استعمل المسلمين لقتال المسيحيين بينما الكنيسة تعمل على جمع كلمة المسيحيين لقتال المسلمين شرقا وغربا.

ولقد سار فريدريك اول مرة لبلاد فلسطين مشاركاً في الحرب الصليبية استرضاء للمسيحيين؛ لكن البابا اغتنم فرصة ابتعاد الملك الامبراطور لايقاد نيران الفتن في بلاده ودفع امراء الطليان لرفع لواء العصيان فكان جنود فريدريك الصقليون ومسلموا نصيرة ينكلون بالثائرين ويخضعونهم.

تاسيس المملكة — رجع فريدريك من فلسطين واعلن سنة ١٢٣١ تاسيس مملكة صقلية وقد كان متشبعاً بالنظم الشرقية الاسلامية؛ وكانه ذهب لبلاد الشرق الادنى ليدرس النظم الاجتماعية والادارية لا ليحارب المسلمين؛ فرتب يومئذ امور الدولة ترتيباً اجمع المؤرخون على انه كان حجرة الاساس في تكوين الدول الحديثة واسس الدواوين المختصة وفصل بين السلط القضائية والمالية والتشريعية التي

كانت من خصائص الملك وحده وقضى على سلطة الكهنوت بصفة جعلت البابا غريغريوس القاسم يعلن ان الملحد فريدريك « محارب للكنيسة متلف للحريات العامة » والحريات العامة في نظر البابا هي حرية رجال الدين خاصة .

البلاط — في القصر الملكي بپالرمة (انظر رسمه في القسم المصور) اعاد الملك رونق وبهاء بلاط ملوك النرمان والمسلمين ؛ وجمع حوله في تناسق غريب جملة من جلة علماء المسلمين والاغريق واللاتينيين ؛ ولقد كان الملك يحسن التكلم بالالسن العربية والالمانية والطليانية والاغريقية والفرنسية ؛ وكان متبحراً في علم الحيوان والنبات وقد اخذ معه من بلاد الشرق طائفة من غريب الحيوان شكل منها « متحفا » كان ينقله معه اثناء حروبه بايطاليا .

واذ كانت العلوم قد تضاءلت في صقلية وجنوب ايطاليا فان الملك فريدريك اسس جامعة « نابولي » التي كانت اولى الجامعات الحديثة من نوعها وقد جاء في مرسوم تاسيسها « ان سائر معلومات الانسان يجب ان تدرس بنابولي ، لكي يجد كل جائع للعلم الغذاء الذي تميل نفسه اليه حتى لا يكون مضطراً للهجرة في سبيل المعرفة واستعطاف الاجانب من اجل العلم . »

وبما ان « جامعة سالرنة » الطبيــة كانت ذات شهرة واسعة تدرس على الطريقة التي اختطها العلامة التونسي الصقلي (قسطنطين) (١) اعلن الملك فريدريك انه لا يجوز لانسان ان يباشر مهنة التطبيب ما لم يكن متحصلا على اجازة تلك الجامعة .

الافكار الدينية — كان الامبراطور الملك على صلة متواصلة مع سائر العلماء المسلمين شرقاً وغرباً ؛ وكان يستدعي لبلاطه علماء الاندلس وافريقيا ، ويجادلهم في علوم الكلام ومسألة الارواح وخلود النفس وما الى ذلك مما هو مرسوم بكتاب يدعى « المسائل الصقلية » كتبت نسخته الاصلية باللغة العربية ؛ وكان حافظاً

(١) انظر ترجمته وآثاره فيما بعد .

لفلسفة ابن رشد ناشرآلها ومدافعاعنهامعجباً بفيلسوف الاندلس امية ابن ابي الصلت

ولقد كانت الحياة نازله في مدينة نصيرة بين الجماعة الاسلامية التى استعمر بها تلك الناحية ، وهنالك كان له قصر شرق وخدم وحواشي وجواري حسان وهنالك كان يحيا حياة سلطان من سلاطين المسلمين .

ولم تكن فكرته الدينية مستقيمة على الوتر المسيحي ، فلقد كتب البابا غريغوريوس التاسع منشوراً لرجال الكنيسة يعلن فيها كفر الملك ويقول « نستطيع ان نثبت ان هذا الملك الفاجر يصرح علنا بان العالم قد غلطه ثلاثة من الادعياء هم : موسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم) وانه بينما قد مات موسى ومحمد فى عنفوان المجد والشرف ، مات عيسى موتة حقيرة وهو معلق على صليب خشبي ؟ ثم يقول ان العقل البشري لايتصور ان امرأة عذراء تلد الاها ، ويجاهر امام الناس انه لا يمكن لانسان ان يعتقد الا ما يقبله العقل ويقوم الدليل على صحته وتشهد الوقائع على ثبوته » .

ولقد كان فريدريك شديد النقمة على الرهبان ، وشديد القسوة على رجال الكنيسة ، ويقول ان عيسى كان فقيراً يحب الفقراء ، فما للرهبان ورجال الكهنوت يجمعون الثروات الطائلة ويعيشون فى الترف والنعيم ؟

ولقد كتب مرة رسالة لامبراطور الروم فاتاتزيس Vatatzes يقول فيها : « يا لسعادة آسيا ؟ ويا لسعادة بلاد الشرق ، هنالك لا يخشى الملوك ثورة شعوبهم ، ولا دسائس رجال الدين حواليهم » .

في الحرب الصليبية — كان البابا يستثير العامة ورجال الدين ، واوروبا كلها ضد فريدريك ، فاضطر هذا للعودة تخفيفا لتلك الغائلة ، للميدان الشرقي والحرب الصليبية ؟ فارسل الحملة تحت قيادة احد رجاله ، وكانت نتيجتها ان استولى المسلمون على دمياط (سنة ١٢٢١) فاشتدت نقمة المسيحيين على الملك ، واضطر للسفر بنفسه

سنة ١٢٢٨ ، لكنه لم يعمل هنالك اعمال صلبي محارب ، بل اخذ يختلط برجال المسلمين و كبرائهم و بربط صلات الود والادب والعلم معهم ، فما كانت الوقائع الحربية الا فاترة من الجهتين ، انتهت بعقد معاهدة مع سلطان مصر الملك الكامل نال بها المسيحيون صلحا بيت المقدس و بيت لحم والناصرة ، فلم تشبع تلك الحالة نهم البابوية ورجال التعصب ، وصدر الحكم « بكفر » الامبراطور الملك فريدريك

لكن الامبراطور رأى انه لا تمكن له مقاومة الكنيسة بصفة علنية ، وانه لا يستطيع الحكم ورجال الدين على الاطلاق وشعبه ضده ، فاخذ يعمل لنيل رضا البابا ، حتى نال الغفران ، ووقع نشر البلاغين التاليين :

يقول البابا في منشوره « لقد جاءني الامبراطور و بين جنبيه نفس مؤمنة مطمئنة ورايت انه على استعداد ليقوم باي عمل في سبيل منشآتنا وتحقيق غاياتنا . »

ويقول الامبراطور في منشوره : « لقد خاطبني البابا بقلب مفتوح وهدأ ثائرة نفسي ، فلا اريد ان اتذكر شيئا من الماضي . »

هنالك ثارت ثورة التعصب الكنسي ؛ واسترجع رجال الكهنوت نفوذهم وسلطانهم وقاموا برد الفعل فاخذوا يمعنون في تتبع « الكفار » والتنكيل بهم ، واحراقهم ونال المسلمون من ذلك جانبا عظيما .

اخراج آخر المسلمين من صقلية — اصبح المسلمون يغادرون الجزيرة جماعات وافراداً ، كلما وجدوا للخروج سبيلا ، فلم يبق منهم هنالك الا الاقل يعيشون في ذل ومسكنة .

لما تفاقم امر ذلك ، و كانت دولة الموحدين العلية قد تركت في بلاد تونس ثمرتها الطيبة ، دولة بني حفص ، عقد السلطان ابو زكريا بن ابي محمد عهداً مع الامبراطور يضمن للمسلمين في بالرمة وضواحيها حرية دينهم وذواتهم واملاكهم ، وان يكونوا شركاء للنصارى في البلاد والضاحية ؛ وبقي المسلمون

آخر ايامهم هنالك متمتعين بتلك العناية الحفصية الغالية :

عندما لبى ابو زكريا داعي ربه فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ (١٢٦٠ م) وبلغ نصارى صقلية موت السلطان المسلم العظيم ؛ بادروا بنقض ذلك العهد ولجوا فى طغيانهم ضد المسلمين وتكالبوا عليهم ، فلجأت بقايا المسلمين هنالك للحصون والاوعار ؛ ونصبوا عليهم زعيما عربيا من بنى عبس ؛ فصمد اليهم النصارى وحاصروهم وضيقوا عليهم حتى استسلموا ، فاركبهم الملك البحر (١) واجتاز بهم الى الارض الافريقية ، وعرج النصارى كذلك على جزيرة مالطة ، فاخرجوا منها فى تلك السنة سائر من كان قد بقي بها من المسلمين ؛ واحلوهم البلاد الافريقية كذلك ؛ وانقطعت يومئذ آخر كلمة للاسلام بهاتيك الديار ، والملك لله الواحد القهار .

<u>موت الملك واستشهاد مسلمى نصيرة</u> — سلك الملك منذ تلك الساعة سياسة اروبية مسيحية بحتة وتمكن بواسطة البابا من تدعيم سلطانه وبث نفوذه واخضاع الامراء لسلطته الى ان حانت ساعة وفاته وقد كان يحن لشرقيته القديمة ويلذ له السكنى فى قصره بين مسلمى نصيرة وهنالك مات ودفن وله ضريح ضخم .

فلما تولى الملك شارل دانجو ، عمد الى التخلص من جموع المسلمين فى نصيرة فاركب الكثير منهم الى افريقيا سنة ١٢٩٢ بعد ان اقاموا هنالك وازدهر استعمارهم ٦٧ سنة ولقد بقيت منهم بقية من المستضعفين بتلك البلاد راى الملك شارل التخلص منهم دفعة واحدة فاطلق عليهم وحوش جنده سنة ١٣٠٠ فقتلوهم ومحقوا رسمهم من الوجود ووزع ارضهم واملاكهم ومتاعهم على العائلات الطليانية وهكذا انتهى امر الاسلام بايطاليا بعد ما انتهى من صقلية .

---

(١) لاحظ ما في اركابهم البحر وعدم الفتك بهم بعد تلك الثورة من عاطفة انسانية غريبة الوقوع فى تلك العصور المظلمة .

القسم الثامن

التمدن والعمران

شهد المؤرخون كافة ان ايام المسلمين بصقلية سواء حاكمين او محكومين كانت ازهر ايام الجزيرة واكثرها امنا واوسعها عمرانا.

ولا نستطيع مهما اوتينا من مقدرة وبيان ، ان نلخص مدنية المسلمين في الجزيرة الصقلية ونجمل وصفها بمثل مالخصها واجمل وصفها اجمالا بديعا المؤرخ الاكبر النزيه قوسطاف لوبون ، في كتابه مدنيات العرب ؟ فلا نرى اوفق من تعريب الفصل برمته ، اذ هو الصورة الصادقة لمدنية المسلمين هنالك ، صورة لم تكد تترك شاردة ولا واردة الا احصتها وسجلتها ؟ يقول قوسطاف لوبون :

« ان ما لدينا من المصادر ، لاحياء معالم المدنية العربية بصقلية نادر قليل ، بل ان المعلومات الوحيدة التي لدينا تنحصر في روايات المؤرخين المختلفة ، وفي عدد قليل من الآثار التي سلمت من ايدي الخراب والتحطيم ، وفي بعض النقود .

« ذلك المقدار الزهيد الذي بين ايدينا اليوم يكفينا على كل حال لاقامة البرهان على ان مدنية العرب في جزيرة صقلية كانت دون مدنيتهم في اسبانيا وفي مصر ؛ انما هي كانت رغم ذلك موجودة وطيدة الاركان ؛ بحيث ان المستوى الفكري والصناعي والاجتماعي في صقلية كان ارفع عند خروج المسلمين من صقلية من المستوى الذي كانت عليه عندما دخلوها .

لا يستطيع انسان ان يدرك مدى التاثير التمديني لشعب على آخر الا بمدى ما احدثه فيه من اثر اصلاحي فاذا نحن جرينا على هذه القاعدة راينا ان النفوذ الصالح للعرب في جزيرة صقلية كان جسيما .

النظام الاداري(١) — عندما اتم المسلمون فتح الجزيرة ابتدأوا فيها عصر التنظيم والترتيب ولقد كانت الجزيرة مقسمة منذ عهد الفنيقيين الى ولايتين: سرقوسة وبالرمة فالعرب قسموها الى ثلاث ولايات(٢) تقسيما مناسبا للوضعية الجغرافية.

ولقد كان لكل وال من الولاة فى هذه الاقاليم الثلاثة تحت امرته طائفة من القواد يحكمون النواحى.

القضاء — كان المفتي وهو قاضي القضاة ينتصب في مدينة بالرمة. وفي كل مدينة من المدن كان يوجد قاض و كاتب.

الجباية والديوان — فى كل مدينة كان يوجد مستخلص الضرائب والعشور وهنالك (ببالرمة) مجلس اكبر يدعى الديوان (٣)؛ من خصائصه ضبط اموال الدولة وفحص الحسابات العامة.

الحرية الدينية والمدنية — كان المسيحيون الصقليون يتمتعون فى كل ما ليس له مساس بالصالح العام بقوانينهم الدينية والمدنية، ولهم كذلك حق الحكم فيما بينهم.

فالقضاة من الاغريق الذين كان يطلق عليهم اسم « ستراتيج » او الحكماء قد احتفظوا مدة الفتح الاسلامي بوظائفهم وبامتيازاتهم وحتى باسمهم التقليدى القديم فكانوا يحكمون فى كل خلاف شجر بين النصارى وكانوا هم الذين يتولون جمع الجزية التى فرضها العرب على رعاياهم النصارى، وكان مقدارها: ٤٨ دينارا فى السنة على كل رجل غني و ٢٤ ديناراً على متوسط الحال، و ١٢ ديناراً على العامل

---

(١) العناوين الصغيرة اضفناها على الاصل لزيادة البيان (٢) هي: سرقوسة ونوطس وبالرمة (٣) اخذ النرمان نظام الديوان واسموه « Dohana » ومنها اخذ الاوربيون كلمة الدوان « Douanes ».

الذى يكسب قوته بعمل يديه فكانت هذه الضريبة ، اقل مما كان يدفعه النصارى تحت حكومة الروم . اما النساء والاطفال فكانوا لا يدفعون ادنى اتاوة .

ولقد كانت كل القوانين المدنية المتعلقة بالاملاك وبالمواريث ونحو ذلك منطبقة غاية الانطباق على عادات البلاد واخلاقها الى درجة ان النرمان عندما استولوا على البلاد ابقوا العمل جاريا بهاتيك القوانين ولم يمسوا منها شيئاً .

التسامح الدينى — لقد احتفظ المسيحيون ايام سلطان المسلمين بقوانينهم وعاداتهم وحرية معتقدهم ، ولقد قال الراهب الدومينكي كورادين من كنيسة القديسة كاترينة بپالرمة « ان الرهبان كانوا يخرجون مرتدين ثيابهم التقليدية الدينية ، ويذهبون كذلك يحملون الى المرضى طقوس الدين .

اما الراهب مور كولي ، فيقص علينا قصة الحفلات الدينية فى مدينة مسينا ، حيث كان المسيحيون فى اعيادهم يحملون علمين : علما اخضر اللون وفى وسطه برج اسود ، وهو علم المسلمين ؛ وعلما احمر في وسطه صليب ذهبي هو علم النصارى .

ولقد ابقى المسلمون فى صقلية سائر كنائس النصارى ولم يمدوا لها ايديهم بسوء لكنهم لم يسمحوا لهم باقامة كنائس جديدة ، وذلك خلافا لما كان واقعا فى اسبانيا

الزراعة — ما كاد العرب يبسطون سلطانهم على جزيرة صقلية حتى اندفعوا فى ميدان الفلاحة (١) والصناعة ، فانتشلوها من وهدة السقوط العظيم الذى وقعتا من قبل فيه .

لقد ادخلوا الى الجزيرة غراسة القطن ؛ وقصب السكر وشجرة المن Frêne والزيتون (والفستق والبرتقال والليمون (٢) ؛ واحدثوا فى سبيل خدمة الارض

---

(١) يقول الرحالة ابن حوقل : ان حقول القمح والشعير كانت تبسط على اكثر اقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الابريز .

(٢) قال مسيو جيبهار فى كتابه « اصول النهضة فى ايطاليا » ما نصه :

قنوات الري التي لا تزال موجودة ، واستعملوا على الاخص مجارى المياه بركب الماسورة Agueduc à Siphon وكان ذلك مجهولا قبلهم (١)

الصناعة — اما الصناعة فهي مدينة لهم كذلك برقيها العظيم ؛ فقد استغلوا احسن استغلال ثروات البلاد الطبيعية ، من فضة وحديد ونحاس و كبريت ورخام وحجر صلب الخ ؛ وادخلوا الى الجزيرة صناعة الحرير ، ففي متحف نورمبرغ بالمانيا يوجد معطف من الحرير ، كان يرتديه ملوك صقلية محاط بنسج من الكتابة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هجرية (٢) (١١٣٣ م) وكل شيء يحملنا على الاعتقاد ، بان فن صباغة الثياب قد انتقل من صقلية الى اوربا .

التجارة — اما التجارة فقد كانت قبلهم ليست بذات قيمة فاصبحت بفضلهم واسعة النطاق ، ولدينا على ذلك دليل ، ما كانت تتقاضاه (الديوانة) من مكوس على الصادرات والواردات فى عهدهم ، وهنالك لائحة طويلة الذيل ضمن اجازات تجارية نرمانية من اوائل عهد الاحتلال ، تثبت لنا مقدار ما بلغته التجارة

ان جزيرة صقلية ، امبيد وقل العتيقة ، قد اصبحت تحت ايدي المسلمين بما فيها من ثماني عشرة من المدن ، وثلاثمائة وعشرين من القلاع المحصنة ، وما استثمر فيها من معادن الذهب والفضة والصفر ومناجم الكبريت ، وما انتشر فوق اديمها من حقول الحبوب ومزارع القطن وقصب السكر وحدائق النارنج والنخيل وبما كان يغمرها من زهور ذات الوان زاهية ناصعة ، ومن مرابط الخيول الجياد ومن مصانع الاقمشة والسندس ؛ وبما كان فيها من قصور ومساجد ؛ اصبحت بكل ذلك تبدو كانها جنة من رياض الشرق اليانعة » .

(١) لاتزال بالجزيرة الى يومنا هذا آثار من قنوات الري والترع التى انشأها المسلمون ؛ كما لا تزال القرية الصقلية تحمل الطابع الاسلامي الى الآن .

(٢) انظر رسمه فى القسم المصور .

من اتساع وتنوع ، عندما استولى النرمان على الجزيرة (١)

الآثار — لم يبق الآن في صقلية من آثار المسلمين الا النزر اليسير ، واهم ذلك قصر العزيز (لازيزا) وقصر القبة ، جوار بالرمة ؛ وهذه البقية الباقية تثبت لنا ان الرواة الذين وصفوا لنا ابهة وفخامة قصور المسلمين هنالك لم يرتكبوا اي غلو او شطط .

فالراهب تيودوز ، والجغرافي الادريسي على الاخص ، قد وصفوا لنا وصفاً بديعاً معجباً تلك القصور المحلاة بالرخام النادر ؛ والفسيفساء الناصعة الالوان تحيط بكل ذلك الحدائق الغناء . والراهب تيودوز وقد اسر سنة ٨٧٨ في حصار سرقوسة وسير به الى بالرمة ؛ يحكي باعجاب عما شاهده من قصور ومساجد وحارات حوالي هذه المدينة » .

كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

ترك لنا الجغرافي الاكبر محمد بن محمد بن عبد الله الادريسي كتابه الجليل القيمة العالي المقدار (نزهة المشتاق فى اختراق الافاق) الفه للملك النرماني الشهير رجار الثاني ، وبطلب منه ؛ ووضع له اول خريطة (٢) جغرافية عرفت فى الدنيا تعتبر آية فى الدقة بالنسبة لذلك الزمن (انظر فى القسم المصور قطعة منها)

فلننقل عن الادريسي بعض ما وصف به مدن صقلية فى عهده اى آخر عهد الحكم الاسلامي واول عهد الحكم النرماني ؛ بعد ان اقبل المسلمون تحت سلطة ملوك

---

(١) يقول مسيو نويل دي فرجي في كتابه « العالم » ان تجارة صقلية بلغت ايام المسلمين مبلغاً هائلا لم تدركه ابدا من قبل ولا من بعد .

(٢) يدعون ان انكليزيا كان اول من وضع رسماً جغرافيا للعالم لكن ذلك الرسم على فرض صحته يعتبر لعب صبيان اذا قيس بخريطة الادريسي المدققة .

النصارى على اصلاح ما افسدته الحروب وما خربته حوادث الاحتلال؛ فاستمع اليه يحكي لنا عن بالرمة

بالرمة «Palerme»

«وساحلها بهج مشرق فرج ولها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناآتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهي على قسمين: قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد واقليم وهو في ذاته على ثلاثة اسمطة؛ فالسماط الاوسط يشتمل على قصور منيفة، ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والسمطان الباقيان فيهما ايضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من الفنادق والحمامات كثير وبه (القصر القديم) الجامع الأعظم الذى كان بيعة في الزمن الاقدم واعيد في هذه المرة على حالته في سالف الزمان ...

فاما الربض فمدينة اخرى تحدق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالخالصة، التي كان بها سكنى السلطان والخاصة في ايام المسلمين وباب البحر ودار الصناعة التي هي للانشاء والمياه بجميع جهات مدينة بالرم مخترقة وعيونها جارية متدفقة وفواكهها كثيرة ومبانيها ومتنزهاتها حسنة تعجز الواصفين وتبهر عقول العارفين وهي بالجملة فتنة للناظرين والقصر المذكور من اكثر القصور منعة واعلاها رفعة لا ينال بقتال ولا يطاق على حال ...

والربض المحدق بالقصر القديم المتقدم ذكره هو في ذاته كبير القطر كثير الفنادق والديار والحمامات والحوانيت والاسواق وله سور يحيط به وخندق وفصل وله في داخله بساتين كثيرة ومتنزهات عجيبة وسقايات ماء عذبة جارية مجلوبة اليها من الجبال المحدقة ببقعتها (١)

---

(١) يقول ابن حوقل ان مدينة بالرمة كانت تشمل خمس حارات:

مسينا Messine

«ساحلها بهج وارضها طيبة المنابت وبها جنات وبساتين ذات ثمار كثيرة ولها انهار غزيرة عليها ارحاء كثيرة وهي من اجل البلاد واكثرها عمارة والسفر منها واليها قصدا وهي دار الانشاء وبها الحط والاقلاع وبها الارساء من جميع بلاد الروم الساحلية وبها تجتمع السفن الكبار والمسافرون والتجار من بلاد الروم والاسلام القاصدون اليها من جميع الاقطار؛ واسواقها رائقة وتجارتها نافقة وقاصدها كثير وفى جبلها معدن الحديد الذى يتجهز به منه الى البلاد المجاورة لها ومرساها العجب العجيب الذى يتحدث به فى كل البلاد وذلك ان اكبر ما يكون من السفن العظام يرسي بها من الشاطىء بحيث يتناول مافيها من البر بالايدى .

طبرمين Taormina

«حصن منيع وبلد شامخ رفيع من عيون الحصون الازلية واشراف البلاد الدولية وهو على جبل مطل على البحر وله مرسى حسن والسفر اليه من كل الجهات ويحمل منه كثير من الغلات وبه منازل واسواق وهو مجتمع القوافل والرفاق

---

(١)«القصر وفيه المدينة القديمة وحي التجار والمسجد الاعظم .

(٢)«الخالصة وهي مقر الامير والحاشية والدواوين ودار الصناعة .

وليست بها حركة تجارة وصناعة وفيها الكثير من المساجد والمدارس

(٣)«حي الصقالبة وفيه المرسى والحركة التجارية وكان يسكنه الكثير من الصقالبة (من ناحية اسلوفاكيا)

(٤و٥)«حي ابن صقلب والحي الجديد وفيهما عامة الناس»

ثم انه لا تزال الى يومنا هذا بالمدينة حارة تدعى «اتاربنى» كانت سوق العطارين فيما مضى وكان سكان المدينة ايام المسلمين زهاء الثلاثمائة وخمسين الفا وبها ٥٠٠ مسجد.

الواصلة الى مسينا وبه ضياع صالحة ومزارع طيبة زاكية وبه الجبل المشهور المسمى بالطور الموصوف بالآيات المعروف بالعبادات وبه انهار غزيرة عليها ارحاء كثيرة وبها جنات فلائل ولها واد عليه قنطرة عجيبة وبناؤها يدل على قدرة بانيها.

قطانية Catania

«وهي البلد الجليل المعروف ببلد الفيل الشامخة القدر العالية الذكر، وهي على ساحل البحر وبها الاسواق العامرة والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والحمامات والخانات، وبها مرسى حسن؛ ويسافر اليها من جميع الآفاق ويحمل منها كل البضائع والاوساق وجناتها كثيرة ومياهها من انهارها وعيونها غزيرة، وبها نهر في امره عجب عجيب وشان مستطرف غريب؛ وذلك انه في بعض السنين يفيض فيضاً كثيراً فتنصب عليه الارحاء وتمتلئ منه الاودية وفي بعضها ينضب فلا يوجد فيه ماء يشرب؛ وعمارتها واسعة وباديتها ومزارعها طيبة نافعة واسوارها منيعة، واقطارها واسعة؛ والفيل الذي اشتهرت به هو طلسم من حجر على صورة فيل، كان منصوباً على بناء شاهق في سالف الازمان، ثم نقل الان فنصب داخل المدينة بكنيسة الرهبان.

لنتيني Lentini

« قلعة حصينة متحضرة الاسواق كالمدينة، وهي من البحر على ستة اميال، وموضعها على ضفة النهر المنسوب اليها وتصعد فيه المراكب باوساقها حتى تحط بين يديها من شرقيها، وبغربيها ارض واسعة جداً فسيحة الارجاء ممتدة الفضاء ولها بواديها انواع من السمك الجليل المعدوم المثال ما يحمل منه الى جميع جهاتها.

سرقوسة Syracuse

« من مشاهير المدن واعيان البلاد، تشد لها المطي من كل حاضر وباد ويقصد اليها قصاد التجار من جميع الاقطار، وهي على ساحل البحر، وهو محدق بها دائر

بجميع جهاتها والدخول اليها والخروج منها على باب واحد وهو بشمالها ، وشهرتها تغني عن التكثير من وصفها اذ هي منبر مشهور ومعقل مذكور ، وبها مرسيان ليس مثلهما فى جميع البلدان احدهما أكبر من الاخر وهو بجنوبها والاخر اشهر وهو بشمالها وبها فوارة النبودى تنبع من جرف على حاشية البحر وهي عجيبة الامر

« وبها ما بأكبر المدن من الاسواق ذوات الساطات والخانات والديار والحامات والمبانى الرائقة والافنية الواسعة ؟ (لاحظ انه لم يذكر بها مساجد) ولها اقليم كبير طائل وضياع ومنازل وهو خصيب المواضع زكي المزارع وتوسق منه السفن بالطعام وغيره من سائر الاوساق الى سائر البلاد والآفاق .

نوطس Noto

« من ارفع القلاع حصنا واشرف المدن حسنا قطرها واسع المساحة شريف المنافع والرجاحة وبه اسواق جميلة الترتيب وديار متقنة التركيب أنهارها جارية بمياه غزيرة وعليها ارحاء كثيرة ولها عمل واسع المجال واقليم شريف الحال مزارعها ازكى المزارع ومواضعها اخصب المواضع وهي ازلية العمارة قديمة الآثار .

رغوص Ragusa

« وهي قلعة منيعة وبلدة شريفة قديمة العمران ازلية المكان محدقة بها الاودية والانهار كثيرة الارحاء والطاحن حسنة الابنية واسعة الافنية ولها بادية خصيبة ومزارع زكية رحيبة وبينها وبين البحر سبعة اميال ونهرها المنسوب اليها يجرى منها بجهتها الشرقية وبهذا الوادى عند مصبه فى البحر مرسى حسن والمراكب تدخله وبه توسق وتفرغ ولها اسواق يتصرف اليها من جميع النواحي والافاق .

بثيرة Butera

احسن البلاد بادية وحاضرة ، واشبه شيء بالمدن الكبيرة العامرة حسنة البنيان مشيدة الاركان ، ديارها رائقة عجيبة واسواقها مرتبة رحيبة وبها مساجد للجماعات

ويدور بها واد من اعظم الاودية محدقة به الجنات من جميع الجهات ؛ ولها فواكه طيبة وخيرات كثيرة معجبة .

جرجنت Girgenti

مدينة متحضرة من اشرف الحواضر عامرة بالوارد والصادر ؛ وقلعتها حصينة سامية ومدينتها زاهية قديمة العمران مشهورة فى جميع البلدان ؛ بل هى من اعظم الحصون منعة واجل البلاد رفعة يسعى اليها من سائر الافاق وتجتمع بها السفن والرفاق ديارها سامية في الديار ومحلاتها تفتن الانظار وبها اسواق جامعة لاصناف الصنائع وضروب المتاجر والمبايع واصناف كثيرة من الثمرات ؛ ازلية اولية تدل آثارها على سلطنة علية ، ويحمل على كل ما وصل اليها من عظام السفن ما يتجاوز اوساقها في الايام القلائل لاتساع ما بها من مواد الطوائل وبها جنات وغلات مشهورات ؛ وهي على ثلاثة اميال من البحر .

مازرة Mezzara

« مدينة فاضلة شامخة كاملة ، لا شبه لها ولا مثال ، فى شرف المحل والحال واليها الانتهاء فى جمال الهيأة والبناء ، وما اجتمع فيها من المحاسن التى لم تجتمع فى غيرها من المواطن وهي ذات اسوار حصينة شائقة وديار حسنة فائقة بها ازقة واسعة وشوارع واسواق عامرة بالتجارات والصنائع وحمامات فاضلة وخانات واسعات وبساتين وجنات طيبات المزدرعات ، يسافر اليها من جميع الآفاق ويتجهز منها بوافر الاوساق واقليمها كثير الاتساع يشتمل على منازل جليلة وضياع .

مرسى على (مرصالا) Marsala

كانت مدينة ازلية من اشرف بلاد صقلية ، وكانت قد خربت ودثرت فعمرها النومس رجار الاول وسور عليها سورا فصارت ذات عمارة واسواق وخانات ولها اقليم واسع وعمل شاسع وسفر اهل بلاد افريقيا اليها كثير ... ولها فنادق وحمامات

وبساتين ومزارع طيبات .

اطرابنش Trapani

مدينة ازلية قديمة المحل على ساحل البحر والبحر يحدق بها من جميع جهاتها وانما يسلك اليها على قنطرة على باب شرقيها ومرساها بالجانب الجنوبي منها وهو مرسى ساكن غير متحرك تشتو به اكثر السفن آمنة من جميع الانواء هاد موجه عند هيجان البحر ويصاد به من السمك ما يفوق المقدار ويصاد به السمك الكبير ايضاً المعروف بالتن بشباك كبار ويصاد ببحرها المرجان السني وعلى بابها سباخ الملح البحرى ولها اقليم واسع الاجناب ممتد الاطناب ارضها من اكرم الارضين فى الزراعات كثيرة الفوائد والغلات، ولطرابنش فى ذاتها ذات اسواق رحبة ومعائش خصيبة وبقربها جزيرة الراهب وجزيرة اليابسة وجزيرة مليطمة ولكل واحدة من هذه الجزائر مرسى وآبار ومحتطب .

برطنيق Partinico

« بلدة جميلة طيبة وطية حسنة المنظر بهية وبها ضياع زكية يعمل بها القطن الكثير والحناء وغير ذلك من انواع القطاني وبها مياه غزيرة وعليها ارحاء كثيرة .

قرينش Carini

« بلدة طيبة جميلة حصينة وبها اصناف من الفواكه كثيرة وبها سوق كبيرة واكبر ما بالحواضر من الاسواق والحمامات والديار الواسعات ومنها يحمل كثير من اللوز والتين الناشف والخرنوب ويوسق به المراكب والقوارب ويتجهز به الى الكثير من البلاد .

* * *

بعد هذه الجولة التى جالها الشريف الادريسي حول المدن البحرية الصقلية ؛ مبتدئيا بالرمة ومسيناً متجها من الشمال الشرقي صوب الجنوب ثم منه الى الشمال

العربي ، وقد اقتبسنا منه وصف اهم المدن ينتقل الى داخل البلاد واصفا المدن البرية فلنقتبس منه شيئا من ذلك ، قال عن :

الخزان

« وهو حصن فى اعلى جبل ، من اجمل القلاع وافضل البقاع ، وحاله افضل حال ولها عمارة وارحال ، ومنه يخرج النهر المسمى وادي الامير واصله من الخزان فينزل مع الخنادق وتجتمع به مياه فجانة ، (وهذا الخزان من جملة منشآت المسلمين لتنظيم الري فى البلاد وتوزيع المياه على المزارع والبساتين)

الصنم Castelvetrano

« رحل كبير ، يحتوى على بشر كثير ، وعليه حصن مطل ومعقل سامي المحل ، اشجاره مصطفة وبساتينه ملتفة ومياهه متدفقة وخيراته محدقة ، ومن الصنم الى مازر سبعة اميال .

قلعة النساء Calata Nisetta

« قلعة حسنة البناء ، مطلة على عمارات متصلة ومنابع جمة وغلات واشجار وفواكه .

قصر يانى Gastro Giovamni

« وهي مدينة فى اعلى جبل ، ذات حصن حصين ومعقل متين ، قطرها واسع وفناؤها شاسع ولها اسواق جميلة الترتيب وديار متقنة التركيب وصنائع وبضائع ، وصناع ومتاجر وامتاع ، ولها عمل واسع المجال ، واقاليم واسعة الحال ، مزارعها زكية وغلاتها مرضية وهواؤها بارد ومرافقها تشفي الصادر والوارد ، وبالجملة انها امنع بلاد الله مكانا واوثقها بنيانا ، واهنا مع حصانتها فى جبلها مزارع ومياه جارية لا تحتاج الى البسط ، وبها رقة رائقة ورقعة شاهقة ، لا تغلب في الحال ولا يمكن فيها القتال .

(من اجل ذلك كانت آخر معاقل الروم التى سقطت بايدي المسلمين ، ثم كانت من بعد آخر معاقل المسلمين التي سقطت بين ايدي النرمان) .

حياة اللغة العربية أيام النرمان

كانت العربية كما رايت لسان البلاد الرسمي تستعمل في كثير من الاحيان قبل اللغة النرمانية وكان شعار الملك عربيا والتخاطب في البلاط باللغة العربية والنقود النرمانية عربية الضرب عربية الصيغة وانما نقش على احد وجهيها رسم الملك واسمه باللغة النرمانية واستمر العلم زاهرا والتعليم العربي منتشرا يدل على ذلك اجلى دلالة شواهد القبور من العهد النرماني الاسلامي التى لا تزال قائمة الى يومنا هذا .

من ذلك شاهد في مدينة بالرمة نقش عليه «لله العزة والبقاء ، وعلى خلقه كتب الفناء . ولكم فى رسول الله اسوة حسنة ، هذا قبر ميمونة بنت حسان بن على الهذلى عرف بابن السوسي توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان من سنة تسع وستين وخمسمائة وهي تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له»

انظر بعينك هل فى الارض من باقى او دافع الموت او للموت من راقى
الموت أخرجني قسراً فيا اسفي لم ينجني منه ابوابي واغلاقى
وصرت رهناً بما قدمت من عمل محصى علي وما خلفته باقى
يا من راى القبر اني قد بليت به والترب غير اجفاني و آماقي
فى مضجعي ومقامي فى البلا عبر وفى نشوري اذا ما جئت خلاقى

وامثال هذه الشواهد كثير فى صقلية أيام العهد النرماني، لا تكاد تحصى؛ وقد جمع اكثرها سيد كتاب صقلية وكبير المستشرقين ، ميكل عمارى ، فى كتاب جليل القيمة اسماه . Le Epigrafi Arabiche di Sicilia انما الذى يعطيك صورة صادقة لحياة العربية اذاك ، وانها كانت اللغة الرسمية ليس فى الدوائر الحكومية فحسب بل حتى فى الدوائر الدينية المسيحية ما نقش على قبر مسيحي

« توفيت انه ام القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعتزة بالله المحروزة بقدرته المنصورة بقوته مالكة ينطالية وانكبرده وقلورية وصقلية وافريقية ، معزة امام رومية الناصرة للملة النصرانية سرمد الله مملكتها يوم الجمعة العشر العشرين من اوست سنه ثلاث واربعين وخمسمائة ودفنت بالجامع الاعظم ثم نقلها ولدها بالمستنجيد الى هذه الكنيسة حنت مخايلة يوم الجمعة اول ساعة العشا العشرين مايه سنة اربع واربعين وخمسمائة وبني على قبرها هذه الكنيسة وسمى الكنيسة حنت انه على اسم ام مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين » وانك لا ريب قد لاحظت ان التاريخ المستعمل كان التاريخ الهجرى ولم يذكر التاريخ المسيحى في بناء كنيسة مقدسة للمسيحية وليس بعد هذا الاثر اثر ولا افصح من هذا البيان بيان .

القسم التاسع

العلوم والآداب

في تلك الفترة الطويلة التي قضاها المسلمون في ربوع صقلية ، وقد جعلوها روضة غناء ، وحديقة يانعة ، وجنة تجري من تحتها الانهار ،وسواء كانوا حاكمين يومئذ او محكومين ؛ ورغم جميع ما اجتازته الجزيرةمن حروب خارجية واضطرابات وفتن داخلية ؛ ازدهرت العلوم والفنون والآداب ، ونبغ في الجزيرة رجال خلدوا على صفحات التاريخ اسمها ؛ ورفعوا ذكرها بين البلاد عاليا ؛ فكانت العلوم تدرس هنالك في كل مدينة وكل قرية ،شانها في ذلك شأن بقية بلاد الاسلام ؛ حيث كانت المساجد والجوامع تقوم مقام المدارس الثانوية والعليا ؛ وحيث كانت الكتاتيب القرآنية المنتشرة انتشاراً غريبا ، في كل حارة من حارات المدن والقرى ، تبث التعليم الابتدائي العربي الديني وتؤهل الاطفال لتسنم ذرى المعارف العليا في صقلية نفسها او ببلاد افريقيا او الاندلس او الشرق .

ويقص علينا ياقوت الحموي ، في كتابه معجم البلدان ؛ انه كان بمدينة بالرمة في عهده ثلاثمائة مدرس ؛ وان المدرسين ومعلمي القرآن كانوا لا يكلفون بحمل سلاح ، وليس عليهم اي شيء من التكاليف الحكومية .

نشات هنالك ، خلال تلك المدنية الشامخة الذرى ، طبقات غفيرة من الاطباء كان لهم الفضل الاكبر ، لاختلاطهم بايطاليا وبقية اروبا ، في نشر آخر ما وصلت اليه قرائح اطباء العرب والاغريق في كامل القارة الاوروبية وسيأتيك نبأ قسطنطين الصقلي التونسي فيمابعد ونشأت هنالك طبقات عديدة من رجال العلم والفن والآداب كما نشأ هنالك جمهور صالح من كبار الشعراء من افذاذ العباقرة الموهوبين ترعرعوا

بين احضان الروعة والجمال والعزة والجلال ؟ فسجلوا لصقلية باشعارهم النفيسة صورة طيبة محببة الى النفس وانشأوا بذلك فى صقلية ادبا قوميا صقليا عربيا متينا جزلا رقيقاً كأنه الدرة اللامعة في عقد الادب العربي الرائع البهاء ، وانما اقول ان شعراء صقلية قد انشأوا شعراً قوميا ، ذلك لان تلك الطائفة الصالحة من كبار الشعراء ، كما سيمر بك فيما بعد قد صوروا لنا فابدعوا تصوير صقلية بلهجة شعرهم وبتشابيههم المنتقاة من صلب الحياة الصقلية ، وعلى الاخص بما وصفوه لنا من حياة صقلية ، ومن جهادها ومن عبثها ، ومن رياضها وجناتها ومن زهورها واشجارها ، مايجعلك تشعر بعد تلاوة ذلك الشعر الحي المتين انك تغلغلت خلال ذلك الوسط وعاشرت اهله واطلعت على ما تخفى نفوسهم من عظمة وقوة ومن تهتك ومجون .

وانها لدراسة ثرية بعيدة الغور فسيحة الآفق ، ودراسة آداب صقلية وعلومها وفنونها وحياة الادباء والعلماء والفنانين فيها ؟ فعسى الله ان يقيض من ابناء هذا الشمال الافريقي من يتخصص لهذه الدراسة ، فهى جديرة بان يهبها باحث كل حياته لاجزءاً من وقته ، وان من قضى حياته فى ذلك العمل يكون قد خلد اسمه فى سجل الاعلام .

والنلق الآن نظرة وجيزة على اولئك النابغين الافذاذ الذين استحقت بهم صقلية كما يقول العلامة البحاثة كارل سيدهورف ، لقب « باب الشرق للتوغل فى الغرب » .

قسطنطين الصقلي

ومدرسة سالرنة

وانه لحري ان نفتتح به هذه السلسلة الذهبية ، وان كان آخر علماء صقلية وايطاليا عهداً ؟ انما كان يمثل لنا طبقة من الرجال ، من اجل العلم خلقوا ، وكل ميسر لما خلق له ، ومن اجل العلم عاشوا ، وفى سبيل العلم جاهدوا الجهاد العنيف

ولم يتورعوا عن تقديم اعز التضحيات واغلاها على النفس في سبيل نشر المعرفة ، وبث الانوار في الاصقاع التي كانت يومئذ في ظلمات الجهالة ، اعني قارة اروبا .

فقسطنطين الصقلي او الافريقي ، كان الطبيب العلم الذي نقل الى الغرب كتب الطب والحكمة ، فترجمها للسان اللاتيني وجمع حولها رواد المعرفة والراغبين في العلم ، فأسس لهم « مدرسة سالرنة » التي كانت اول مدرسة من نوعها في اروبا والتي كانت مبعث انوار الطب الحديث في العالم الغربي باسره ؟ والتي بقيت عدة قرون حاملة راية الطب يتبع طريقتها التي سنها قسطنطين كل علماء اروبا وجامعاتها .

حوالي سنة ٤٠٠ ولد بمدينة تونس ذلك الذي سيسجل التاريخ اسمه باحرف من نور وبها تعلم وتهذب وتثقف وكان يتعاطى التجارة في مقتبل عمره ويقبل بكليته على العلوم ويغامر في الاسفار ويعتكف على دراسة كتب الطب حتى استوعب منها الكثير ثم حل يومئذ في تجارة له بمدينة سالبرنة واتصلت علاقته باميرها جيزولف وكان مترجمنا الذي سيدعى فيما بعد « قسطنطين » يجهل اللاتينية وكان قصارى امره يومئذ انه تاجر من تجار المسلمين ومثقف متنور بين جماعة غفيرة من المثقفين المتنورين فكان الطبيب العربي « عباس دى كوربا » يتولى مهمة الترجمة بين المسافر والامير وسال قسطنطين الذي لم يكن يدعى يومئذ بهذا الاسم اثناء عملية تحليل البول هل لاطباء ايطاليا كتب طبية باللغة اللاتينية فاجيب سلبا ، واعلم ان الطب يتلقى هنالك شفويا ويعتمد على بعض التجاريب ليس الا .

رجع الرجل للبلاد التونسية ، وانكب على استكمال معلوماته الطبية بين افريقيا وصقلية وجمع من أحسن كتب الطب الشيء الكثير فبعد ان استوعب جميع ذلك ، أخذ معه تلك المكتبة الثمينة الثرية ، وسافر إلى صقلية ، ومنها اجتاز إلى مدينة سالبرنة يحمل ذخيرة ستكون غداً أروبا طيلة قرون .

هنالك انكب على دراسة اللغة اللاتينية حتى حذقها على يد رجال الدين والكهنوت ، واصبح يدعى يومئذ « قسطنطين الافريقي » تارة « وقسطنطين الصقلي » تارة اخرى ، ثم اعتكف في دير جبل كاسان ، ولهذا الدير شهرة عالمية باقية منذ تلك الساعة الى يومنا هذا (١) ؛ وهنالك في ذلك الدير اخذ قسطنطين في بادىء امره ، يترجم اللغة اللاتينية اهم كتب الطب العربي وفي طليعتها : « زاد المسافر » لابن الجزار ، ترجمه تحت اسم Viaticus وانتشر صيت ذلك الكتاب ، وعمت شهرته كافة البلاد الاروبية واصبحت طريقة ابن الجزار في الطب طريقة اروبا كلها ومكثت كذلك قرونا عديدة ثم نشر شيئا من كتاب علي بن العباس تحت اسم : Pratica Pantegni وترجم كذلك كتبا للرازى ؛ وكتبا اخرى لاسحاق ابن سليمان الاسرائيلي ؛ ولم يكتف بترجمة تلك الكتب ، بل اخذ يتبحر في علم الطب ، والف نحواً من ٢٢ كتاباً في مختلف شعب الطب وطريقة الوقاية من الامراض والعلاج ، ولقد طبعت كتبه كلها ما بين سنتي ١٥٣٦ و١٥٣٩ ومن اهمها :

قانون الطب ؛ ١٢ كتاباً .

فياتيكوم في الطب العام ، ٧ كتب :

البول وتحليله — الاعضاء الداخلية في جسم الانسان — الجماع — جسم المرأة واعضاؤها — النبض — كتاب الجراحة — كتاب المعدة — كتاب العيون — النبات الطبي — الماليخوليا — الحمية للمرضى — طبيعة الانسان ووظائف الاعضاء — الحيوان . الخ

---

(١) حطمته الحرب الاخيرة الوحشية وقضت فيه على ثروة علمية ادبية تاريخية عزيزة المثال ، واصبح كوما من حجارة ورماد .

يؤخذ على قسطنطين الصقلي ، انه كان كاما ترجم كتابا نسبه الى نفسه ؛ ولم يذكر اسم المؤلف ، ويدافع عنه رجال من كبار العلماء ، امثال دارمبرغ (١) (Daremberg) وسيدهوف (Sudhoff) فيقولون ان العلاقات بين النصارى والمسلمين كانت يومئذ ردئية عدائية ؛ وقد تركت محاولات المسلمين لاستعمار الجنوب الطلياني اثراً عظيما في نفوس القوم ؛ فعندما ادرك قسطنطين ذلك علم انه ان نسب كتب المسلمين لاربابها عمل التعصب عمله وحال بينها وبين الانتشار ، فنسبها الى نفسه ، كانها عمل راهب من رهبان دير كسان ، يعلم الطب في مدينة سالبرنة ، فانتشرت تلك الكتب بتلك الطريقة ؛ وما كاد علماء عصر النهضة يدركون ذلك حتى كانت تلك الكتب قد تمكنت وعم ذيوعها وانتشارها ، واصبحت في العالم الاروبي نبراساً منيراً ؛ ومات قسطنطين في دير جبل كاسان سنة ٤٧٥ (١٠٨٧) .

محمد بن علي المازري — قال عنه صاحب سمط الثال :

ابو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري ؛ اصله من مازرة (صقلية) اخذ عن اللخمي وعبد الحميد السوسي المعروف بابن الصائغ وغيرهما ؛ وهو احد الاعلام المشار اليهم في حفظ الحديث والكلام وآخر المشتغلين بتحقيق العلم ورتبة الاجتهاد ودقة النظر حتى لقب بالامام ؛ وممن اخذ عنه بالاجازة القاضي عياض كان يفزع اليه في الفتوى وفي الطب كما يفزع اليه في الفقه ، وسبب اشتغاله بالطب انه مرض ، وكان يطبه يهودي ؛ فقال اليهودي : يا سيدي مثلي يطب مثلكم ، واي قربة اجدها اتقرب فيها في ديني مثل ان افقدك المسلمين ، فمن حينئذ اشتغل بالطب ، وقد هاجر الى افريقيا وتولى قضاء القيروان وقضاء المهدية وله تآليف كثيرة جليلة ، منها شرحه على صحيح مسلم المسمى كتاب المعلم

---

(١) علامة فرنسي (١٨١٧ — ١٨٧٢) نشر قاموس الآثار الرومانية واليونانية

بفوائد كتاب مسلم ، وعليه بنى القاضي عياض كتاب الاكمال تكملة له ؛ توفي رحمه الله في ١٨ ربيع الاول سنة ٥٣٦ ؛ وتربته خارج بلد المنستير من جهة البحر ؛ يزورها الناس افواجا الى يومنا هذا .

محمد بن يونس التميمي — من مدينة مازرة كذلك ، علم من اعلام الفقه اخذ عن اللخمي وابن الصائغ وغيرها وتبحر في العلم وشدت اليه الرحال للافتاء حتى لقب « بالامام الاكبر » وقد الف تآليف حافلة عن شرح موطأ الامام مالك بن انس رضي الله عنه والتعليق عليه ، ونال بواسطة ذلك شهرة ذائعة وصيتاً عظيما ؛ وتوفاه الله بمدينة مازرة في اوج عزه ومجده العلمي سنة ٤٤٧ ؛ وترك جماعة من العلماء الجلة ممن صحبوه واخذوا عنه ونفعوا الناس بعلمه وآثاره .

محمد بن محمد بن ظفر — من افذاذ صقلية الاعلام ايام حكم النرمان ؛ قضى حياته كلها في التعلم والتآليف والتنقل بين البلاد ، من صقلية الى مصر الى بلاد الشام ، وصحب الملك رجار الصقلي ، وقدم له بعض الكتب المؤلفة باسمه ؛ مثل : « سلوان المطاع في عدوان الاتباع » وهو كتاب ثمين ؛ قام بترجمته للغة الطليانية المستشرق الصقلي الاكبر والعلامة الجليل ميكل عماري .

وتكاد كتب محمد بن ظفر الصقلي لايحصيها عد ؛ منها : ينبوع الحياة في تفسير القرآن الكريم — فوائد الوحي الموجز الى فوائد الوحي المعجز — المسند في الفقه على مذهب مالك — اساليب الغاية في احكام الآية — معاتبة الجريء في معاقبة البريء ، في اعتقاد ابي حنيفة والاشعري — كتاب الجنة في اعتقاد اهل السنة — خير البشر بخير البشر — ملح اللغة فيما اتفق لفظه واختلف معناه على حروف المعجم — ايهام الغواص في ابهام الخواص ، في بيان غلط ابي محمد الحريري — الخوذ الواقية ، والعود الراقية ؛ كتابان في شرح الحريري — كتاب الاشتراك اللغوي والاستنباط المعنوي — كتاب الاشارة الى علم العبارة —

القواعد والبيان فى علم النحو — أنباء نجباء الابناء — مالك الاذكار فى مسالك الافكار — الخ ، الخ .

ولم يزل في حل وترحال بين صقلية وبلاد المشرق، إلى ان غادر صقلية نهائياً سنة ٥٥٤ ، حيث ألف كتابه البديع «سلوان المطاع في عدوان الاتباع» وقال فى مقدمته: «إن ملكا حسن السيرة مظنون حسن السريرة، أمرني ان أصنف له كتابا يكون لهمومه شافياً، وللكآبة ودمنة قافيا،فاجبته لذلك مكافياً» واستقر بعدئذ بمدينة حماه من مدن الشام وبها أدركته الوفاة سنة ٥٥٦ .

وكان شاعراً رقيقا ، قال :

حملتك فى قلبي فهل أنت عالم * بانك محمول وانت مقيم
الا إن شخصاً فى فؤادي محله * وأشتاقه شخص علي كريم

وقال: على قدر اهل الفضل تؤتى خطوبه * ويعرف عند الصبر فيه نصيبه
ومن قل فيما يتقيه اصطباره * فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

عبد الرحمان ابن محمد بن عمر — من مدينة بثيرة ، بصقلية، عاش ايام رجار ؛ وقد كان حاملا كتاب الله واشتهر شهرة ذائعة فى الشعر والادب، ولقد مدح الملك رجار الصقلي بقصيد من عيون الشعر،له قيمة تاريخية عالية،كاغلب الشعر الصقلي ، يصف به حياة الجزيرة و يتغني بهائها و جمالها ، منه :

ادر العقيق المسجدية * وصل أصطباحك بالعشية
و اشرب على وقع المثانى و الاغانى المعبدية
ما عيشة تصفو سوى * بذرى صقلية هنية
فى دولة اربت على * دول الملوك القيصرية

* * * *

و قصور منصورية * حط السرور بها المطية

اعجب بمنزلها الذى * قد أكمل الرحمن ربه
والملعب الزاهى على * كل المباني الهندسية
ورياضة الانف التى * عادت بها الدنيا زهية
وأسود شادر وانه * تهمى مياهًا كوثرية
وكسا الربيع ربوعها * من حسنه حللا بهية
وغدا يكلل وجهها * بمصيغات جوهرية
عطرن انفاس الصبا * عند الصبيحة والعشية

عبد الرحمان بن أبي العباس — شاعر اديب فنان ، لم يترك لنا صورا زينية تمثل حياة صقلية ، انما ابقى لنا من غرر الشعر قصيدا بديعا يصف به الجزيرة ، وحياة بالرمة ، وقصر الفوارة التابع لقصر المعتزية ، الذى كان منتزه ملوك صقلية المسلمين ، فاستمع اليه يقول :

فوارة البحرين جمعت المنى	عيش يطيب ومنظر يستعظم
قسمت مياهك فى جداول تسعة	ياحبذا جريانها المتقسم
فى ملتقى بحريك معترك الهوى	وعلى خليجك الغرام مخيم
لله بحر النخلتين وما حوى الـ	بحر المشيد به المقام الاعظم
وكأن ماء الفرعين وصفوه	در مذاب ، والنسيطة عدرم
وكأن اغصان الرياض تطاولت	ترنو الى سمك المياه وتبسم
والحوت يسبح فى صفاء مياهها	والطير بين رياضها يترنم
وكأن نارنج الجزيرة اذ زها	نار على قضب الزبرجد تضرم
وكأنما الليمون صفرة عاشق	قد بات من ألم النوى يتألم
والنخلتين كعاشقين استخلصا	حذر العدا حصنا منيعا منهم
او ريبة علقتهما فتطاولا	يستمحنان ظنون من يتوهم

يا نخلتي بحري بلرم سقيتما ... صوب الحيا(١) بتواصل لا يصرم
هنيتما امر الزمان ونلتما ... كل الاماني والحوادث نوم
بالله طيبا واسترا اهل الهوى ... فبامن ظلكما الهوى يتحرم

عيسى بن عبد المنعم — هو الفقيه ابو موسى عيسى بن عبد المنعم الصقلي ، ذكر عنه صاحب خريدة القصر ، انه كان كبير الشان ، ذا الحجة والبرهان ، فقيه الامة له المعاني والافكار البعيدة مراميها ومراقيها والالفاظ التي هي كالرياض فمن بديع قوله في الغزل ، في فتاة نرمانية بلا ريب ، واعجب بفقيه مسلم يعشق فتاة نرمانية ويتغزل فيها .

يابني الاصفر(٢) انتم بدمي ... منكم القاتل لي والمستبيح
امليح هجر من يهواكم ... وحلال ذاك في دين المسيح؟
ياعليل الطرف من غير ضنى(٣) ... واذا لاحظ قلبا فصحيح
كل شيء بعدما ابصرتكم ... من صنوف الحسن في عيني قبيح

عمر بن حسن النحوي — كان شيخا من شيوخ اللغة ، واماما من ائمة النحو وبليغا من اكبر البلغاء في عصره ، وكان ممن جاهد ضد الزمان ، وابلى البلاء الحسن الى ان اسر ونكب ، وجاء عهد الملك رجار فافرج عنه وقربه ، فقال يمدحه من قصيد :

طلب السلو لو ان غير سعاده ... حلت سويدا قلبه وفؤاده
ورجا زيارة طيفها في صدره ... وغرامه يابى لذيذ رقاده
والله لولا الملك (رجار) الذي ... اردى لحبته عظيم وداده

(١) الحيا ، المطر (٢) بنو الاصفر النصارى ، يقول البهاء زهير :
واقسم ما ذاقت بنو الاصفر الكرى ... وما حلمت الا باعلامه الصفر
(٣) الضنا ، المرض

ما عاف كاس الوجد يوم فراقها ورأى محيا المجد في ميلاده
يهتز للجدوى اهتزاز مهند يهتز في كفيه يوم جلاده
ويضيء في الديجور (١) صبح جبينه فيخال ضوء الشمس من حساده
ومطالع الجوزاء ارض خيامه والنجم والقمران من اجناده
واذا الامور تشابهت فلقصبه خط يبيض سودها بمداده

ابن القطاع — هو ابو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي ، المعروف بابن القطاع ويرتفع نسبه الى ابراهيم بن الاغلب ، ولد في صقلية سنة ٤٣٣ ، وبها عاش وتعلم وتأدب ، وقرأ على ابن البر الصقلي واضرابه من رجال ذلك العصر وقال الشعر صبياً ، وجمع من اخبار اهل صقلية من الشعراء والادباء الشيء الكثير فالف كتابه « الدرة الخطيرة والمختار من شعراء الجزيرة » جمع فيه طائفة صالحة من شعراء صقلية ، وذكر البعض من جيد شعرهم ، وهاجر آخر ايامه الى بلد الكنانة ؛ فعاش الى آخر زمان الملك الافضل ، وقد الف كتاب « تاريخ صقلية » ذكره ونقل عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان ؛ ولا نزال نجد في البحث عنه ؛ وتوفي في صفر سنة ٥١٥ .

ابو عبد الله محمد بن الحسن — المعروف بابن الطري ؛ كان ايام الدولة الاسلامية ، صاحب ديوان الرسائل والانشاء ، وكان من ذوي الفضل والمكانة فصيحا بليغا مترسلا شاعراً ؛ وكان من اصحاب الباع الطويل الى جانب ذلك في علم الطب . قال يهجو منافقاً :

يقرب قوله لك كل شيء وتطلبه فتبصره بعيدا
فما يرجو الصديق الوعد منه ولا يخشى العدو له وعيدا

الاصلاح الاسلامي — ولقد ترك لنا من ابيات ، صورة لما كانت عليه حالة

(١) الديجور ، الظلام

المسلمين فى صقلية يومئذ ، من الركض فى ميدان البدع والمنكرات التي الصقت بالاسلام ظلما وعدوانا ، بدعوى انها من القربات الصوفية ؛ شانها فى ذلك شأن بقية العالم الاسلامي ، وما كان كرام الامة ومصلحو الاسلام يشنونه من غارة على تلك الاباطيل ، فيقول :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ⁂ ولا بكاء اذا غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ⁂ ولا تغاش كان قد صرت مجنونا
بل التصوف ان تصفو بلا كدر ⁂ وتتبع الحق والقرآن والدينا
وان ترى خائفا لله ، ذا ندم ⁂ على ذنوبك طول الدهر محزونا

ابو الفضل مشرف بن راشد — من شعراء امجاد تغنى بذكر الجزيرة فاجاد، مما يقوله مادحا احد كبار قوادها مفتتحا القصيد بالغزل حسب الطريقة المألوفة التقليدية :

سرت ورداء الليل اسحم حالك (١) ⁂ ولا سائر الا النجوم الشوابك
عشية اعشى (٢) الدمع انسان مقلتي ⁂ ونمت (٣) باسرار الدموع السوابك
وطاف الكرى (٤) بالطرف وهو محجب ⁂ كما طاف بالبيت المحجب ناسك
سرت موهنا ثم استناءت فودعت ⁂ تجاذبها حقف (٥) من الرمل عاتك
به غصن بان انمر البدر طالما ⁂ عليه قناع من دجا الليل حالك
غريبة حسن يحسن الهجر عندها ⁂ واعجب بها محبوبة وهي فاتك
واحور (٦) مكحول المدامع عاقني ⁂ عن الصبر فاستوات علي مهالك

(١) السحم ، اسود حالك شديد السواد (٢) اعشى ، اساءت بصره (٣) نمت فشت واذاعت (٤) الكرى ، النوم (٥) الحقف ، المعوج من الرمل والعاتك من الرمل ما تعقد وارتفع ؛ يعني بذلك ردفها ، كما قال الشاعر :

كيف اسلو وانت حقف وغصن ⁂ وغزال لحظا وقدا وردفا (٦) واحور ، الحور

رعى الله اكناف الجزيرة ان رعى — واثمها الغراء ريس (١) نـاتك
بشيد اعاديه الحصون منيعة — وهل منهم الافشين ما شاد بانك
واني لآتي الحق فيما اقوله — وما انا فيما يعلم الله بائك (٢)
شهدت لقد حاز العلا بيمينه — غداة تصداه الردى وهو ضاحك
ليوث وغى اذ كت خلال ضلوعها — لهيبا اثارته اهن الحسائك (٣)

عمار بن المنصور الكلبي — الامير ابو محمد عمار بن المنصور الكلبي من امراء بني الحسين الكلبيين ملوك صقلية نشأ في بيت الملك والعزة والجاه وانقطع للعلم والادب فكان من افاضل علماء زمانه البرزين في الفقه والحديث له من اروع الشعر، يصف بيته ويمجد قومه، ويجمع بين شرف العلم وهمة الابطال:

تقول لقد رايت رجال نجد — وما ابصرت مثلك من يمان
الفت وقائع الغمرات حتى — كانك من رماها في امان
الى كم ذا الهجوم على المنايا — وكم هذا التعرض للطعان
فقلت لها سمعت بكل شيء — ولم اسمع بكلبي جبان

ويقول في ابن عمه الامير، وقد ساء اليه:

ظننتك سيفا انتضيك (٤) على العدا — وما خلت اني انتضيك على نفسي
وجئتك ابغي رفعة وكرامة — فامسيت مقهورا بقربك في حبس

الرشيد احمد بن قاسم — من ابناء صقلية وكبار علمائها، هجر وطنه بعد توطد قوم النصارى فيه، وجاب الآفاق حتى استقر بمصر واصبح ايام الملك الافضل

بالفتح شدة بياض بياض العين وسواد سوادها (١) راس الشيء ضبطه وغلبه والقوم اعتلى عليهم، النتك جذب الشيء تقبضه ثم تكسره يعني: ان رعاها قوي شديد قابض على زمام الامور (٢) باتك، قاطع كالسيف (٣) الحسايك جمع حسيكة اداة للحرب تصنع من حديد على شكل الحسك المعروف (٤) انتضيك، اسلك.

قاضي القضاة بها ، ولقد دخل يوما على الافضل فوجد بين يديه دواة من عاج محلاة بمرجان فانشد :

الين لداود الحديد بقدرة ... يقدده فى السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة ... على انه صعب المرام شديد

مجبر بن محمد بن مجبر — كان من رجال الادب والعلم بصقلية ، بها ولد ونشأ وتثقف ، ثم هاجر منها وأستقر بمصر مع القاضي الرشيد الآنف الذكر ، وكان زينة مجالس الادب ، وله من قصيد فى الغزل والمدح :

ليس الفراق بمستطاع ... فدعيه من ذكر الوداع
وعديه ما يحيي به ... من طيب وصل واجتماع
يا وجه مكتمل البدو ... ر وحسن ما تحت القناع
يا اخت يوسف ان قلبي ... في هواك هو الصواع
فلئن ظفرت به اديـ ... ـلك وكنت سارقة المتاع
فلآخذنك من قبيـ ... ـلك اخذ ملك واقتطاع
يا نفس حسبك لا تهابي ... بالخطوب ولا تراعي
يكفيك انك فى حمى ... من ليس يرضى ان تضاعي

مصعب بن محمد — ابو العرب مصعب بن محمد ابن ابي الفرات القرشي ، ولد ونشأ وتعلم فى صقلية ؛ اما ولادته فقد كانت سنة ٤٩٤ ، وام بلاط المعتمد بن عباد ، ملك اشبيلية بالاندلس ، قال يمدحه ويذكر وطنه الضائع :

الى م اتباعي للاماني الكواذب ... وهذا طريق المجد بادي المذاهب
اهم ولي عزمان ، عزم مشرق ... وآخر يغري همتي بالمغارب
ولا بد لي ان اسأل العيش حاجة ... يشق على اخفافها والغوارب
علي لآمالي اضطراب مؤمل ... ولكن على الاقدار نجح المطالب

فيا نفس لا تستصحبي الهون انه   وان خدعت اسبابه شر صاحب
ويا وطني ان بنت عني فانني   سأوطن اكوار (١) العتاق النجائب
اذا كان اصلي من تراب فكلها   بلادي وكل العالمين اقاربي

عمر بن رحيق — شاعر رقيق الاحساس نشأ بصقلية وهجرها عند تغلب الزمان عليها ، وله من قصيد يذكر به مدينة بالرمة بعد ان زال عنها سلطان المسلمين

نفسي تحن الى اهلي واوطاني   وهل رأيتم محبا غير حنان
كانوا بقلبي احياء وفي كبدي   نار تاجج من شجوى (٢) واحزاني
ماضرحين ناوا لو ودعوا (٣) دنفا   رهن الحوادث في كف الهوى عان (٤)
عز اصطباري لرزء قد دهيت به   وبان عني لوشك البين سلواني

محمد بن الحسن بن علي ابوبكر الربعي — ولد بمدينة جرجنت ، وتفقه بها وتبحر في العلوم العربية الاسلامية متمما في مدينة القيروان علمه ؛ وكان من خيار الرجال وافاضل المسلمين ، هاجر صقلية عند زوال سلطان المسلمين ، واستقر بمدينة الاسكندرية وبها توفي سنة ٥٣٧ .

محمد بن خراسان — يعرف بالنحوي الصقلي ؛ كان مولى لبني الاغلب سمع من ابي جعفر النحاس مصنفاته ؛ وروى عن ابي بكر محمد ابن بدر القاضي ، ومروان بن عبد الملك بن بحر وروى عنه يوسف بن ابي حبيب بن محمد وقد قضى رحمه الله كامل حياته في مجالس العلم ، وفي اوساط العلماء الى ان مات سنة (٣٨٦) عن ست وسبعين سنة .

محمد بن ابي فرج بن فرج — هو ابو عبد الله ، المالكي الكتاني ، المعروف

(١) اكوار جمع كور — الرحل العتاق من الخيل نجايب يعني انه يوطن سروج الخيل النجايب (٢) شجوي ، حزني واحزاني عطف مرادف (٣) دنف ؛ مريض مرضا مزمنا . (٤) عاني ، اسير

بالذكي النحوي ، كان من كبار العلماء ، مبرزاً في علوم اللغة والنحو ، وسائر فنون الادب ؛ وكان مولعا بالمغامرات والاسفار .

ساح جهات العراق وفارس وغزنة حتى وصل بلاد الهند وجرت له مخاصمات مع جماعة من الائمة ، آلت الى طعنه فيهم ، وبسط لسانه الى مالا يليق بهم .

مما يدل على علو كعبه وسمو مكانته في العلم انه حضر املاء محمد بن منصور السمعاني ، فلم يصادق ابن ابي الفرج على ما املاه السمعاني وقال للناس ليس الامر كما املاه عليكم بل هو كذا وكذا فقال السمعاني رحمه الله اكتبوا كما قال فهو اعرف به فغيروا الكلمة وكتبوا كما قال الذكي فبعد ساعة قال الذكي ياسيدي انا سهوت والصواب ما امليت انت فقال السمعاني اذن غيروه وارجعوه كما كان ومات محمد بن ابي الفرج متسوحا في ارض خراسان سنة ٥١٢ ؛ وقد كان مولده بصقلية سنة ٤٢٧ .

الشريف محمد بن احمد الادريسي — ليس هذا النابغ الفذ من ابناء صقلية بل هو مغربي قح ، من سلالة الاشراف الادريسيين ، مؤسسي الدولة العلية الادريسية بالمغرب الاقصى ؛ لكنه قد سجل اسمه في التاريخ الصقلي ، بمآثرته الخالدة التي فتح بها فتحا جديداً في وجه التمدن العالمي ، وفجر بها ينبوعاً حياً لعلم الجغرافيا ، وهو يعتبر حقاً اول اساطينه ، وبالغ سدرة منتهاه في عصره .

ولد الشريف الادريسي بمدينة سبتة سنة ٤٨٧ (١٠٩٩) وابتدأ تعلمه ببلاد المغرب الاقصى ، ثم خرج سائراً في الارض راكضاً وراء التعمق في العلم ؛ فام مدينة قرطبة كعبة القصاد ومنبع الهدى والنور في القرون الوسطى ؛ وهنالك اقبل على علم الجغرافيا والنجوم والطب ؛ فلما استكمل معلوماته خرج سائحا يكتشف البلاد ويطلع على الامصار ، فزار اسبانيا والبرتغال وايطاليا وسواحل فرنسا وبلاد الانكليز وبلاد اليونان وبلاد الشرق التركي والعربي والرومي .

ادى به المطاف يومئذ الى جزيرة صقلية ؛ ايام ملكها الاعظم رجار الثاني ، فاتصل به واكرم مثواه واختصه لنفسه وبذل له اقصى ما يبذله ملك حكيم عالم ، لرجل في مثل قيمة الادريسي ؛ فاستقر الشريف في صقلية ، واصبح درة لامعة فى بلاط الملك النرماني .

هنالك اخذ الادريسي طوعاً لاشارة الملك رجار ينجز مأثرته الكبيرة خريطة العالم ، كما كان معروفا يومئذ .

نقشها على دائرة من الفضة وزنها ١٨٠٠ اوقية ؛ وقسم الدنيا المعروفة اذذاك الى سبعة اقاليم متوازية ؛ يبتدىء الاقليم الاول عند خط الاستواء تقريباً وينتهى الاقليم السابع عند المتجمد الشمالي ، الذي يدعوه بحر الظلمات .

ولكي يبين ما نقشه في الخريطة الف كتابه الجليل الشأن : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ؛ وقد قسمه الى سبعة ابواب ؛ حسب تقسيم الاقاليم ، وكل باب مقسم على عشرة اقسام يقول مسيو لوريش ، فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى «هو اكمل كتاب جغرافى تركه لنا العرب وان ما دققه الادريسى من تحديد المسافات ، وما حققه من دقائق الوصف ، يجعل من هذا الكتاب وثيقة نفيسة لعلم الجغرافيا في مستهل القرون الوسطى .» وقد اتم تأليفه سنة ٥٣٨ (١١٥٠)

ويقول عنه حاجي خليفة فى كشف الظنون « اورد اوصاف الممالك والبلاد مستوفيا وهي المسافات بالميل والفرسخ لكنه لم يذكر الاطوال والعروض »

وقد ترجمت قطع كبيرة من كتاب الادريسى لمختلف لغات العالم ؛ وكادت كل بلاد تترجم ما يتعلق بها من نزهة المشتاق ، اما بالفرنسية فقد ترجمه برمته مسيو جوبير ، ونشره فى جزأين ، سنة ١٦١٩ .

وتوفي الشريف الادريسى فى صقلية ودفن بپالرمة بعد ان ادى للعالم خدمة تذكرها الاجيال ، خلال سنة ٥٦٨ ؛ (١١٨٠ ؛)

جمهرة من العلماء والكتاب والشعراء

عدد جسيم ممن اشتهر فى صقلية بالعلم والادب، وتبرز فى الشعر، وركض فى ميدان النظم والتأليف، لا نستطيع أن نترجم لهم ترجمة وافية، لان ذلك ربما اخرجنا عن دائرة الايجاز التى حددناها لانفسنا فى هذا البحث؛ ولكننا لا نستطيع كذلك ان نغفل اسماءهم، ونترك ذكرهم، وهم ممن شادوا صرح المدنية الاسلامية فى صقلية ورفعوا عالياً ذكر هذا القطر الذى جعلوه منبع نور وهدى ومركز حضارة ومدنية، فلنذكر اسماءهم فى ايجاز واختصار؛ الى ان تسمح الظروف لى او لغيرى بتأليف خاص عن تراجم وآثار علماء وادباء صقلية الاعلام:

ابو الحسن احمد ابن الحسن الكلبي — من امراء الكلبيين من عائلة بنى الحسن كان اديبا فاضلا، وكان ميالا للشعر له فيه باع وابداع، يقول:

شنيت البيض حين شنين شيبي — وتأبانى التي ملكت فؤادي
وهل يختار ذو عقل ولب — بياض المقلتين على السواد

ابو القاسم عبد الله ابن سليمان الكلبي — من الامراء الكلبيين كذلك، كان مثل بقية امراء تلك العائلة الزكية، من رجال العلم والفن والادب، انما ادركته حرفة الملوك، فكان اكثر قوله فى الغزل والنسيب والصهباء، يقول:

كفى حزنا على البلوى مقامي — اخص عداك دونك بالسلام
اجد بالنوم اذ منعوك عني — لعلي ان ازورك فى المنام
رجوت بمقلتيك شفاء قلبي — وهل يشفى السقيم من السقام
وما ابقى الحمام على عطفا — ولكني خفيت عن الحمام

واذا ما جاريت الادباء فى ابحاثهم، قلت ان قوله هذا ماخوذ عن ابى الطيب المتنبى.

كفى بجسمي نحولا انني رجل — لولا مخاطبتي اياك لم ترنى

ثم يقول من خمرية وقد ابدع

ما ان سمعت ولا رايت بمثلها ... نار على ايدى السقات تدار

وجلوتها غلس الظلام فراعني ... ان قام فى غلس الظلام نهار

محمد بن عيسى بن عبد المنعم — من علماء علم الهندسة ، وله فى علم النجوم باع طويل وقد ذكر بهاذين العلمين ، خاصة بكتاب تاريخ الحكماء للخطيبى.

علي بن حبيب ابو الحسن — يقال له اللغوي الصقلى ؛ كان من علماء اللغة المعدودين واكابر البلغاء المبرزين ؛ وكان ممن يشار اليهم بالبنان، في نقد الشعر وتحليل معانيه .

عمر بن خلف بن مكي — من اكبر علماء عصره ، وافاضل المبرزين فى مصره جمع الى علم الدين علوم الادب ، فكان من المتقدمين فى كليهما ؛ وقد ادى به علمه الى تقدمه لمنصب قضاء حضرة تونس فوليه ، وروى انه كان خطيبا مفوها بليغا يخطب كل جمعة خطبة من انشائه تفوق خطب ابن نباته حسبما يقول الشيبانى فى انباه الرواة ، وقد كان آخر قضاة المسلمين بصقلية خرج منها مع آخر امرائها ابن الحواس عند الانجلاء النهائي وتغلب النرمان .

طاهر بن عمر بن الرقبانى — من علماء صقلية الاعلام فى اللغة والادب وكلام العرب ؛ قال الشيبانى انه لم يكن في زمانه اعلم منه بلغة العرب وكلامها ونثرها ونظامها ، وكان بينا مقدما ، جليلا معظما ، قصده الفضلاء من كل جهة الى صقلية فلقوا منه بحرا طاميا .

عمر بن علي بن عمر السرقوسي — من كبار علماء العربية بصقلية له تاليف فى القرآآت والنحو والعروض ، وقد استوطن مصر ، وكانت له حلقة للقراء ، يؤمها الطلاب .

محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر — التميمى القرشي الصقلى ، نبغ في موطنه ثم رحل لاتمام التفقه فى الدين وملء الوطاب من علوم العربية والادب ، وعاد الى الجزيرة بحرا من العلم والفضل والهدى ؛ واستقر فى مدينة مازر وصحب اميرها الذى قربه واكرم مثواه وكان امير مازر ابن مذكور يومئذ على غاية من الزهد والورع والتقوى وكان محمد موجودا الى سنة ٤٥٠ ؛ وقد انتفع به وتخرج عليه جمهور كبير من العلماء الجلة ، ومن اشهر تلاميذه ابن القطاع الآنف الذكر والترجمة .

يوسف ابن احمد ابو يعقوب الدباغ — من علماء العربية الاعلام بصقلية كان حافظا لكتب الاقدمين ، وله شعر جيد حسن .

ابو محمد الدمعة — كان معدودا من كبار الشعراء ؛ وكان من اكابر المعلمين ورؤسائهم بصقلية تخرج عليه جمهور كبير من الادباء .

سليمان بن محمد الصقلى — قال عنه صاحب مسالك الابصار ، صقل الفهم الجلى مرآته ، وصور فى هيأة المصباح المضىء ، مشكاته ، وداوى به سقم الادب حتى ازال شكاته ، وكان من اهل الادب والشعر وحافظا لكلام العرب ؛ وتقدم بفضل ادبه عند الكبراء .

بعض مؤلفات الصقليين

مما ورد ذكره في كتاب كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون للعلامة المحقق المدقق مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة .

الاشتراك اللغوي والاستنباط المعنوى : للشيخ محمد بن عبدالله بن ظفر ؛ المتوفى سنة ٥٦٨ (سبقت ترجمته).

اعراب القرآن — لابي طاهر اسماعيل بن خلف الصقلى المتوفى سنة ٤٥٥ ؛ فى تسع مجلدات .

اعلام النبوة : للشيخ ابن ظفر الانف الذكر

الافعال وتصاريفها: للشيخ ابي القاسم ابن القطاع المتوفى سنة ٥١٥ وقد ذكر ابن خلكان ان تاليفه اجود من افعال ابن القوطية .

انباء نجباء الابناء ؛ للشيخ ابن ظفر .

تاريخ صقلية لابن القطاع السالف الذكر .

الدرة الخطيرة ، والمختار من شعراء الجزيرة ؛ لابن القطاع ايضا ؛ اورد فيه من شعراء جزيرة صقلية ذكر ماية وسبعين شاعراً .

تثقيف اللسان ؛ لابن القطاع ايضا

تجويد ، لبغية المزيد ؛ كتاب فى القرآآت السبع ، للشيخ ابي القاسم عبد الرحمن ابن ابي بكر بن الفحام الصقلي ، المتوفى بالاسكندرية سنة ٥١٦

تفسير القرآن لابن ظفر

تهذيب المطالب ، لعبد الحق الصقلي ؛

المعلم ، للامام المازرى الشهير ، المتوفى سنة ٥٣٦

سلوان المطاع ، فى عدوان الاتباع ، لابن ظفر ،

الشافى ، فى علم القوافي ، لابن القطاع ؛

طبقات الشعراء ، لابن القطاع ؛

الملح العصرية ، له ايضا ؛

المختار في النظم والنثر ، لافاضل اهل العصر ، تأليف ابن بشرون الصقلي ؛

كتاب المشي والسير ، لابن القطاع ؛

التنقيب ، على ما فى المقامات من غريب ، لابن ظفر ؛

الروضة الانيقة ، ليحيى ابن عبد الرحمن بن عبد المنعم

ينبوع الحياة فى التفسير ، لابن ظفر ؛

عبد الجبار بن حمديس

هو رابع اربعة اعلام ذاع صيتهم فى كل الاصقاع والبقاع؛ وتردد ولا يزال اسمهم يتردد دوما واستمرارا، كلما ذكر العلم والادب والشعر هم: المازري وابن الطقاع، وابن ظفر وابن حمديس؛ وان صقلية لو لم تنجب من ابنائها الكرام البررة الا هؤلاء الاربعة لكفاها ذلك فخرا على ممر الايام ولبقى لهم ذكرها حيا خالدا لا تعتدي عليه عوادي الزمان.

كان ابن حمديس علما من اعلام الشعر؛ وفذا من أفذاذ البيان. وكان روحا سامية، ونفسا ابية، وفيضا نورانيا يشع بنفسه كالراديوم، كان يمثل اجلى تمثيل وطنه صقلية؛ فى عبثه ترى عبثها وفي لهوه ترى لهوها وفي حماسه ترى حماسها وفى اوصافه ترى اوصافها ذات الالوان الزاهية الخلابة، وفى تنديده باهلها ترى وتسمع لسانها العاقل يندد بابنائها الذين اضاعوها؛ وفي رثائه لها، وبكائه عليها، يخيل الك انك تسمعها تبكي وتنتحب؛ تندب سلطانا ضائعا، وملكا مفقودا.

بل ان شعر ابن حمديس فى مجموعه، يعد ملحمة من ابدع ما اخرج الشعراء للناس من الملاحم.

ولد ابن حمديس في مدينة سرقوسة من صقلية سنة ٤٤٦ في وقت كان حكم المسلمين فيه يسلم الروح؛ وقد فتح عينيه النافذتين فراى مصائب قومه وفتنهم وتغلب الافرنج عليهم؛ وصورها لنا كافات، فابدع تصويرها، ثم نزح عنها اذ لم يستطع البقاء تحت حكم النصارى؛ فجاب بلاد المغرب والاندلس واتصل بملوكها وامرائها؛ ومدح ابن علناس فى بجاية؛ ويحي ابن تميم ابن المعز بن باديس فى المهدية والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية الشاعر وغيرهم وكان اينما حل وحيثما ارتحل يترنم بذكر صقلية ويزفر حار الزفرات كانه يستحث المسلمين عامتهم وخاصتهم امراءهم وسوقتهم على الاخذ بيدها واستخلاصها من يد العدو الغاصب

الى ان هرم ، وجاوز الثمانين واصبح يقول :

اصلتني الدهر للرزايا ... وغير الحادثات نفسي
وكنت امشي واست اعيا ... فصرت اعيا واست امشي
كأنني اذ كبرت نسر ... يطعمه فرخه بعش

سأله بعض الادباء عن تشبيهه نفسه بالنسر ، فقال ليس في الحيوان من يطعمه ولده اذا هرم الا النسر »

واصبح يسير الهوينا متكئا على عصاه :

ولي عصا من طريق الذم احمدها ... بها اقدم في تأخيرها قدمي
كأنها وهي في كفي اهش بها ... على الثمانين عاما لا على غنمي
كأنني قوس رام وهي لي وتر ... ارمي عليها زمان الشيب والهرم

ومات رحمه الله كئيب النفس ، مجروح الفؤاد ، سنة ٥٢٧ ؛ واني اذاكر لك ، في خاتمة هذا الباب بل في خاتمة هذا الكتاب ، شيئا من ملاحم ابن حمديس كأنها تلخيص لجميع ما مر في هذا السفر ، او استدراك لما لم يتوصل هذا القلم لبسطه وتسجيله عن صقلية الاسلامية .

يقول في قصيد رائع ؛ يذكر شبابه وشباب صقلية

قضت في الصبا النفس اوطارها ... وابلغها الشيب انذارها
وما غرس الدهر في تربة ... غصونا ولم يجن اثمارها
نعم واجيلت قداح الهوى ... عليها فقسمن اعشارها
فافنيت في الحرب الاتها ... واعددت للسلم اوزارها
كميتا لها مرح بالفتى ... اذا حث باللهو ادوارها

مجالس الشرب واللهو :

تناولها الكوب من دنها ... فتحسبه كان مضمارها

وساقية زررت كمها   على عنق الضبي ازرارها
تدير بياقوتة درة   فتغمس في مائها نارها
وفتيان صدق كزهر النجو   م كرام النجادة احرارها
يديرون راحا تفيض الكؤ   وس على ظلم الليل انوارها
كأن لها من نسيج الحباب   شباكا يعقل اطيارها

راهبة دير ؟ او مديرة ماخور ؟ :

وراهبة اغلقت ديرها   فكنا مع الليل زوارها
هدانا اليها شذى قهوة   تذيع لا تفك اسرارها
كأن نوافجه عندها   دنان مضمنة قارها
طرحت بميزانها درهمي   فاجرت من الدن دينارها
خطبنا بنات لها اربعا   ليفترع اللهو ابكارها
من اللاء اعمار زهر النجوم   تكاد تطاول اعمارها
تريك عرائسها ايديا   طوالا تصافح اخصارها

خبير بنت الحان

تمرس في شمها طبها   مجيد الفراسة فاختارها
فتى دارس الكاس حتى درا   عصير الخمور واعصارها
يعد لما شئت من قهوة   سنيها ويعرف خمارها

مجالس الطرب :

وعدنا الى هالة اطلعت   على قضب البان اقمارها
نفى ملك الهم عنا الهموم   تثور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الاسى   قيان تحرك اوتارها
فهذي تعانق عوداً لها   وتلك تقبل مزمارها

ورافصة اقطعت رجلها | حساب يد نقرت طارها
وقضب من الشمع مصفرة | تريك من النار نوارها
كان لها عمدا صنعت | وقد وزن العدل اقطارها
تقل الدياجي على هامها | وتهتك بالنور استارها
كانا تسلط آجالها | عليها فتمحق اعمارها

الحنين لصقلية :

ذكرت صقلية والاسى | يهيج فى النفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خلت | وكان بنو الظرف عمارها
فان كنت اخرجت من جنة | فانى احدث اخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء | لخلت دموعي انهارها

التوبة والندم :

ضحكت ابن عشرين من صبوة | بكيت ابن ستين اوزارها
فلا تعظمن لديك الذنو | ب اذا كان ربك غفارها

* * * *

ثم يبكي صقلية بكاء مراً ، كأنه قد ضاقت به الارض على سعتها بعدها ، وكأن ما لاقاه من عطف الملوك والامراء ، ورعاية اكابر القوم لا يعد شيئاً مذكوراً امام « جنته المفقودة » فيقول :

فبت من الليل فى ظلمة | فيا غرة الصبح هاتى الضياء
ويا ريح اما مريت (١) الحيا | ورويت منه الربوع الظماء
فسوقى الي جمام (٢) الغيوم | لاملاها الك بالدمع ماء

(١) مرى الناقة مسح ضرعها ، يريد الشاعر من الريح اما ان تحلب المطر الخ
(٢) جمام جمع جم و هو الكثير من كل شيء — يريد هنا الكثير من الغيوم .

وبسقي بكائي ربع الصبا فما زال في المحل يسقى البكاء

ولا تعطشي طللا (١) بالحمى تدانى على مزنة او تناء (٢)

فلا تعجبي فمغاني الهوى بطيب طيب ثراها الهواء

ولى عندها مهجة صبة تزودت في الجسم منها ذماء

ديار تمشت اليها الخطوب كما تمشى الذئاب الضراء (٣)

صحبت بها في الغياض (٤) الاسود وزرت بها في الكناس الظباء (٥)

وراءك يابحر لى جنة لبست النعيم بها لا الشقاء

اذا انا طالعت منها صباحا تعرضت من دونها لي مساء

فلو انني كنت اعطى المنى اذا منع البحر منها اللقاء

ركبت الهلال به زورقا الى ان اعانق فيها ذكاء (٦)

* * * *

ويذكر في ديار الغربة، اسود العرين، ابطال صقلية الذين لم يتركوا السيف حتى فارقهم النفس الاخير؛ فان كانوا فيما بينهم ذئابا، فقد كانوا تجاه الاعداء اسوداً؛ فيقول من قصيد طويل:

وربما رب نبت تعتريه مرارة وقد كان يسقى عذب ماء السحائب

علمت بتجريبي اموراً جهلتها وقد تجهل الاشياء قبل التجارب

ومن ظن امواه الزواخر عذبة قضى بخلاف الظن عند المشارب

---

(١) الطلل؛ الشاخص من آثار الدور؛ (٢) التناءى، البعد؛ يعني ترانى على مقربة من مزنة او بعد منها؛ (٣) الضرآء، جمع ضرو، و الضاري من الوحوش الذى تعود أكل لحم الصيد و دمه واولع به؛ (٤) الغياض، جمع غيضة، الاجمة مجتمع الشجر في مغيض الماء (٥) الكناس، بالكسر مستتر الظبي من الشجر؛ (٦) الذكاء، بالضم، الشمس.

ركبت الهوى فى رحل كل حبيسة (١) ... تواصل اسبابي بقطع السباسب
قلاص (٢) حناهن الهزال كانها ... حنيات نبع (٣) فى اكف جواذب
اذا وردت فى زرقة الماء اعينا ... وقعن على ارجائها كالحواجب
بصادق عزم فى الاماني يحثني ... على امل من همة النفس كاذب
ولا سكن الا مناجاة فكرة ... كاني بها مستحضر كل غائب
فلما رأيت الناس يرهب شرهم ... تجنبتهم واخترت وحدة راهب
اخي خيال كنت احظى بوصله ... له في الكرى عن مضجعي صد غائب

فخر :

فهل حال من شكلي عليه تغير ... مخافة جسمي وابيضاض ذوائبي
اذا عد من غاب الشهور لغربة ... عددت لها الاحقاف (٤) فوق الحقائب
ولي فى سماء الشرق مطلع كوكب ... جلا من طلوعي بين زهر الكواكب
متى تسمع الجوزاء فى الجو منطقي ... تصح من معاني الارتجال الغرائب

اخوان الانس والصفاء :

وكم لي من صفو وود محافظ ... لذى العيب من اعدائه غير عائب
اخي صبوة نادمته الراح والصبا ... له من يد الايام غير سوالب
معتقة دع ذكر احقاب عمرها ... فقد ملت منها انامل حاسب
اذا خاض منها الماء فى مضمر الحشا ... بدا الدر منها بين طاف وراسب
ليالي لم يذهبن الا لذاتنا ... نظمن عقوداً للسنين الذواهب

---

(١) الحبيسة ، من الخيل المحبوسة فى سبيل الله ، هذا هو الاصل (٢) قلاص جمع قلائص وهذا جمع قلوص ، و هي الناقة الطويلة القوائم (٣) نبع ، شجر للقسي وللسهام (٤) الاحقاف ، جمع حقف و هو المعوج من الرمل ، كما تقدم ، والحقائب جمع حقب وهو مدة ثمانين سنة وقيل غير ذلك .

مصيبة صقلية بين اعداء الخارج واعداء الداخل :

ولو ان ارضى حرة لاتبعتها بعزم يعيد السير ضربة لازب
ولكن ارضى كيف لي بفكاكها من الاسر في ايدي العلوج الغواصب
احين تفاني (١) اهلها طوع فتنة يضرم فيها ناره كل حاطب
ولم يرحم الارحام منهم اقارب تروى سيوفا من دماء الاقارب

وصف ابطال صقلية فى الجهاد

وكان لهم حذب (٢) الاصابع لم يكن رواجب (٣) منها حانيات رواجب
اناس اذا ابصرتهم في كريهة رضيت من الآساد عن كل غاصب
اذا خاندوا فى مازق الحرب جردوا صواعق من ايديهم فى سحائب
لهم يوم طعن السمر ايد مبيحة كلا الاسد فى كراتهم للثعالب
تخب (٤) بهم قب يطيل صهيلها بارض اعاديهم نياح النوادب
اذا ما ادارتها الكر حسبتها تدور على الهامات فوق الكواكب
اذا سكتوا في غمرة الموت انطقوا على البيض بيض المرهفات القواضب
تري شعل النيران فى خلج (٥) الضبا تذيق المنايا من اكف النواهب
اولئك قوم لا يخاف انحرافهم عن الموت ان حامت اسود الكتائب
اذا ضل قوم عن سبيل الهوى اهتدوا واي ضلال للنجوم الثواقب ؟

---

(١) تفاني اهلها ، استغني بعضهم عن بعض (٢) حذبه بالسيف — ضربه او قطع اللحم دون العظم (٣) الرواجب — المفاصل اصول الاصابع ؛ حانيات — حتيته خطئه واحكمته وفتلته يعنى انها — بعد قطع الاصابع — لم يكن فى امكانها ان يحكم بعضها بعضا (٤) تخب ، تسرع ، قب اي خيل ضامرة البطون (٥) الخلج — بالفتح الفساد ؛ والضبا يقال ضبته النار غيرته وشوته ؛ والضابى الرماد و لعله يريد انك ترى شعل النيران فى رماد فاسد من جثثهم وامتعتهم فليحرر

وكم فيهم من صادق الناس مفكر ... اذا كر في الاقدام لا في العواقب

غزواتهم فى بلاد ايطاليا:

اذا ما غزوا فى الروم كان دخولهم ... بطون الخلايا(١) فى متون السلاهب
يموتون موت العز فى حومة الوغى ... اذا مات اهل الجبن بين الكواعب
حشوا من عجاجات الجهاد وسائداً ... اعدت لهم في الدفن تحت المناكب
فعادوا افول الشهب فى حفر البلا ... وابقوا على الدنيا سواد الغياهب

التوجع والحنين:

امثلها فى خاطرى كل ساعة ... وامرى لها قطع الدموع السواكب
احن حنين البنت للموطن الذى ... مغانى غوانيه اليه جواذبي
ومن سار عن ارض ثوى قلبه بها ... تمنى له بالجسم اوبة آيب

ثم استمع اليه يشدو بذكر وطنه وقومه فيرفع ذكر صقلية الى السماك الاعزل ويسمو باهلها الى منزلة الابطال:

رجال الحرب الصقليون:

رعوا ورق البيض الذى زهره دم ... لهم ورق عن زهرة الروض تبسم
جبابرة فى الروع تعدو جيادهم ... بهم فوقها رشح الوشيج(٢) المقوم
تنوء(٣) بهم فى ذبل الخط انجم ... سحائبها نقع وامطارها دم

---

(١) بطون الخلايا، الخلايا جمع خلية، مايعسل فيه النحل؛ والسلهبة من الخيل، الجسيمة؛ والسلهابة الجريئة. ولم يتضح لنا ما يريده الشاعر هنا؛ ولعله يريد انهم اذا ما غزو في الروم كان دخولهم فيهم دخول الزنابير فى بطون الخيل فليحرر (٢) الوشج الاشتباك والوشيج فى الاصل شجرة تصنع منها الرماح و تطلق على الرماح ذاتها. (٣) ناء به الحمل ينوءه اثقله واماله. ذبل الرماح الدقيقة؛ الخط مرفأ للسفن بالبحرين حيث تباع الرماح — يعني تثقل بهم فى حمل الرماح الدقيقة

ترحل من آجارها(١)الاسد خيفة | اذا نزلوا للرعي فيها وخيموا
ترى كل جو من قناهم ونقعهم | بكوكب ان ساروا اليه ويمموا
فصاح غداة الحرب عز سكوتهم | والسنة الاغماد عنهم تترجم
كان بايديهم اذا ضربوا الطلا(٢) | عزائمهم لو انها تتجسم
اذا ما استوى فعل المنايا وفعلهم | بارواح ابطال الوغى فهموا هم
اعاريب ابقى في تباريح (٣) حبهم | لهم اعوج(٤)مايوجفون(٥)وشدقم(٦)
صحبتهم في موحش الارض مقفر | به الذئب يعوى والغزالة تنغم
سقا الله عنا عذبة (٧) الدمع ان بكـ | ـت دياراً بها للجسم قلب متيم(٨)
بارض يميت الهم عنك سرورها | ويمحو ذنوب البؤس فيها التنعم
وكم لي بها من خل صدق مساعد | مهين العطايا وهو للعرض مكرم
يفيض على ايدي الكماة سماحة | على انه من نجدة يتضرم
اذا فرت الابطال كر وسيفه | محل ودم العلج فيه محرم (٩)
يموج به بحر كان حبابه(١٠) | عليه دلاص(١١)سردها منه محكم

اسنة الرماح الحديدية اللامعة كالنجوم ، النقع الغبار ؛ (١) آجارها جمع وجار ، جحر الاسد يعني ترحل من اجحارها (٢) الطلا ، بالكسر الاعناق او اصولها (٣) تباريح الحب توهجه (٤) اعوج، فرس شهير لبني هلال وتنسب إليه الاعوجيات (٥) أوجف الفرس ، جعله يعدو ؛ (٦) شدقم ؛ فحل للنعمان ومنه الشدقميات من الابل يعني ان خيلهم العتاق وابلهم الفحلة من جودتها لا تستحق تسييرها وإسراعها بل تسير وتعدو وحدها ؛ (٧) عذبته الدمع ، مانعته وتاركته ، شحيحته ؛ (٨) متيم ، معبد مذلل بالحب ؛ (٩) يعني والله أعلم انه لفرار الابطال وكره على العدو يختص به وحده فيبقى لسيفه حكم الحل ولدم العدو فيه الحرم لا حق لاحد دونه ؛ (١٠) الحباب بالفتح ، ما يعلو الماء من الفقاقيع؛ (١١) دلاص ، يقال درع

ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم ... اذا عبست حرب لهم تتبسم
ومن حلب الاوداج (١) يغذى فطيمنا ... بحجر من الهيجاء ساعة يفطم
انا عجز الجيش اللهام (٢) وصدره ... بحيث صدور السمر فينا تحطم
يضاعف ان عد الفوارس عدنا ... كأن الشجاع الفرد فينا غرمرم
نؤخر الاقدام في كل ساعة ... تأخر ما يلقى الحتوف تقدم (٣)
فان كان للحرب العوان معول ... علينا فما كل الكواكب ترجم
وننسج يوم الروع من نسج جردنا (٤) ... علينا ملاء (٥) للقشاعم (٦) ترقم
فمن كل صنديد على اعوجية ... بكراتها طير الملاحم تلجم

اسطول المسلمين الصقلي:

وطائرة بالدمر ملء عنانها ... لها السبق فى شأو البروق مسلم
رمينا عداة الدين فى عقر دارهم ... بعادية فى غمرة الموت تقحم
تعوم بها بين العلوج مظلة ... كما حلقت فتخ على الجو حوم (٧)
فمن حامل من غير فحل وفرخها ... لدي وضحها في ساحل الروم صيلم (٨)
ومنسوبة للحرب منشأة لنا ... طوائر بالآساد فى الماء عوم

دلاص أي ملساء لينة ؛ سردها ، نسجها (١) الاوداج عروق بالعنق — يعني من دم عروق أعناق الاعداء يغذى فطيمنا حال فطامه وهو فى أحضان الحرب (٢) اللهام بالضم العظيم من الجيش (٣) يعني اننا نؤخر لاجل الاقدام في كل ساعة ما دام التقدم يفضي إلى الحتف المحقق ؛ (٤) الاجرد الفرس القصير الشعر رقيقه و السباق ، (٥) ملاء ، جمع ملاءة — الريطة وهي من الثوب ما يكون من نسج واحد غير ذى لفقتين او كل ثوب لين رقيق ؛ (٦) القشاعم جمع قشعم ، القشعم الاسد ، اي قشعم الموت ؛ (٧) كان شاعرنا المفلق ، قد اطلع على الغيب فوصف في هذه الابيات الثلاثة الطائرات المدمرة الحديثة (٨) الصيلم ، الداهية ، والامر الشديد

كأن قسيا فى مؤاخرها التي ... يفوق منها فى القادم أسهم
وترسل قطعاً يركب الماء محرقا ... كمهل(١) به تشوى الوجوه جهنم
مدائن تغزو للعلوج مدائنا ... فتفتح قسراً بالسيوف وتغنم
ومتخذى قمص الحديد ملابسا ... اذا نكل(٢) الابطال في الحرب اقدموا
كأنهم خاضوا سرابا بقيعة ... ترى للثريا فيه عينا عليهم
صبرنا لهم صبر الكرام ولم يسغ ... لنا الشهد الا بعدما ساغ علقم(٣)
فغادر افواها بهم هبر ضربنا ... بواحدها من مرهفات يثلم
وان بايدينا الحديد لناطق ... اذا ما غدا فى غيرها وهو ابكم

الراية الحمراء :

واجنحة الرايات فينا خوافق ... كأن دم الابطال فيهن عندم (٤)
امن ابرق بالدار اومض بارق ... كطائش كف بالبنان يسلم
مرى من عيون ساهرات مدامعاً ... وكحلها بالنور والليل مظلم

الحنين لصقلية البائسة الاسيرة —

ويا عجبا من روضة زار طيفها ... جفونا من التهويم فيها توهم
ألم بساقي عبرة حد قفرة ... بمنسم حرف كلما بل يلطم
واهدى اريجا من شذاها ودونها ... بمقتحم الاهوال شهب وحضرم(٥)
وللصبح نور فى الظلام كما اكتسى ... حميما (٦) بطول الركض فى الصدر ادهم
احن الى ارضي التي فى ترابها ... مفاصل من اهلى بلين واعظم
كما حن في قيد الدجى بمضلة (٧) ... الى وطن عود من الشوق يرزم

---

(١) المهل بضم الميم ، القطران الرقيق و ما ذاب من صفر او حديد ؛ (٢) اذا نكل نكص وجبن ؛ (٣) العلقم ، الحنظل ؛ (٤) العندم ، دم الاخوين ؛ (٥) حضرم القوس ، شد توتيرها (٦) حميما عرقا ومنه سمي الحمام لانه يعرق (٧) مضلة ارض

وقد صفرت (١) كفاي من ريق الصبا	ومني ملآن بذكر الصبا فم

* * * *

أليس هذا الشاعر الفحل ، جديراً بما قاله فيه ابن بسام : « هو شاعر ماهر يقرطس اغراض المعاني البديعة ، ويعبر عنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ، ويتصرف فى التشبيه المصيب ، ويغوص فى بحر الكلام على در المعنى الغريب » ؟

رثاء صقلية

واخيراً يلم بابن حمديس اليأس من انقاذ صقلية ، مبلغاً جهله يعلن عن ذلك اليأس اعلانا فيه حرقة الموجوع ، وزفرة المتاع ، فيقول ، ونحن نجعل من قوله هذا خاتمة هذا الباب ، ونهاية هذا الكتاب :

اعاذل دعني اطلق العبرة التى	عهدت لها من اجمل الصبر حابسا
اود لارضى ان تعود لقومها	فساءت ظنوني ثم اصبحت يائسا
وعزيت فيها النفس لما رأيتها	تكابد داء قاتل السم ناحسا

* * * *

صقلية كان الزمان بلادها	وكانت على اهل الزمان محارسا
فكم اعين بالخوف امست سواهرا	وكانت بطيب الامن عنهم نواعسا
أرى بلدي قد سامه الروم ذلة	وكان بقومي عزه متقاعسا (٢)
عدمت اسوداً منهم عربية	ترى بين ايديها العلوج فرائسا
اما داثت رعبا « قلورية » بهم	واردوا بطاريقابها واشاوسا (٣)

يضل فيها ؟ — عود المسن من الابل و الشاء ؟ — يرزم ، رزم البعير يرزم لا يقدر ان يقوم من هزال .

(١) صفرت ، خلت ؛ ريق الصبا ، لمعانه . (٢) متقاعسا ، ثابتا منيعا ؛ (٣) أشاوسا ، جمع اشوس ، الشديد الجريء في القتال ؛

وساقوا بايدي السبي بيضا حواسرا(١) | تخال عليهن الشعور برانسا
أفي « قصريانا » رفقة يعمرونها | واسما من الاسلام اصبح دارسا
ومن عجب ان الشياطين صيرت | بروج النجوم المحرقات مجالسا
واضحت لهم « سرقوسة » دار منعة | يزورون بالدربين فيها النواوسا(٢)
مشوا في بلاد اهلها تحت ارضها | وما مارسوا منهم ابيا ممارسا .
ولو شققت تلك القبور لاخرجت | اليهم من الاجداث اسداً عوابسا
ولكن رايت الغيل(٣) ان غاب ليثه | تبختر في ارجائه الذئب مائسا

تم الكتاب
والحمد لله رب العالمين

---

(١) حواسر ، منكشفات (٢) النواويس ، جمع ناووس ، مقبرة النصارى
(٣) الغيل ، الاجمة موضع الاسد .

اهم المصادر العربية

كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر	لابن خلدون
كامل التواريخ	لابن الاثير
اتحاف اهل الزمان	احمد بن ابي الضياف
مروج الذهب	المسعودي
الامامة والسياسة	لابن قتيبة
نهاية الارب	للنويري
الفارسية	لابن قنفذ
تقويم التواريخ	لحاجي خليفة
المؤنس	لابن ابي دينار
رحلة	ابن جبير
رحلة	التيجاني
معجم البلدان	لياقوت الحموي
وفيات الاعيان	لابن خلكان
مسالك الابصار	لشهاب الدين العمرى
نزهة المشتاق في اختراق الافاق	للشريف الادريسي
الوافى فى الوفيات	للصفدي
نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب	المقري
كشف الظنون	لحاجي خليفة
طبقات اللغويين	للسيوطي
خريدة القصر	عماد الدين الاصفهاني
طبقات علماء افريقيا (نشر الدكتور ابن ابي شنب)	محمد بن الحارث

الفتح القدسي — عماد الدين الاصفهاني

ديوان — ابن حمديس

دائرة معارف القرن العشرين — محمد فريد وجدي

اعمال الاعلام ، فيمن ولي قبل الاحتلام من ملوك الاسلام — لابن الخطيب

تعاليق وحواشي على اعمال الاعلام — حسن حسني عبد الوهاب

بساط العقيق في حضارة القيروان — — — —

المنتخب المدرسي من الادب التونسي — — — —

الى غير ذلك من نصوص عربية جمعها العلامة المحقق الاستاذ ميكال عماري

في كتابه الجليل : « المكتبة العربية الصقلية » Biblioteca Arabo-Sicula

(Lipisa) 1857 -

اهم المصادر الغربية

La grande Encyclopédie Française.

Le Epigrafi Arabiché de Sicilia - M. AMARI

Les Civilisations des Arabes - G. LEBON

Storia Dei Musulmani de Sicilia M. AMARI

Les Civilisations de l'Afrique du Nord - Victor PIQUET

L'école Médicinale de Kaïrouan - D. A. BEN MILAD

La Domination Musulmane en Sicile - H. H. ABDELWAHAB

Le Moyen âge - Albert MALET

Hitoire de l'Algérie - H. GARROT

Histoire de la Tunisie - G. LOTH

Les Siècles obcsurs du Maghreb - E. F. GAUTIER

La Barberie Orientale sous la dynastie des Benous l'Aghlab - Von Derheyden

Origine de la Renaissance en Italie - GEBHART

Contribution des Arabes aux Progrès des Sciences Médicales - ABDALLAH MANSOURI

Les Invasions Barbares - Ferdinand LOT

Histoire du Moyen Age - G. MARÇAIS

Histoire de l'Afrique du Nord - Ch. André JULIEN

Manuel d'Art Musulman - G. MARÇAI

Essai sur l'Architecture des Arabes - Girauld DE PROGEY

الفهرست

﴿ القسم التاسع ﴾

(العلوم والآداب)

فهرست ابجدى

ش

ك

انتهى

اصلاح غلطات مطبعية

صفحة	سطر	خطا	صواب
١٨	١٧	مثيلالا	مثيلا الا
٢٠	٦	والتعارف	وان التمارف
٢٠	٩	نيران	نيـر
٢٤	١	اساسة	اساسية
٢٤	٣	ابو نيقية	البونيقية
٣٠	٦	نهر	بحر
٣١	١	عليها	عليه
٤٦	١٦	بالرمةلا	بالرمة الا
٥٣	٩	١٤٤	١٦٠
٦٦	١	ادم	الدم
٦٧	١٦	المؤون	المؤن
٦٩	٢٢	ابو قهر	ابو فهر
٧٢	١٩	هذاك	هنالك
٧٤	١٩	فكان	فكانت
٧٦	٣	تحمل	يحمل
٧٦	١٣	حيث	حتى
٨٢	١٩	صاحب	(غير صاحب الخ)
١٠٣	١٨	الصقالية	الصقالبة

١٠٨	٤	نحـو	نحو
١١١	٦	كا محمد	كان محمد
١٣٠	١٥	بن اعمر	بن عمر
١٣٢	١١	النظاق	النطاق
١٣٢	٢٠	بدآ	بدآ
١٣٥	٣	فريد	الفريد
١٥٤	١٩	حماه الدير	حماه راهب الدير
١٩١	١٨	فانه	وانه
٢١٧		Mezzara	Mazara'
٢١٩		Giovamni	Giovanni
٢٢٥		Viaticus	Viaticum

وهنالك عدة غلطات اخرى وقعت رغم التحرى الشديد نأسف لوقوعها ونعتمد على فطنة القراء الفضلاء فى اصلاحها.